

أحمد الحقيل

دوائر

رواية





أحمد الحقيل

دوائر

رواية





أحمد الحقيل

دوائر

ⓒ النادي الأدبي بالرياض، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل ، أحمد
دوائر. /أحمد الحقيل. ـ الرياض ، ١٤٣٥هـ
٢٨٨ ص؛ ١٤.٥×٢١.٥ سم

ردمك: ٨ـ٥٠ـ٨٠٨٢ـ٦٠٣ـ٩٧٨

١ـ القصص العربية ـ السعودية أ. العنوان
ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٣٥/٧٨٠٧

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٧٨٠٧
ردمك: ٨ـ٥٠ـ٨٠٨٢ـ٦٠٣ـ٩٧٨

الطبعة الأولى، 2015



الرياض: حي الملز. شارع صلاح الدين الأيوبي (الستين) شمال حديقة فهد الفيصل
ص.ب: ٨٥٣١ - الرياض: ١١٤٩٢ - هاتف: ٤٧٦٦٥٣٠ - فاكس: ٤٧٨٧٢٤٦



adabiriyadh@gmail.com

www.adabiriyadh.com
@adabiriyadh1
أدبي الرياض



المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ هاتف : 303339 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com
بيروت ـ هاتف : 352826 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

الفصل الأول

الوضوح - التيه

لم يجد مكة في مكانها.

كان الطريق الإسفلتي قد انقطع فجأة، وانتهى به إلى أرض جدباء بهضاب مدبَّبة، تُصرّ ذاكرته على أنها مكة. ولكن أين مكة؟ فكر ضاري بحذرٍ متوجِّس، يقف في الأرض القاحلة بجانب سيارته، تطبخ جبينُه تحت شمس الصباح الحارقة. يقف وراءه ابنه إبراهيم على خط واحد، يحدقان بنظرةِ حيرةٍ متورطةٍ في امتدادات تتكدس بخيارات متشابهة، ثمة وادٍ ينحدر بعيداً عن يمينهما كالخندق، سهلٌ بأشجار نخل متيبسة كالخشب على يسارهما، جبالٌ بعيدة بهضاب سوداء نحتتها رياح التعرية. جهاز الجي بي إس لا يعمل، الذاكرة لا يمكن الثقة بها دائماً، الوضوح يرزح تحت ثقل الشك. قال إبراهيم بحيرةٍ:

- أين نحن؟

أطرق ضاري لحظة، يتطلع بعجزٍ مكبَّل.

- في مكة.

- إذاً أين مكة؟

رمق ابنه شزراً بنظرة استنكارٍ متبرمة.

- لا أعلم. كفاك أسئلة.

كان إبراهيم قد استحوذ في أول الطريق على الحديث، منذ خروجهما من المجمعة، يسرد كيف كان الناس يسافرون إلى مكة، الطرق والمسافات والأبعاد، معلوماتٌ بدا وكأنه حفظها خوفاً من أن يسيطر الصمت على رحلتهما، كما يحدث دائماً حينما يجتمع بوالده المطرِق في جموده. ضاق ضاري ذرعاً به فقال بحدّة مفاجئة:

- من يبالي؟ الأمر لم يعُد كما كان. تسلك طريقاً إسفلتياً، تراقب ذاكرتك وجهاز الجي بي إس، ثم تصل. لا يوجد شيء أكثر وضوحاً من ذلك.

يلمع أثر الشيب الطفيف في صدغيه، يُغلق عينيه الحادَّتين أمام سطوة الشمس، يغرق في تحديقة الرهبة الحذرة أمام امتدادات مجهول موحش، يشعر بموقف ابنه الاتكالي خلفه، يستفزّه. التفت نحوه بطرف عينه، فتى في الثالثة عشرة من عمره، يقف في مكانه متلفتاً بانتباهة متورطة. خاض قبل أيام قتالاً مع فتى آخر في المدرسة، فتمّ استدعاء ضاري، جلس بجواره على كرسي خارج مكتب المدير، ينتظران دخولهما. نقطة دم على قميص إبراهيم، وخطّ دم متيبس تحت أنفه. لم يوبخه، جلس مرتبكاً بجانبه، كغريب لا يراه إلّا مرة في الشهر، يبحث عن ردة فعل مناسبة فلا يجد شيئاً. قال أخيراً: «هل أنت بخير؟» هزّ إبراهيم رأسه دون أن يلتفت، يمزّ شفتيه محدقاً في الأرض. أصوات الأحذية في الأرضية السيراميكية تصِرُّ بتكرار، رائحة النظافة المبالغ فيها تطفح في الأنف، الشخوص التي تتحرك في الأروقة بأوتوماتيكية رتيبة، الجميع يحمل أوراقاً تبدو مهمة والجميع يبدو في طريقه إلى وجهة ما. بدا المكان لضاري

مفتعلاً بثقل مستفزّ، مستخرجاً من علبة تمّ تصنيعها في آلة لا حياة فيها، لو فتّش حوله فسيجد رقعة السعر في زاوية ما. عاد ليقول: «ما الذي حدث؟» أطرق إبراهيم لحظة، هزّ كتفيه بحيرة ثم قال دون أن يلتفت: «لا أذكر». طوال طريق العودة أخذ ضاري يفكر لو أنه كان يملك رفاهية قول «لا أذكر» لأبيه حينما يتقاتل مع فتى ما، كان سيستقبل كفاً تتبعه حكمة معلّبة سريعة مثل «الرجل لا ينسى لماذا يلطخ يده بدم غيره». تطلّع ضاري في ابنه تحت الشمس الحارقة، حبيبات عرق تنحدر من جبينه، يلعن الساعة التي جعلته يقبل إلحاح زوجته بأن يأخذه معه.

عاد إلى سيارته بوجوم متبرِّم، فلحقه إبراهيم باعتياد أوتوماتيكي. سارا عدة كيلومترات حتى توقفا عند مشهد طفل وامرأة، الشمس تسوطهما بقسوة في منتصف الوادي. الطفل يجلس على أرض جدباء، والمرأة تستقر فوق جبل الصفا، تحدّق حولها بتوتر محتقن. هاجرُ المصرية، عاشت ردحاً من الزمن في كنف الإمبراطورية الفرعونية، بكلّ زخمها المقدس وشطحاتها الأسطورية، وانتهى المطاف بها أمَة لدى سيدتها سارة، العاقرُ التي زوّجتها لزوجها إبراهيم، النبي الذي تجاوز السادسة والثمانين من عمره دون ذرية. إسماعيل يرفس الحصى باكياً بقدميه، ولكن لا يتحرك شيء من تحته. حينما أنجبته هاجر فرح إبراهيم كثيراً به، حتى أنه فتح باب الحظ لسارة بأن تُنجب إسحاق، فاجتمع ابن الزوجة الحرّة وابن الأمَة، نعمةٌ أكثر بكثير ممّا تمناه إبراهيم. ولكنّ الجحيم يولد أحياناً من رحم النعيم. استجاب لغيرة سارة التي اغتاظت من هاجر وابنها، فضرب الأرض مسافراً ليرمي إسماعيل مع والدته في وادٍ مقفر.

تشبّثت به رعباً فأخبرها بحتمية قاطعة «إنه أمر الله»، ثم رحل.

لمحت هاجر سراباً أسفل الوادي، ركضت إلى هناك دون أن تجد شيئاً، ثم لمحت سراباً آخر فوق الجبل، فعادت إليه دون أن تجد شيئاً. على وشك الانهيار، تتلفّت حولها بذهول مذعور، تسمع بكاء إسماعيل بزفرة عاجزة.

أحسّ ضاري بشيء غامض في المشهد يُثير القشعريرة. ولذا لم ينزل من سيارته، ظلَّ محدِّقاً بترقُّب متوجس.

- هل نساعدهما؟

قال إبراهيم بتردُّد ذاهل. التفتت المرأة فوق الجبل نحوهما، القشعريرة ترتفع حدّتها، أحس بها ضاري تحدِّق في عينيه بعمق مخيف، غارقة في المدى البعيد، تخترق المسافة بشبحية قشعريرية.

ضغط دواسة البنزين وهو يقول بشرود متصلب:

- لنقلق على أنفسنا أولاً.

أطرق شارداً ثم قال حينما لاحظ حيرة إبراهيم:

- في الغالب امرأة بدوية تنتظر أحداً.

سار في امتداد الفراغ، المسافات الممتدة بالوديان والجبال والصخور والمسارات الوعرة، يخترقها بسيارة جيب السفاري.

يلتفت إبراهيم نحو والده، متشبثٌ بالمقود بتحديقة ذاهلة، لا يعلم أين هو. سأله فأجاب بحدة شاردة:

- دعني أنتبه للطريق. وانتبه أنت أيضاً.

ترتفع الأرض بسهولها وجبالها الموشّحة بخضرة الزرع ونباتات العضيد والخزامى، رائحة المطر التي تتسرب من وراء زجاج النافذة.

- هل تنظر؟

قال ضاري فجأة. التفت إبراهيم نحوه، أطرق بحيرة ثم قال:

- ولكن لا يوجد شيء أنظر فيه.

يتطلعان بعينين مثبتتين في الطريق، لا يفكر أحدهما بشيء غيره. ولكن أين هو الطريق؟ ممرات وعرة بين التلال الصخرية، أشجار الضهياء والسرح تتوزع بعشوائية، لا شيء سوى المدى الممتدّ نحو مطلق متشابه، الجبال التي تلمع قُننها في سطوع الشمس كجمر منطفئ، الخواء الذي يطن بصفيرِ صمتٍ قطعيّ يثير الارتياب.

لاح أمامه امتداد إسفلتي قبل منطقة الهدا، الطريق القديم فوق عقبة الكر.

- أخيراً.

تنفسا بشيء من الارتياح.

الطريق يبدو ضيقاً. تقابله سيارات غريبة قديمة، أوجهٌ بشوارب كثة وثياب صفراء وشمغ فاقعة الحمرة. الطريق لا يبدو شبيهاً بالطريق الجديد الذي يتذكره. يتطلعان بنظرة شكّ مرتعبة حولهما، سيارات الداتسون واللوري والشيفروليه القديمة، غلالة رمادية تسطو على المكان، كصورة عتيقة. الطريق يزحف معلقاً على حواف الجبال، الغيوم تجثو على الأفق، الضباب يغطي العمق تحتهما بكثافة تثير الرهبة. وصلا عند منطقة المعسل، يبسِّط البائعون بالمياه الباردة النقية التي تنحدر من شقوق وصخور الجبل، محفوظة في الأزيار والجرار الفخارية. وقفا بعد تردُّد عند أحدهم، شيخ أسود بلحية محمرة بالحناء وعينان شديدتا البياض حول حدقة فاقعة السواد، يجلس على كرسي خشبي يقرأ القرآن، يرفع نظرات خاطفة

بين حين وآخر نحو المشهد الرتيب. يتلفتان ببطء في الطريق إليه، كل شيء يبدو غريباً، لا يتحرك بقدر ما يجدف متموجاً بثقل، يبدو لضاري كحلمٍ تدرك فيه أنك تحلم، ولكنك لا تستطيع تأكيد ذلك بأن تصحو. يحدق فيهما الآخرون، وكأنهما يبدوان غريبين أيضاً. شربا جرعة من ماء بارد يلفح اللظى، وعبَّأ ضاري قارورة كبيرة. سأله وهو يرطب شفتيه بلسانه المبلل:

- أين الطريق إلى مكة؟

رفع الشيخ يده ببطء موقر:

- من هنا. من الطريق الذي أتيت منه.

- ولكنني لم أجد مكة هناك؟

فهزَّ الشيخ رأسه بشيء من اللامبالاة:

- اتبَع الطريق، وستجدها.

- ولكن لم يكن هنالك طريق؟

رفع الشيخ رأسه بشيء من الاهتمام، فأحسَّ ضاري بغرابة ما يقوله، أنْ يختفي طريق ما من الوجود، كيف يحدث ذلك؟ ارتبك لحظة، يقف إبراهيم وراءه، يتطلع بشرود ذاهل فيما حوله. قال مشيراً إلى يساره:

- طيب. إلى أين يؤدي هذا؟

- الطائف.

قرَّر الذهاب إلى هناك، سيعود إلى مكة حينما يفهم ما الذي يحدث. أعطى الشيخ خمسة ريالات فحدق فيها باستنكار، ولكنه لم يقُل شيئاً، شكره وعاد ليجلس على كرسيه.

- هل ترى هذه السيارات؟

سأله إبراهيم بحيرة وهما يركبان. دمدم ضاري بشيء من الحدة:

- طبعاً أراها، لست أعمى. لنمضي الآن ونفكر لاحقاً فيما يحدث.

الطريق يتمايل بشكل ثعباني بين الجبال الغارقة في الضباب، تتطاير بين الأشجار قرود الرباح والبابون، حتى خرجا من العقبة وتجاوزا الهدا. يتطلع ضاري في المرآة الخلفية، جبال الكر تختفي وراءه، لا يلوح سوى خط الإسفلت كاللسان المندلق من الحر.

انقطع الطريق فجأة، سقط في أرض صخرية فكادت السيارة أن تنقلب. سيطر عليها بصعوبة بعد مسافة طويلة، نزل فلم يجد أثراً للطريق الإسفلتي.

- أين ذهب؟

قال إبراهيم بدهشة، يقف وراءه من جديد على خط واحد. ولكن ضاري ظلَّ مطرقاً، يحدق في المدى بنظرة ذاهلة، يندحر فيها شيء من الجزع. عادا إلى السيارة، الصمت يتفاعل بثقل خانق، دبيب الماكينة يتردد كالموسيقى الخلفية. كل شيء مقيد بالشك، ولكن لا شيء يُقال، التأكيد اعتراف خطير بشيء غير مفهوم، ولذا يحلّ محله صمت ثقيل مترقب. أكمل الطريق نحو الأمام.

السحب تنحسر من السماء، الأرض تزداد صلابة، سيارة السفاري تواجه قسوة الحجر. قطرات من العرق على جبين كل واحد منهما، نظرات معلقة تبحث عن إجابة في الفراغ، ولكن لا شيء.

لاحت أمامه نقطة بعيدة فاتَّجه نحوها، يتجنب الصخور المدببة. سور مدينة الطائف، من جهته الغربية، بعيداً عن باب

الريع. وقف بشك يزداد توتراً، يتطلع في السور المبني بالحجارة والطين بشيء من البدائية، تلوح حوله ضواحي المدينة بمزارعها وبيوتها الهامدة. نزل بعد تردُّد، قال لإبراهيم الذي فتح بابه:

- لا تنزل.

سار بذهول متحجر أمام السور الذي يبلغ ارتفاعه عدة أمتار، تبرز من ورائه البيوت الطينية وبنايات الطوب المزينة بالرواشين، تنقع برتابة مخيفة، الاحتقان يترنح بثقل في الهواء، تقطعه أصوات فرقعات غامضة تزحف من بعيد. في الجهة الشمالية عند باب الحزم احتشد جيش عبد الله بن الشريف الحسين، أحد قادة الثورة العربية التي قام بها والده، يشنّ هجومه على السور الذي تتحصن وراءه قوات الإمبراطورية العثمانية المكلَّفة بحماية المكان، تجمّع جزء من الجيش العربي هناك بين الباب الشمالي وحي شبرا، وجزء في الجهة الشرقية أمام باب ابن عباس، وأجزاء أخرى تتفرق في المناطق المجاورة حيث تستقر حاميات صغيرة للعثمانيين، ولذا لم يلحظ أحدٌ ضاري وهو يقف في هذه الناحية. هدوء يسبق العاصفة، فرقعات متقطعة للبنادق تضرب في الهواء، تصل إليه خافتة قد استهلكتها المسافة. تزود الجيش العربي بالمدافع الجبلية ومدافع الهاوز من مكة، بعد أن كان يواجه مدافع العثمانيين بالبنادق والحراب، ولذا استعد ليُطلق عدداً منها داخل الجهة الشمالية. الشمس المستترة خلف السحاب، نسيم الصبا الخافت في رقة الهواء، فُسحة المكان بعيداً عن ضيق السيارة المحتقن، تتكدس بنظرات ابنه المترقِّبة، تُذكِّره بعجزه. يحدِّق في الضواحي المحيطة حيث اختبأ النازحون دون أثر، رؤوس أشجار النخيل الوارفة تتحرك مع النسيم. ارتفعت

الأصوات فجأة بمزيد من الشراسة، صفير المدفع وكثافة الطلقات المقعرة. فزّ بخوف، هرول عائداً إلى السيارة. انفجرت القذيفة في مكان قريب من الجهة الغربية، تطاير فتات الصخر والطين من فوق السور كالمطر، غطى رأسه وهو يركض بجزع، ركب وانطلق بأقصى سرعة ممكنة، يقع في الحفر المجوَّفة ويطأ الصخور المدببة. يحدق في المرآة الخلفية، عُثورة الغبار والدخان ترتفع.

- ما الذي حدث؟ أين نحن؟

قال إبراهيم بنبرة جزعٍ متحجرة تبدو كهمسٍ مكتوم. يُطرق ضاري بذهول مرتبك، يتعلق في المقود بيديه الاثنتين، يغرق في تحديقة لاواعية، الدم يحتقن بقسوة في جبينه. هتف أخيراً بصعوبة وكأنه ينتبه للتو:

- لا أدري. لا أدري.

الزمن يتجزأ متمدداً في تفاصيله الدقيقة: دبدبة الكفرات في الأرض الصخرية، قِطَع الريح المتكسرة على المعدن، رجيع الأنفاس الغائرة في الأثير، لحظة عالقة من الزمن، كل شيء يسير فيها ببطء شديد. عاد ليحدق في المرآة الخلفية، ولكنه لم يرَ سور الطائف. ضرب الفرامل بقوة، نزل متطلعاً في الفراغ، لقد اختفت. رقعةٌ من الصحراء والتلال والصخور. وقف إبراهيم خلفه كما يقف دائماً: على خط واحد، يحدقان سوياً في المدى المفرغ.

ازدرد ضاري ريقه بصعوبة، عاد إلى السيارة، جلس وراء المقود بذهول معلق، يتطلع فيه إبراهيم بترقب، دون أن ينبسا بكلمة واحدة. الشعور بالحيرة المتطرفة يفرض حساسية دقيقة تجاه ما يُقال، كالرعب الغامض الذي يكون أكثر غرابة من أن تتفوه به، ولذا

واصلا الصمت، دقيقتان من السكون الذاهل بشرود مرتعب، تنهمر ببطء في أزيز الريح من فتحات النافذة، تضطرب أنفاسهما كفحيح النار، وتسيل حبات عرق ثقيلة على تغضنات الجبين. لا أحد منهما يجد القدرة على قول شيء ما.

* * *

كل شيء يبدو شبيهاً بالآخر، مجرَّد امتداد صحراوي مقفر. يُخرج جوّاله في كل دقيقة، ولكن لا إشارة، حتى فرغت بطاريته.

الجبال الصخرية برؤوسها المحترقة، والوديان السحيقة بخنادقها الجافة، والمسارات الوعرة بصخورها ونباتات الشيح اليابسة.

- هل تعلم أين نحن على الأقل؟

قال إبراهيم وهو يقف للمرة الألف خلفه، يحدقان في الصحراء الممتدة كالأبدية، تلوح أمامهما «حرة السرات» بحجارتها البركانية السوداء، تغطي امتداد الأرض بجانب الفوهات الخامدة، متحجرة كفم جثة متفحِّمة. حاول الاعتماد على حدسه، استمر نحو الجنوب، تجاوز الحرة الموشحة بالسواد، يتخبط في الخلاء والطرق المحفوفة بالصخور والانعطافات، حتى انفجر كفر سيارته.

قال إبراهيم وهو يحمل «الاستبنة» الثقيلة من الصندوق الخلفي:

- ماذا سنفعل إذا انفجر كفر آخر؟

توقف ضاري عن فكّ الصواميل بقلق، لم يفكر في ذلك. يتفصد العرق فوق جبينه، ينحدر على شفته فيستطعم ملوحته.

لم ينفجر إطار آخر، ولكن السيارة رشفت آخر قطرة بنزين بعد ساعات من السير، تحت شجرة طلح كبيرة على مسافة كيلومتر من سبخة ملحية تلمع بأثر مطر ما لم يشهداه.

نزل من جديد، يحدق حوله كالمتورط، تلك التحديقة المؤملة التي يحدقها من اعتادوا على رفاهية الوضوح، وكأن شيئاً ما سيخرج كما اعتادوا ليمنح إجابة معلبة لمشاكلهم. ولكن لا شيء هنا، الصحراء والخواء والطيور الجارحة وحمرة الغروب المعلقة في حلق الشفق، تنذر بليلة تتكدس فيها الوحشة كنذير شؤم.

انكفآ بتوجس في المرتبة الخلفية للسيارة، أخفضا رأسيهما طمعاً في أن يغطيهما اللاوضوح، فيختفيان عن كل ما يثير الرعب. وقد حقق اللاوضوح ذلك دون قصد، فلا يبدو هنا سوى القفر الذي يشبه العدم.

مطرِقان بصمت ذاهل. يتطلع إبراهيم في والده بترقب، ولكن ضاري لا يبدو منتبهاً لوجوده. النوافذ المغلقة تفرض سكوناً مُفخّماً يُحدث صفيراً خافتاً، يحدق ضاري بحذر في النافذة، يبحث عن تلك الإجابة المعلبة، ولكن دون نتيجة.

- لا بد أن والدتي ستبلِّغ الشرطة، وسيبحثون عنا، ولكن كيف سيجدوننا إن لم...

قال إبراهيم بنبرة مترددة. انتبه ضاري بشيء من الذهول، صوت ابنه بدا شذوذاً مفاجئاً في سياق الصمت. عاد ليحدِّق بانتباه في النافذة نحو خواء الظلام الموشَّح بضوء قمر شحيح، تطلع فيه إبراهيم وهو يقول بتردد:

- أنا لا أفهم شيئاً مما يحدث! كيف يحدث ذلك؟

قال ضاري متبرِّماً دون أن يلتفت:

- لا أحد يستطيع أن يفهم شيئاً ممّا يحدث.

رجيع الأنفاس المثقلة بالتوتر، تتكسر في جدار الصمت. ظلَّ إبراهيم يحدق بترقب في والده، يتوقع شيئاً أكثر تورطاً من الجملة السابقة المقتضبة، ولكن لم يبدو أن هنالك غيرها، التفت يائساً إلى ظهر المرتبة أمامه. يكره الشعور بالخوف، أكثر من أي شيء. حينما كان يقرِّر تسديد اللكمة إلى الفتى الذي ضربه، لم يكن يفكر في شيء عدا الخوف من أن يُضرب مرة أخرى، أن يشعر بالألم نفسه مرة أخرى، لم يلكمه لأنه شجاع كما ظنّ الجميع، ولكنه شعر بكره نقي تجاه شعور الخوف، الكره أشد قوة من الخوف، الكره جعله يسدِّد اللكمة بكامل قوته، غير مبالٍ بما قد يحدث، سقط الفتى أرضاً أمامه، فلم يبقَ أيّ من الشعورين: الكره أو الخوف، تلاشى كلٌّ منهما ليُخلّف مكاناً لشعور نقي من الرضا. يحدق بوجوم في ظهر المرتبة الجلدية، لا يستطيع لكم الطريق الذي أدى بهما إلى هنا، لا يستطيع لكمَ شيء لا وجود له، ولذا يشعر بكلا الشعورين: الخوف والكره، يتعلقان فيه بقسوة مستفزة.

يئس ضاري من التطلع في النافذة، فأشاح بصره بخمول، يلمح أثر السبخة الملحية تلمع في ضوء القمر الباهت، كمرآة مستلقية على ظهرها تراقب السماءُ فيها نفسها. انتبه لملامح ابنه الكالحة، يتطلع فيه بطرف عينه. لقد أنجبه وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، قبض على جسده الوليد بيديه المتردِّدتين، تنقع في أنفه رائحة المستشفى المعقّمة بغربتها الموحشة، حدّق في ملامحه المرتعشة بذهول، إنسانٌ بحجم الكفّ، بذرةُ وجودٍ تحمل اسمه، قشعريرة الرعب تطغى على العاطفة النقية. قال بصوت خافت:

- يجب ألّا تقلق.

ثم أكمل شارداً وكأنه يحادث نفسه:

- شيء ما سيحدث. شيء ما سيحدث ليشرح ما حدث.

حدَّق إبراهيم في والده الشارد بنظرة شك تحاول التصديق، هزّ رأسه بطواعية مستسلمة.

- دعنا نأكل شيئاً على الأقل. أين كيسة المحطة؟

أربع سندوتشات مقرطسة وستة أكياس من رقائق البطاطس وستة قوارير من الماء. أكل كل منهما كيساً من البطاطس، مع جرعات صغيرة من الماء.

طقطقة الفك مع الرقائق المقرمشة، ذكرت ضاري بجثة تُجرُّ فوق الحصى. جثة الخيل الذي جره والده مع ثلاثة من العمال خارج حظيرة المزرعة، تلحق بهم صرخات أبنائه الهائجين، بعد أن سهروا أمام جثة والدهم طوال الليل، بعينيه البازغتين وجسده النافق الذي يسحب الحصى. الصوت يسحب صورة الجثة من ذاكرته في كل مرة، بقسوة تجدّد صدمتها المنحوتة بعذرية متجددة، ولذا ظلّ يقفز ليؤكد باندفاعٍ حدوث شيء ما يشرح ما حدث. يتطلع من النافذة نحو السماء، السحاب يتفرق في قزع الخريف الرقيق كظلال سحاب شتائي، النجوم تتمطى من بينها كالأعين التي تراقب، تلمع فوق رؤوس التلال الهامدة في المدى الغارق في خوائه، تلوح كئيبة كوجود أشعث يرثي وحدته هنا منذ الأزل. يحدق ذاهلاً بشعور عارم من الوحشة، السكون الشبحي كلحظة برزخية مفرغة من كل شيء، معلقة لا تتحرك، يسمع نبض قلبه وخرير دمه يغور في ذهول سحيق، وكأنه يستوعب لأولْ مرة ماذا يعني أن تكون وحيداً تماماً، مثل تلٍّ في الصحراء، ويكاد أن يدفعه هذا الحزن العتيق للبكاء دون أن

يفهم. أخرج إبراهيم كيسة ثانية ليأكلها فانتبه ضاري ببطء. انقضَّ بسرعة وهو يهتف بغرابة:

- لا.

ثم أكمل بحيرةٍ تُحاول تبرير انقضاضه:

- تكفيك واحدة. يجب أن نقتصد.

تطلَّع فيه إبراهيم بنظرة جزع غريبة. فجأة بدا خيار أنّ «شيئاً ما سيحدث ليشرح ما حدث» قد يكون غير قابل للحدوث. أشاح ضاري عينيه بخجل عاجز، وأعاد إبراهيم الكيسة دون أن ينبس بكلمة.

الصباح يصعد في السماء، يكشف اتجاهات الضياع نفسها. تطلع بكآبة مريرة، قرر الجلوس ليلة أخرى في السيارة، في انتظار ذلك الشيء الذي لا يأتي. ولكن دون جدوى.

للصحراء صوت خاص بالنسبة له، وكأن معرفة أزلية تربط بينهما. نبضٌ يدقُّ كوقع خطىً بعيدة لشخص غامض يقترب. يقف ضاري أمام حمرة الغسق بعيداً عن السيارة، يسطو الوهج المتورِّد على امتداد السماء، يصبغ السحب المتموجة كالزبد بصفرة داكنة مهيبة، تنسحب على بساط الأرض بترابها الذهبي، فيبدو وكأن الأفق بأكمله يحترق. الخواء المُحاط بالأبعاد الممتدة يكاد ينبض في جمود أثريّ معتّق، يشعر ضاري وكأنه يغرق في نقطة مفرغة في هدأة سكونها المجوف، متناقضة تناقضاً يشبه ازدواج المطلق والعدم. ما زال ينظر إلى نفسه كفلّاح، رجل أرض، يعرف الصحراء والحياة في الطبيعة. ولذا يحدق بخشوع واجم، المنظر يتألق لوحةً تنسكب فيها خطوط اللون الزيتية، أشجار الطلح المحدودبة في وقوفها، أجمات

الخزامى الطويلة التي تهف مع الريح، السبخة الملحية التي تلمع في انعكاس الضوء، التراب والجبال والصخور والمدى، كل شيء يلوح حزيناً بجمود رث، يحمل فوقه إيقاع الأزل البطيء لدرجة التوقف. يبتسم ابتسامة حزينة لا تكاد تُرى، يتطلع بشرودٍ يكاد أن ينسى مأزق موقفه في تأمل ذاهل من التأثر، يُهفهف النسيم بخفة خصلات شعره الرمادية.

الليل طويل كلحظة انتظار برزخية، حيث لا شيء يحدث وكل شيء يحدث. الصباح يصعد من جديد، يجرّ في أهدابه تكرار الفراغ المعدم. ليل آخر، ثم نهار جديد رث. لا شيء. تكرار ثقيل مفرغ.

- هل آخذ الجوال؟

سأل إبراهيم.

- خذْ كل شيء. كل شيء قد نستفيد منه.

فأس صغير لتقطيع الحطب، مقصّ شعر، سكين كبيرة، مرهم للبشرة، أكواب بلاستيكية، أعواد كبريت، قطعة خشب مسطحة، ثلاث مخدات من الكتان، لحاف خفيف. وجد ضاري علبة الدخان في الدرج الصغير تحت المسجل، تطلع فيها متصلباً لسببٍ ما، حملها وأخذ يقلبها بنظرة شاردة، ثم وضعها في جيبه. قال إبراهيم وكأنه يحادث نفسه:

- ماذا لو لم نصادف أحداً؟ سنموت في الصحراء.

ولكن ضاري كان قد تخلّف عدة خطوات عنه، يحدق بوجوم في سيارته، يتذكر رائحة الجِدَّة العذرية التي استحلَّت حواسه حينما ركبها لأول مرة. يشعرُ وكأنه يودع صديقاً قريباً.

سارا عدة كيلومترات، يتوقفان كل ساعة بإعياء متعرق، يحمل

ضاري كيس الأغراض العشوائية. يرفع رأسه إلى السماء، الشمس تحتجب لحسن الحظ وراء غيوم ثقيلة.

الصحراء تنبض، الأبعاد تتوسع كالأبدية. كل هذه المساحة المطلقة، تبعث القشعريرة في كائن ضئيل، يقف في مكانٍ يكبره بملايين المرات. يشعر ضاري بذلك فيسير برعشة تئزّ في عظمه، يفكر أن أكثر ما يثير الرعب هو أن تدرك ضآلة حجمك، كجسد ميكروبي يُسحق دون أن يُشعر به، ذرة رماد بالنسبة إلى الكون. يصعدان هضبة جرانيتية غريبة بصخور رسوبية تتشكل كرسومات هندسية، بتجويفات محفرة كعيون متداخلة بعشوائية، تبدو كالرمل الذي يوشك أن يتنثر مع أول هبة ريح جادة. لمسها ضاري بطرف أصبعه وهو يسير ببطء، وكأنه يلمس طاولة مكتبه حينما همّ بشرائها ذات يوم شتائي كئيب، برتابة منهكة حزينة في كلتا الحالتين، تباطأ وهو يتذكر فجأة وحدته الغريبة ذلك اليوم، يضع أطراف أصابعه على الطاولة الخشبية بشرود ثقيل ويحدق في المطر خلف زجاج المحل، يفكر بفتور منوّم «لماذا أشعر بالحزن؟ لماذا أريد الهرب إلى مكان بلا اسم؟» كان غموضُ ألّا يفهم أشدّ ألماً من الحزن نفسه، وهو ما جعله يقف محدقاً في الزجاج بشرود منوم، إلى أن استفاق على صوت العامل المصري المبتسم. وقف بطرف أصابعه على حافة الصخرة الرملية الغريبة، يحدق فيها وكأنها ليست موجودة، استطراد نفذ فجأة من ذاكرته، ملمسها كراحة كفٍّ هرمة توشك على التفتت، ولكنها تظل صامدة، تضحك على كل من يترقب موتها منذ آلاف السنوات.

الأرض المتصحرة كشقوق الجلد المتجدّر، بحشائش العوسج والعرفج والرمث النابتة بفتور مملّ، حيث تنكشف الرؤية أميالاً نحو

وضوح مرعب لا ملامح فيه. تتبعها بعشوائية متداخلة بقع رملية بكثبان صغيرة، تنثرها الريح في كدرة الهواء فتنسج غلالة رمادية من الغبار تغطي مدى الرؤية المضبب. لقد خُلق الإنسان من التراب، ثم تفرقا بصمت أبدي، كما كان يخبره والده بذلك. رجل متوحِّش بلسان سيئ، يركل ضاري بقسوة حينما يخطئ في وضع السماد على التربة، يربت لاحقاً على كتفه بصمت لامعتذر، وكأنه نسي أنه ضربه قبل ساعات، يبادره بتمرات يأكلانها سوياً بكتفين متلاصقين على تلٍّ في حافة المزرعة، يرفع سبابته ويغلق عينه اليمنى نصف إغلاقة ثم يقول بعمق المزارع الذي يقتل في سبيل أرضه: ولكن النجدي من القلة الذين لم يتخلوا عن التراب، ما زال يعيش في التراب، ويعيش التراب فيه. يتذكر والده حينما تنطفئ أضواء المجمعة في العاصفة، يحدق من النافذة في حبيبات التراب الصغيرة: إنه صديق يزور صديقاً لم يعد يعيش فيه كما اتفقا في أبدية ما. يبتسم بخفَّة كئيبة، يسير أمام ابنه بوجوم منهك، يحوم فوقهما الصمت المحتقن بأشعة الشمس وراء غلالة الغبار الطفيف. لا يستطيع أن يتذكر آخر مرة ربت فيها على كتف ابنه، آخر مرة أخذه ليأكلا التمر بكتفين متلاصقين في تلّ المزرعة. ثم يتذكر سريعاً: لم يكن هنالك آخر مرة أصلاً.

يستريحان تحت صخرة، بقلة وضوح في انعدام الرؤية. الرمل يتساقط، يختفي. الأرض الصخرية تزداد صلابة، تظهر حولهما الجبال التي نحتتها الرياح، بقننها المسننة الجرانيتية، تبرز في أعاليها شقوق صغيرة مظلمة، كهوف تبدو كفوهات براكين منطفئة. يتطلع إبراهيم فيها بشكٍّ، يغلق عينيه نصف إغلاقة بفعل الشمس.

لا يعرف الكثير عن الصحراء، عدا مرة خرج فيها مع أبناء خاله الأكبر عمراً منه، جلسوا بعيداً عن طريق «حفر الباطن» بترمس الشاي وساندوتشات الشاورما، حتى مرّ بهم مجنون يركض بطريقة غريبة، لا بد أنه خرج من أقصى قرية «حرمة» الشرقية حتى توغل أميالاً في الصحراء، يركض بملامح يسطو عليها جزع هستيري، يمدّ يديه أمامه متَّجهاً نحو الشمس، وكأنه يريد القبض عليها. ضحك الجميع، هتفوا له، أدركوا جدية الأمر فحاولوا اللحاق به لإعادته إلى أهله، ولكنه كان منغمساً في محاولة القبض على الشمس، لا يدرك شيئاً حوله، لدرجة أن أحداً لم يتمكن من اللحاق به. لم يضحك إبراهيم، لم يكن ثمة شيء يثير الضحك في رجل بالغ يركض ليقبض على الشمس، لقد بدت الصحراء له مكاناً يُصاب فيه الشخص بالجنون، يلاحق أشياء لا يمكن اللحاق بها، أو القبض عليها. رفع رأسه وهو يسير وراء والده، يتطلع في امتداد المدى الأجدب بنظرة شك حذرة.

توقفا تحت شجرة سمر كبيرة. تردد إبراهيم في أن يسأل والده عن مكانهم، ولكنه أدرك سريعاً عدم حاجته إلى ذلك، ملامح ضاري لم تكن ملامح شخص يدرك أين هو بالضبط، يغرق في اتجاهات الخواء بنظرة متحجرة. أخرج علبة السجائر، بقيت 18 سيجارة، أشعل واحدة بولاعته، وأخذ يستنشق الدخان بحلق يابس متجرح، تغلي حرارة الشمس فوق هامته الجافة كالصخر.

يقتربان من سهل منبسط على حافة واحة تقع بالقرب من وادي نجران، تتكدس بحزمة أشجار سدر وارفة، تغطيها سيقان الزرع الأخضر النقي بشقائق النعمان والخزامى، تسيل فيها السواقي

والينابيع التي خلفها مطر لا أثر له في الهواء. يمر ضاري بين الشجر بانتباهة معلقة، تنسل خيوط الشمس من بين الأغصان المخضرة كألواح الضوء، وتهفهف الريح في الأوراق بحفيف رخيم. لطالما أحبّ الشجر، ظلّ يؤمن أنه وُلد مزارعاً تُشَمّ رائحة الزرع المبلل بالندى في جسده، يعشق ملمس التراب حينما يطفح بالماء، يضع قدميه في الساقية وينصت بصمت أريَحِيّ لهسيس المزرعة، الأصوات المتداخلة بعشوائية فاترة كمعزوفة ارتجالية من الجاز. وقف ببطء فتوقف إبراهيم بجانبه، يترقب والده الذي يتطلع برتابة شاردة في ستارة الشجر فوقه. يجلس أياماً طويلة في مزرعته بعد تقاعده، ولكنه لم يعُد يشعر بالارتباط نفسه الذي كان يشعر به تجاهها. كان كل شيء جميل يذكِّره بالشجر، يرتبط في مخيلته بشاعرية مبتذلة يخجل منها، ابتسامة المرأة الجميلة وطعم عصير الكرز البارد وارتعاشة الظهر في اللذة، كلها تذكِّره بالشجر، بخيوط الشروق تزحف على أغصان النخيل في غرّة السحر المرطب بالندى. لم يكن يشعر بشيء أكثر لذّة من أن تزرع شجرة في الأرض، إنه شيء مقدّس يعادل إنجاب طفل: ستعيش الشجرة دهراً، سيتظلل تحتها أقوام سيأتون من بعدك، سيلقِّحها رجل يحدِّق فيها بابتسامة شاردة، يفكر في الرجل الذي زرعها قبل سنوات طويلة، كيف كان شكله، وكيف عاش، ومن يكون.

ولكن كل شيء يخبو. يقف بين أشجار السدر في سهل الواحة المنبسط، تغرق قدماه في برودة الزرع كنهر أخضر يتموج بخفة مع الريح. يفكِّر بوجوم كئيب «أين ذهب ذلك الشعور؟». الشجرة تبدو الآن له كالبشر، مجرد تكرار مملّ.

- يبه هل سنجلس هنا؟

قال إبراهيم بعد تردُّد. انتبه ضاري ببطء، لقد نسي نفسه للحظة، تلفَّت بِحَيرة وكأنه يستعيد موقفه، ثم أكمل السير بصمت.

الشمس تختبئ حيناً وراء الغيوم، وتستحلّ السماء حيناً آخر. الطقس يبدو متحرِّراً من أي التزام زمني، يتداخل بين الشتاء والصيف، تهبّ الريح بقوة تجرح الدمع من عينيهما، تلفح وجهيهما بسمرة البرودة الكالحة. ثم تهدأ أحياناً فيطفو المحيط في نقطة ساكنة من الزمن، حيث لا شيء يتحرك، المدى يبدو جامداً كلوحة مرسومة بالزيت، يسبح ضوء العصر الذهبي على الأشياء فيورث في العين خطوطاً من الشعاع.

يقطعان وادي نجران القاحل، كتل من الصخور الرسوبية المتيبسة منغرسة في تراب صلصالي، يستقر في أعماقها أثر نوستالجيٌّ من الماء الذي رحل، بينما يتآكل جلدها المتحجِّر في صبرٍ رثٌّ لا يعرف الزمن، كعجوز تشيخ بذاكرة متوقِّدة في انتظار لحظة لن تأتي. كان ضاري قد تلفَّع بشماغ حمله من سيارته، ولذا بدا كأعرابي عتيد، يغرس قدمه في التراب بثقل، حتى تجاوزا الوادي، مرتقى وعر يحلّق على امتداده الشاسع، خندق كئيب من القحط.

ريح السموم تُحجّر قطرات العرق على جبينه، كتلة من اللزوجة المالحة.

انتبه أمامه ببطء. غيمة تزحف قريبة منهما، المدى يتلفَّع بغلالة رطوبة سوداء، رفع رأسه باستغراب إلى السماء، الشمس فوقهما بلا غيوم. ظلا يقتربان حتى وصلا إلى نقطة فاصلة: يلوح أمامهما مطر خفيف وسماء بغيوم بيضاء، بينما يستقر حولهما قحط مقفر وسماء

صافية بشمس حارقة. خطٌّ فاصل بين زمنين مختلفين بأجواء مختلفة. وقفا يحدقان بذهول، صمت مطبق يتخلله صوت الزخات المنسكبة، تضرب في الحصى المدبّب وراء خطّ الزمن الآخر. تحركا خطوتان فدخلا في خطّ المطر، فتح ضاري قوارير الماء الناقصة بأوتوماتيكية ذاهلة، وقفا دقيقة ثم استكملا السير، بصمتٍ يتحرَّر من عبثية الأسئلة التي تستحيل إجابتها.

زخات المطر تغسل حرارة الإنهاك، تنقطع لتفتح مجالاً لضوء الغروب المتورّد.

يسير إبراهيم بجانب والده، يتخلف عدة خطوات عنه فيهرول للحاق به. يتطلع فيه بطرف عينه، يكرر عجزه عن ابتكار شيء يستحق أن يُقال، رغم كلّ ما يحدث. يتحركان بجانب بعضهما فيبدو وكأنهما يسيران في زمنين مختلفين، مجرد شخصين بخطيّ زمن متلاصقين. يطأ الحصى المدبّب فيشعر بأثره في باطن قدمه تحت جلد الحذاء، يرطب شفتيه بلسانه فيستطعم حبيبات التراب التي تعلق في وجهه، يحدّق في المدى المرمّد بالغبار فيبدو وكأنهما يسيران في صورة فوتوغرافية لا عمق فيها. يعود ليتطلّع في والده بطرف عينه، ما زال عاجزاً عن ابتكار شيء يستحقّ أن يُقال، ولذا يطأ الحصى المدبَّب، يرطِّب شفتيه بلسانه، يحدق في المدى الفوتوغرافي.

* * *

الليل يجثم فوق شجرة السدر الوارفة، البعوض يتكاثر حولها بحركة لا تتوقف، رائحة المطر تلاشت كالذكرى المنسية. جمعا قطعاً من الحطب الرذيء المتناثر مع لحاء أشجار وحشائش متيبسة، أخرج ضاري ولاعته ليُشعل ناراً جلسا أمامها بوجوم على اللحاف

الرقيق. الصمت يتعلق في أهداب هسهسة النار وحفيف أوراق السدر المجاورة، لم يبقَ سوى أربعة أكياس من رقائق البطاطس، اقتسما واحداً منها.

أخرج علبة السجائر. 16 سيجارة فقط، أشعل واحدة منها ونفث دخانها بلذة منطفئة.

- يجب أن أعلِّمك كيف تشعل النار باحتكاك الحطب. لدينا الولاعة وما يكفي من أعواد الكبريت، ولكن لا بأس من أن تتعلم ذلك. رغم صعوبته.

نبرة من اللامبالاة الهادئة تطغى في صوته، وكأنه يتكلم لمجرد الكلام. ولكن إبراهيم ظلّ صامتاً، يحدِّق بشرود كئيب في ألسنة النار، وكأنه يتطلع في نافذة خفية تُطلُّ على فجوة زمنية. التفت إليه ضاري، بدت بشرة ابنه الناعمة متيبسة بحبيبات الرمل، يلمع انعكاس النار فيها بكآبة شاعرية.

- فيمَ تفكر؟

سأل بأوتوماتيكية رتيبة وهو ينفث الدخان. انتبه إبراهيم بحيرة، ليس من عادة والده أن يتحدث لمجرد الحديث. قال بعد أن رمقه ثم عاد ليحدِّق في النار:

- أفكر ماذا تفعل والدتي الآن.

ارتعش جفن ضاري. تذكَّر آخر حوار جمعه بزوجته، كان قد عاد به من المدرسة ووقف يخبرها بما حدث عند باب المطبخ، هتفت بعد أن أبدى بروداً لامبالياً: «طبعاً سيكون ابنك غريباً ما دام لا يراك إلا مرة في الشهر» ثم التفتت نحوه باندفاعها وقد تركت تقطيع الخضار ممسِكة بالسكين الفضية اللامعة يلوح على نظرتها

شك عدائي: «ما الذي لديك في تلك المزرعة؟ ماذا تفعل هناك بالضبط طوال الوقت؟» يتذكر خيوط الشمس المتسللة من النافذة تضيء رقعة من وجهها، تكشف مسامات الكِبَر الطفيف الذي بدأ يظهر عليها، تتطلع نحوه بحذرٍ حادّ بينما يلوذ هو بصمتٍ عاجز عند حدّ الباب، لا يفهم لماذا يجلس هناك فعلاً، بل لا يكاد يفهم السؤال، لا يثيره في الموقف شيءٌ عدا ملاحظة آثار قدم الشيخوخة في وجه زوجته، تطأ باحتلالٍ وقحٍ يثير فيه كآبة غريبة، تكاد تدفعه لأن يتقدم نحوها ويضع يده على خدها بصمت مواسي، ويغرقان سوياً في تذكُّر زمن كانا لا يملّان فيه من الاستلقاء بجانب بعضهما.

- ماذا تظنّ أنها تفعل؟

قال إبراهيم وكأنه يسأل نفسه. لم ينتبه ضاري. لم يكن يشعر أمامها يوماً بدونية مزارع وموظف إداري أمام امرأة مثقفة تكتب الشعر وتقرأ لرجل معقّد منذ اسمه مثل فيتجنشتاين، ولكنه ما فتئ يتخيل لو أنها تزوجت رجلاً مثلها وتزوج هو امرأة لا تمانع برتابة تلقيح النخل، بإحياء مزرعة دون هدف مادي وكأنه واجب بديهي لا يقبل محاولة التحليل. حاول أن يتذكرها قديماً قبل كل شيء، فتذكَّر بغرابة ملمس صدرها المتفتق، وكأن الصورة معلّقة في ذاكرته تنتظر من يدفعها إلى الحافة، كردّة فعل على استذكاره كآبة ذلك الموقف حينما لاحظ شيخوختها، وكأنه لا يتذكر أيضاً إلّا ما يثير الكآبة برحيله. ملمس الصدر حينما كانا شابين يتفجران رغبة وعنفواناً، حينما كانا مجرد حيوانين بدون أجندات فكرية ما، مجرّد جسدين يصطبغان بحرارة القبل التي تترك أثراً بارداً كقطرات النعناع. «أين ذهبت تلك الشرارة؟» لم يفكِّر في امرأة منذ زمن طويل، ربما يفكر

فيها كعادة ذكورية تُكرِّر نفسها ببلادة رتيبة، ولكنه لم يعُد يفكر فيها فعلاً. ملمس الحلمة الرقيقة كحبّة الكرز، يضغط عليها بأسنانه بلطف، فتئنّ زوجته أنّة مكتومة هربت من أسوار خجلها. أمسك الغصن المتين وحرّك الحطب المستقرّ في قعر النار، بصمتٍ حائر. لم يفهم لماذا تذكر ذلك تحديداً.

- يبه. هل تفهم شيئاً ممّا يحدث؟

هزّ رأسه بفتور:

- لا.

- هل سيبحثون عنا جيداً؟

- طبعاً.

- ولكنهم لن يجدونا. أليس كذلك؟

- لا أعلم.

أطرَقَ إبراهيم لحظة، يكاد لا ينتبه للبعوضة التي تمتصّ الدم من ذراعه. قال وكأنه يحادث نفسه:

- ماذا لو أنني لم أرافقك؟!

شعر ضاري بنغزةِ خيبةٍ حادة. الفتى لا يفكر إلا في نفسه. ولكن ربما يحقّ للفتى الصغير ألّا يفكر إلّا في نفسه، أن يتمتع برفاهية وعيه الفردي اللامسؤول. ولكنه ليس فتى صغيراً، إنه في الثالثة عشرة من عمره، إنه رجل. تذكَّر ضاري نفسه حينما كان في عمره، قد تولى جزءاً من شؤون البيت، وتعلَّم الزراعة وتربية الماشية. قال ببرود:

- ستكون مستلقياً في فراشك، بينما أنكث هذه النار بعود غصنٍ متيبس.

ترقَّب بطرف عينه رداً معاكساً لابنه ينفي شعوره بالتورط. ولكن إبراهيم كان شارداً، يحاول أن يفهم السبب الذي جعله يقبل إصرار أمه بأن يرافقه. يعيش والده منذ تقاعده المبكر قبل سنة وعدة أشهر في استراحة المزرعة، بشبه انفصال عن البيت الذي يعيش فيه مع والدته، يأتي بين فينة وأخرى لينام أياماً في غرفة الملحق، يشعر فيها إبراهيم بامتلاء الخواء الذي يعشِّش في الجدران، رغم أنهما لا يجلسان كثيراً مع بعضهما، ولكن مجرد وجود شخص آخر في البيت، كفيل بأن يجعله مكاناً للعيش وليس للنوم فقط. غرقا في إطراقة موحشة تحرِّكها هسهسة الحطب المحترق، يغوص ضاري بنظراته في النار، وكأنه يحدق أيضاً في نافذة خفية تطلّ على فجوة زمنية. رمى عقِب السيجارة وهو يقول بهدوء:

- إنها تسقي شجر الحديقة.

- هاه. من؟

- أمك. إنها تسقي الحديقة في هذا الوقت، لطالما فعلت ذلك منذ 17 عاماً.

يحدق كلاهما في النار، ولكنهما لا يتشاركان النافذة نفسها.

الشمس تغيب في غيم رمادي ثقيل، يصعدان قنن التلال المتشابكة كحبيبات اللوز. كان والد ضاري يخبره أنّ التل طفلٌ جبلي، يستغرق دهراً لأن يكبر حتى يصير جبلاً، تمرّ عشرات السلالات من البشر وهو ما زال طفلاً. يفكر ضاري في ذلك بكآبة، أن يوازي عمر جبل واحد في نشوئه عمر ستين سلالة كاملة من البشر، يشعر بالإنسان ككائن صغير جداً، يولد ويعيش ويفنى، قبل أن يخرج جبل من طفولته.

الفجر يطفو حوله بغشاوة كريستالية من الصفاء النقي، يجلس محدِّقاً في البُعد الذي يكتسي بِجِدة سكونية رقيقة، وكأن كل شيء يولد من جديد. لطالما أحبَّ الفجر، اليقظة الناعسة لكون يتنفس بملئ رئتيه، ينفض الظلام والضوء ويتجلى بوضوح نقي أزرق. ولكنه يرعبه الآن، يتطلع فيه كبداية يوم يصرخ فيه متحدياً بقسوة لامبالية: كل شيء سيكرِّر نفسه، لن تصل إلى شيء.

لا يمرّ وقت طويل دون أن يعود ليتخيل شيئاً من حياته، ماذا يحدث فيه الآن. طريق جلاجل المؤدّي إلى مزرعته وقصر عائلته الطيني المتهدّم، مبلَّلاً بمطر الشتاء الذي يلمع في الإسفلت كالمرآة. حديقته التي زرعها قديماً بعناية مزارعٍ محترف وتتولى زوجته إحياءها منذ سنوات: شجيرات البلوميريا والكورديا والأكاليفا والأدهاتودا تحيط بالنخيل الباسق. مطعم الزاوية في الشارع العام بلوحته الصغيرة جداً، حيث يشتري عصير الكرز البارد من راجيش القادم من بومباي. يشعر سريعاً بالارتباك، يفكِّر أنك لا تملك رفاهية الغرق في حميمية ذكرياتك بينما تواجه خطراً ما، إنه دليل على الضعف الذي يتربص بك، يجب أن تبقى على السطح، ولذا يصعد إلى السطح سريعاً، ولكن لا شيء في السطح عدا الخواء والشمس والوقت.

ينتبه لابنه بجانبه، يسير متطلعاً أمامه بعينٍ تضايقها الشمس. يفكِّر: هل يتذكر شيئاً من حياته أيضاً؟ ولكن إبراهيم لا يتذكر، يحدِّق أمامه بوجوم متعرِّق شاحب، كجذع شجرة بِلحاء متآكل، لا يتذكر، أصغر من العيش في تفاصيل حدثت، أصغرَ من أن يختلق شعوراً هُلامياً بلذّة حنين دخانية، الفتى الذي ولج للتو في الثالثة

عشرة من عمره محكومٌ بثقل العيش في اللحظة، ولذا يسير محدِّقاً بوجوم متعرِّق وسط الخواء والشمس والوقت.

* * *

الضباب ينسج ستارة حليبية في المدى، نُدف من الهلام الأبيض تتساقط فيه الأشياء، يخترقانه وكأنهما يقطعان طريقاً غامضاً في حلم رتيب، يتوقع ضاري أن يقوم فجأة من نومه، ويرى ستارة النافذة الكتانية في غرفة مزرعته. ولكنه لا يقوم، يخترق الضباب الحليبي، يتساقط البياض الداكن قطعة قطعة، حتى ينكشف المدى من جديد، رقعة واضحة من الخواء المكرَّر.

في الأفق البعيد، لاح أمامهما سور مدينة رقمات في نجران. تستقر حوله قنوات اصطناعية دقيقة كخنادق مائية أمام أبراج السور المحصن بطريقة بدائية.

ركضا بحماس ينفض ثقل الإعياء، ولجا البوابة المشرعة بحذر شديد. لا أثر للحركة، البيوت المبنية بالحجر والطين تصطف بعشوائية، تبدو وكأن على رؤوسها الطير، صمتٌ موحشٌ يرتطم بجداره صفير الطيور الجارحة، الشمس تحتجب خلف السحب فتسحب على المدينة غلالة ظلال قاتمة. سارا بتوتر أمام بئر مرصوف بالحجر، شربا منه بحذر، غسلا رأسيهما ومسحا قذارة العرق النتنة عن صدريهما وتحت إبطيهما. عبأ ضاري قوارير الماء الستّ، يتلفت حوله بِحَيرة فلا يلحظ حركة واحدة.

- لنخرج من هنا، لا أشعر بالارتياح.

قال إبراهيم بشيء من الخوف، يحملق في بيوت الطين الهامدة بنوافذها المغلقة ومزاريبها المطعونة في حواف الأسطح.

في الجانب الآخر من المدينة يُعسكر الملك الحميري يوسف ذو نواس مع سرية من جيشه، أبقى خمسة جنود عند المدخل، ولكنهم تسللوا إلى منتصفها ليراقبوا ما يحدث. يقوم بطرح خيارين أمام نصارى رقمات: إما الردَّة عن النصرانية والتهوُّد كما تدين بذلك مملكة حمير، أو الموت حرقاً ونحراً. حَفَر الأخاديد المخندقة كمجاري النهر، فرفض الأكثرية الردَّة عن دينهم، وقَبِل القليل في رعب اللحظة الأخيرة. رجال ونساء وأطفال، تلفحهم ريح السموم، يتوارثون بينهم قصص أجدادهم الذين حاولوا الاستقلال، قبل أن يعتنقوا النصرانية بزمن طويل، قدّموا بعد فشل ثورة من ثوراتهم ألف طفل من أبنائهم كرهائن للملك الهمداني إيلي شرح يحضب، سار بهم الهمدانيون إلى عاصمتهم صنعاء، لحقت بالركب أمهات الأطفال عدة أميال، حتى سقطن من الألم والظمأ والإعياء، يختفي أمام أعينهن خيط الركب، كخط دم يتخثر ويندفن في التراب. يحدق ذو نواس في الصفوف الجاثية أمامه، فلا يرى إلا خونة يعملون لصالح إمبراطورية بيزنطة ومملكة أكسوم المسيحيتين، لو أنهم يملكون سلطته فلن يترددّوا في إحراقه، الدين بالنسبة إليه مجرد حجة للسيطرة يستخدمها القادة ويؤمن بها الرعاع. سيكون لأبنائهم حكاية أخرى تذكر أجدادهم الذين احترقوا في أخاديده.

يسير ضاري أمام ابنه بحذر متوتر في أزقَّة المدخل الخاوية، جثث الجنود الذين قتلوا أثناء اقتحام المدينة لا أثر لهم، سُحبت لتُرمى في الأخاديد، وبقي مكانها بقع دم متجمِّد في التراب كآثار حمم بركانية.

دخلا بيتاً مشرَّع الباب، بدا وكأن أصحابه توقفوا فجأة عن

الحياة، واختفوا، آثارهم ثابتة في مكانها، تنتظرهم. وقف إبراهيم بكآبة ذاهلة أمام طاولة خشب في المطبخ الضيق، يزحف فوقها ضوء باهت من النافذة، عليها سكين صغيرة وأوانٍ مزجَّجة وقطع خضار وُضع الجزء المقطوع منها في قدر على فرن فخاري، لا تزال ناره تشتعل فيغلي الماء بدخان يعجّ في الهواء. في المكان شيء يثير حزناً عتيقاً لا يفهمه إبراهيم. دخل ضاري المطبخ بلحافين ثقيلين وأربع قرب ماء جلدية كبيرة وجدها في الغرف الخلفية، تلقَّف معها عدة قطع من اللحم والخبز. هتف لإبراهيم فانتبه بنظرة ذاهلة، تحرك نحوه وحمل جزءاً من الأغراض.

خرجا من البيت. ثمة خيل مربوط أمامه، ربت ضاري على ظهره بحذر، يتذكر حظيرة الخيول التي امتلكها والده، الدروس التي كان يتلقاها منه في وصف أنسابها وطريقة ركوبها. خمس عشرة سنة لم يركب خيلاً، لم تمنعه من أن يستقرّ فوق سرجه بحركة واحدة. استنكر الخيل جسده، فتمايل بثقله حتى ثبت، رتَّب المؤونة ثم رفع ابنه بجسده النحيل ليستقر متشبثاً من خلفه.

- انظر.

أشار إبراهيم بذهول إلى الدخان يرتفع بكثافة من آخر المدينة. وإذا برجل يقفز من منعطف الزاوية البعيدة هارباً على قدميه، يكاد لا ينتبه لشيء حوله، تلقَّف خيلاً مربوطاً في ناصية، ولاذ بالهرب. دوس بن ثعلبان، الرجل الذي نجح في الفرار من المجزرة، وهرب إلى قيصر بيزنطة بذاكرة مثقلة بالانتقام والدم، فرأى القيصر في ذلك شرعنة القفز على اليمن، ما جعله يحرِّض نجاشي الحبشة في مملكة أكسوم، فسيّر جيشاً حقَّق مخاوف ذو نواس، وأنهى حقبة «اليمن

السعيدة» كما كان يُعرف. من نجا في رقمات سيذكر أن الحريق الذي كان يفترض أن يقضي على النصرانية، قد جلب النصرانية إلى نجران بأكملها.

أخذا يحدِّقان بجزع في أثر دوس بن ثعلبان، وقد اختفى في عثورة غباره. حتى ظهر من المنعطف نفسه ثلاثة جنود حميريين بخيولهم، يحاولون اللحاق به، مروا بجانب ضاري الذي توارى في سكة بين بيتين، فلم يلحظوه.

تشبث إبراهيم بثوب والده بقوة أكبر. الدخان يرتفع كمنارة تشقّ السحاب، صرخات هستيرية تدفعها الريح إلى الشتات، رائحة الأجساد المحترقة بالزيت تفور بقسوة مقزِّزة، الحريق في طريقه لكي يقضي على المدينة.

- لنخرج من هذا المكان اللعين.

همس ضاري وهو يضرب خيله إلى الخارج، تتساقط رائحة الدخان قطعة قطعة. حتى توقف والتفت إلى الوراء، فلم يجد سور رقمات ومنارة الدخان الهائلة، اختفت كما اختفت الطائف، رقعة من الفراغ.

يحدِّقان بوجوم في الأثر المختفي، رعشة من القشعريرة تسري في جسديهما.

عبّأ الماء في القرب الجلدية، ورمى القوارير التي بدأت تميع مع الشمس.

الخيل يتأرجح بهما، لم يشعر أن خمس عشرة سنة مرت منذ أن ركب واحداً، ربّت على رقبته وهو يهمس بصوت لا يكاد يُسمع:

- إنك تقوم بعمل جيد.

ولكن الخيل لم يصهل. نبرة شك حزينة تطغى على صمته، يستنكر الجسد الذي يستقر فوقه، والهواء الغريب الذي يمخر في منخريه. ولكنه يستسلم في قلة وعيه، فيضرب بأقدامه في الأرض الصلبة، بصهيل متقطع.

توقفا ليلاً في سهل يكتظ بأشجار الكافور، فيفوح بعبق رائحتها النافذة. طبخا جزءاً من اللحمة، قطعة فجّة كالمطاط، يتجرّعانها بذاكرة تذكُّر بنقمة غاضبة عصارة الطعم وانثيال الرائحة.

- إنني على استعداد لأمنح كل شيء أملكه في سبيل همبرغر.

قال إبراهيم وهو يلوك اللحمة بامتعاض.

- وهل لديك شيء تملكه الآن لتمنحه؟

فكر لحظة ثم قال بانهزام ناقم:

- لا.

* * *

الشروق المحاط بغيوم داكنة يصبغ الفضاء بغلالة شفافة، وكأنها ضباب حلم مظلّل بين النوم واليقظة. يجلس ضاري محدقاً في المدى بنظرة متحجِّرة لامبالية، وكأنه يراقب دبيب الوقت في ارتفاع خط الضوء في آخر الأفق. لمح زوجته تخرج من ثكنة أشجار السدر على يساره، تحمل مطارة ماء وتمشي نحو نبعٍ انبثق أمامه برثاثة مَن كان هنا منذ الأبد. يراقبها وهي تملأ المطارة الصغيرة بلونها الزهري، متهادية بثوب أحمر مخطَّط بخيوط بيضاء وشعر أسود ينهمر على كتفيها برقة حانية، تبدو أصغر بكثير من اللحظة الضبابية حينما رآها ضاري لأول مرة بوضوح، تجلس على حافة سرير الفندق بعد ليلة زواجهما بارتباك. ملأتها واتجهت إليه، تقترب منه فتتضح نضارة

صباها الفتي، جلست أمامه ومدت المطارة إليه مستفسرة بملامح وجهها إن كان يريدها، تلقّفها ضاري وشرب. يجلسان بوجوم متصلب في الغلالة الشفافة للفضاء. قالت وهي تلتفت إلى إبراهيم:

- ابنك؟

مسح ضاري فمه بطرف كمه ثم قال:

- وابنك أيضاً.

لم تبدُ مندهشة. قالت بنبرة اعتيادية:

- كيف حاله؟

أعاد المطارة إليها.

- عايش.

- فقط؟

- يجب أن يكون ذلك كافياً أحياناً. أليس كذلك؟

أطرقا بصمت رخيم، يحدقان في المدى، كشخصين معتادين على اتفاق الصمت الناعم بينهما. تجلس متكئة على راحة يدها اليسرى، وكأنها تستعدّ لأن تستلقي. ثمة صفاء نقي صبياني في هدأة سكونها الخامل. قالت:

- الضوء قوي.

- الضوء دائماً قوي.

_ أرى جبالاً.

- أرى رمالاً وسهولاً.

- أرى كثيراً من الأشياء.

- وأنا كذلك.

تتطلع في النبع يسيل على الساقية الضيقة. قالت:

- ماذا يسمى الماء؟

- ماء.

- قبل أن يصبح ماء.

فكَّر ضاري بشيء من الحيرة.

- لا أعلم.

قالت بصوت انسيابي غريب:

- أنا وأنت والجميع. هناك حيث لا. والليل الطويل. هل تذكر؟

يتطلع ضاري في المدى بوجوم آليّ. قال بشيء من الحزن:

- لا. هل تذكرين؟

- لا.

تطلع في النبع. الماء يخر ناعماً ثم يتوقف، يخرّ ثم يتوقف.
قال بفضول كئيب:

- ماذا يسمى الماء؟

- ماء.

- قبل ذلك.

تطلّعت حولها ثم قالت:

- جبل؟

فرفع رأسه إلى الخلاء المطلق.

- لا. لا يمكن.

- لماذا؟

- لأن الجبل هو الجبل. لا علاقة له بالماء.

- إذاً ماذا كان الماء قبل أن يكون ماء؟

فعرك جبينه براحة يده اليمنى بقوة وهو يقول:

- لا أعلم. كفاك أسئلة. أنا منهك.

- لماذا؟

- لأنني منهك.

- ولكن لماذا؟

- لماذا يجب أن يكون هنالك لماذا؟

- لا أعلم. هل يجب؟

- ما هو الذي يجب؟

- لا أذكر.

صمتٌ طويل ثقيل، ندف ضباب غامض بدأ يرتفع في المكان.

قالت وهي تلتفت نحوه بتلقائية وترفع راحة يدها عن الأرض:

- لقد تعلمت اليوم شيئاً غريباً في المدرسة.

سأل ضاري بشيء من اللامبالاة:

- ما هو؟

- الأرض كانت قطعة واحدة من اليابسة.

- لا يهم.

- نعم. لا يهم. ما هو الذي لا يهم؟

- الأرض.

- الأرض لا تهم؟

يتطلع في المدى بنظرة متحجِّرة نحو فراغ بعيد.

- هل تحلمين كثيراً؟

- لا. وأنت؟

- قليلاً. فقط حينما أنام.

عادت لتتكئ على يدها، وكأنها انتهت من المعلومة التي تستوجب اعتدالاً تاماً في الجسد. ابتسمت ثم قالت بشرودها التأملي الذي يعرفه ضاري جيداً:

- تخيَّل، لم يكن يوجد إلا يابسة وماء. هنالك حروب كثيرة بينهما، ليس لأنهما يكرهان بعضهما بالضرورة، ولكن لأنهما يعانيان من فراغ هائل. أعني فكر في الأمر: هنالك كثير من الوقت في الأزل.

سكتت لحظة لترتِّب أفكارها ثم أكملت بهدوء:

- ولكن هذا لم يعُد يحدث الآن، هل تعلم لماذا؟

فقال مسايراً بقلة اهتمام:

- لماذا؟

- لأن الزلازل والأعاصير والفيضانات والبراكين موجهة ضد الإنسان غالباً، لقد أدركت اليابسة والماء أن عداءهما يمكن تأجيله، ولكن عداءهما للإنسان لا يمكن. فالإنسان يجب أن يفنى أمّا هما فسيظلان هنا إلى الأبد. فمن وجهة نظرهما هذا الكوكب لهما وليس للإنسان، يجب أن تحترم ذلك.

هزّ ضاري رأسه مبتسماً بفتورِ مَن سمع هذه الأفكار كثيراً. صمتٌ رقيق يتأرجح بينهما، الريح تهبّ بصفير منوم، العصافير تزقزق في مكان ما، رائحة الفجر تكاد تطلق صوتاً حانياً يشبه المزمار. قال ضاري وهو يواصل التطلّع في المدى بكآبة متحجرة:

- إنني غاضب.

فقالت بهدوء رقيقْ:

- لماذا؟

- لماذا يجب أن يكون هنالك لماذا؟

- لا أعلم. لقد نسيت السؤال.

- وأنا أيضاً.

- حاول أن تتذكر.

أغمض عينيه بشيء من الألم.

- لا أستطيع. ثمة ثقل هائل في رأسي. لقد كنّا نتكلم عن الأرض.

- ما بها؟

- يابسة.

- صحيح. إنك غاضب. أليس كذلك؟

- نعم.

- الغضب مخيف. أليس كذلك؟

- نوعاً ما.

- هل تغضب كثيراً؟

- لا.

أطرق وهو يحدِّق في النبع الملفع بالضباب.

- إنني أريد قول شيء مهم، شيء عميق، شيء يدل على أنني أدركت شيئاً. ولكن الحقيقة أنني لم أدرك، وإلا لكان لدي شيء لأقوله.

- مثل؟

فرفع كتفيه بِحَيرة.

- لا أعلم. حكمة ما، فكرة ما، تنبؤ ما. شيء، أي شيء. ولكن في المقابل: لا شيء.

- ولهذا أنت غاضب؟

- ولهذا أنا غاضب. ربما. من يعلم.

- ولكنك لا تبدو غاضباً.

فزفر بخفّة لامبالية:

- لأنني منهك. إنني أكثر إنهاكاً من أن أغضب، من أن أدرك. ربما يجب أن أنام أكثر. هل أنا ميت؟ هل يستمر في الموت من يستمر في الحياة؟

- ربما.

ظلّت جالسة باتكائها الرخيم، وكأنها تراقب فكرة جديدة بغرابة تستفزّها. قامت فجأة وقد أخذت المطارة الزهرية.

- لقد تأخرتُ. يجب أن أذهب.

استدارت واتجهت نحو ثكنة الأشجار. تابعها ضاري بعينين منهكتين. عاد ليحدِّق في المدى المظلل بالغيوم، النبع ما زال يخرُّ فيه الماء بنعومة، رؤوس التلال البعيدة بظلّها المستتر وراء الضباب تبدو مرسومة بالرصاص، رائحة الفجر تطبخها الحرارة الفتية فتوشك على التلاشي. قام إبراهيم وشرب من النبع باستنكار متردِّد.

- لم يكن هنا البارحة. أليس كذلك؟

ولكن ضاري لم ينتبه. يحدق بعيداً بشرود رثّ.

الشمس تستحلّ صدر السماء، يدفنها غروب بشفقٍ متورِّد، ثم ليل دامس كالعمى، تغمره شمسُ شروقٍ بغيوم حليبية مائعة.

وقفوا ليستريح الخيل في بيداء من الأرض المسطحة الجرداء كرأس طفل وليد، يشرب ماء قليلاً في مجرى شعيب فاتر يستقر بوحدة موحشة في القفر، يقف ضاري متطلعاً حوله بأوتوماتيكيةٍ

منهكة، كمن ينتظر شيئاً مكرّراً لم يعد يُثقله، بينما بدا إبراهيم وكأن المكان يثير فضوله، ثمة طبقات متداخلة من الرمل بلونين ذهبي وداكن، تتمايل بخفة مسطحة على الأرض الجرداء المضببة برماد غبار قليل يحجب الشمس. فتور لذيذ في اللحظة وسط الشعور الصارم بالإعياء والضجر.

- ماذا يسمى مثل هذا المكان؟

قال إبراهيم بفضول. انتبه ضاري.

- لا أعلم.

ثم أكمل بعد برهة:

- ماذا تريد أن تسميه؟

- هكذا ببساطة؟

- طبعاً. البدوي في الصحراء يحب تسمية الأشياء. إنها تنقذه.

- من ماذا؟

- من الموت.

- الموت؟

التفت ضاري بفتور حوله، يبحث عن شيء يضرب به مثالاً، ثم قال وهو يشير إلى الشعيب:

- الحيوان قد يمرّ كثيراً من هنا، ولكنه لا يعلم كيف يربط الصورة بالمعنى. ولذا الإنسان ابتكر اللغة. حينما تسمي الأشياء فإنها ترتبط لديك بمعناها، ولذا تستطيع تذكُّر مكانها، لأن الأسماء تبدو كخريطة في خيالك، هنا يقطن هذا وهنا يقطن ذاك. ستسمي هذا المكان مثلاً «شعيب الذئاب»، ولذا ستكون أنت ومن يأتي بعدك حذِراً متيقظاً، وقد تسميه باسم آخر يدلّ على شيء آخر فيه أو يكشف

لك أين أنت على الأقل، ولذا يصبح العالم خريطة في عقلك بعد أنْ كان مجرّد صور خارجك.

ثم التفت نحو إبراهيم بشيء من الشكّ في قدرة ابنه على فهم الفكرة:

- هل تفهم ما أقوله؟

هزّ رأسه بشيء من الاستغراب.

- هل تعلَّمت هذا من الجامعة قبل أن تتركها؟

فرفع كتفيه بمللٍ وهو يقول:

- تعلَّمته من أماكن كثيرة.

- لماذا تركتها؟

- لقد افتقدتُ البيت والمزرعة. لم أكن أنتمي إلى ذلك المكان.

عاد إبراهيم ليحدِّق في المدى المفتوح على مصراعيه، يتخيل الأسماء التي تمّ اختلاقها منذ الإنسان الأول الذي وطئ هذا المكان، تظهر على رؤوس كل شيء كخريطة ذهنية مرقّمة. بدا له ذلك أمراً مرعباً، تقنينٌ للتيه وتذكيرٌ باحتمالية الضياع. الخيل يصهل مشتِّتاً شروده وقد ابتعد عن الشعيب مقترِباً منه، يعلن استعداده لاستكمال المسير.

يترنّحان بإعياء في وادٍ ضيق مقفر تلوح فيه نباتات اللوبيا المتحجرة. اعتادا على رائحتهما النتنة التي تلتصق بجسديهما، القذارة التي تكاد تكون جلداً فوق جلديهما، طبقة من التصحُّر النحاسي تنطبع فيه، خطوط بين مسامات البشرة تتجمع فيها قذارة الرياح المحمَّلة بالرمل، تبدو كأمواجٍ تُرابية متيبسة في خدودهما. يقصّ ضاري على ابنه قصص البدو القديمين الذين ولعوا بتسمية الأشياء، كيف كانوا

يتأقلمون مع ظواهر الطبيعة بطريقة خارقة، كيف يتجنبون الذئاب والوحوش والأفاعي، كيف يتكيفون مع لظى الصيف وبرودة الشتاء، يتَّحدون مع الصحراء حتى يبدون كقطع صخر تحجرت منذ آلاف السنوات. ولذا حينما يخبره أن يدهن قدميه كل يومين بالمرهم كي لا تتقرحاً، يسأله إبراهيم وهو يفعل ذلك بشيء من خيبة الأمل:

- ولكن البدو لم يكونوا يفعلون ذلك.

الافتتان بأن يكون بدوياً، إحساسٌ بالأمان في مجابهة شيء عنيف مثل الصحراء. ولكنه لا يبالي بتسمية الأشياء، بتقفّي الأثر، بشيم السحاب. كل ما يريد أن يأخذه من البدوي أن يكون قوياً كصخرة لا تخاف العطش والجوع والوحوش، لا يريد أن يخاف. فيقول ضاري بإعياء:

- لم نصبح بدواً إلى الآن. إنها رحلة طويلة لتكتسب هذا الامتياز. هل تعلم كم انتظرَت الصخرة لتكون بكلّ بهذه القسوة؟ هذه التي بجانبك قد يتجاوز عمرها مائة مليون سنة.

يتطلع إبراهيم بشك.

- مائة مليون سنة؟

- تظنني أمزح؟

- إذاً كانت قبل الإنسان؟

- كل شيء هنا كان قبل الإنسان. وسيظلّ بعد الإنسان.

العظام المندكّة تجعل الجلوس متعباً، أن تثني قدمك بخفَّة رتيبة. يصابان بالإسهال الشديد أو الإمساك المزمن، الجهاز الهضمي يلطم صارخاً في عزاء رفاهيته، فينحدر كل شيء كالنهر، أو يمتنع امتناعاً مؤلماً يكاد يمزق أغشية الأمعاء. يُصاب إبراهيم

بالحمى، يتوقفان يوماً حتى يبدأ بالتعافي، يبدو أشدّ قوة من قبل، يبني جدار مناعة سميك.

الزمن غشاوة ضبابية، نقطة ضوء تنبض بخفوت في غرفة مظلمة. يحسب ضاري الأيام بورقة حملها من السيارة، يقصّ كل يوم قَصة صغيرة في طرفها. خمس عشرة قصَّة، ولكن ذلك يبدو خاطئاً، يشعر بالأيام أكثر من ذلك. يحدِّق في الصحراء: رائحة المدى الترابي المُطلق، النبض الهلامي القابع في العمق، يبدو وكأنه عاش زمناً هنا. يسأله إبراهيم كل صباح «أين نحن؟» فيكتفي بالصمت محدقاً في دلالات الشمس والريح، ويسير بالخيل في اتجاه تزاحمه اتجاهات متشابهة.

يُمسك إبراهيم بقدمه، حبوب من التقرُّح تبرز في كعبه لم تتعفن، قام ضاري بغلي ماء في القربة ونظَّفها وضمدها بقماش من كمّ يده اليمنى قام بقصّه وتعقيمه. انتبه للأحذية التي يلبسانها، استغرق يوماً كاملاً وهو يقطع بصعوبة في لوح الخشب الذي حمله من السيارة، ربط قطعة تحت كلٍّ من الأحذية الأربعة، مسطحة بشكلٍ نحيف لا تسبِّب صعوبة في المشي، ولكنها تحفظ الجلد المدبوغ من أن تأكله الأرض.

صادف طائر سمان يربض في عشه، يتخذ من زاوية غصن في شجرة الطلح مكاناً لبيته. اقترب ضاري بحذر شديد، يتذكر النهارات السخيفة في طفولته، حينما كان يلاحق مع أبناء عمه طيور «الدخل» في المزرعة، ويصنعان سوياً أدوات صيد بدائية. فكَّر ساخراً: لا تبدو سخيفة الآن؟ يأكل إبراهيم البيض الصغير مع لحم الأم بتقرُّف، يختلف طعمه عن بيض الدجاج الذي اعتاد أن يأكله، ولكنه لا يقول

شيئاً، يفكر أنه يجب أن يكون أكثر قسوة من أن يكون دقيقاً فيما يأكل.

يلمس وجهه، مسامات جلده تتوسع، بشرته تتكتل بنحاسية أثقل. لم يعُد أي منهما يصاب بالإسهال أو الإمساك إلا نادراً، الجهاز الهضمي يستسلم لقسوة الصحراء، ويطيع أوامرها. ينامان برتابة تحت أشجار الأراك والسدر والكافور المتفرقة بوحدة مؤحشة وسط عواء الذئاب البعيدة، يسيران بالخيل الذي يصهل بإرهاق بين السهول والتلال المخضرّة. يحدِّد ضاري لحيته صباح كل يوم بالمقصّ الصغير، حتى بدأ يفقد الاهتمام بذلك، تتناثر خصلات شعره الناعمة على جبينه بعشوائية. يرفض إبراهيم قصّ شعره، بدأ يعتاد على القسوة المتقشفة، يسير حافياً أحياناً، يتحجّر عقِب قدمه كحافر الخيل، يقول لوالده وهو يمسِّد الشعرتين القصيرتين في شاربه:

- انظُر: إنني بدوي الآن.

يلتفت ضاري نحوه بفتور باهت، يبدو ابنه بدوياً بالفعل.

الصباح يظهر رشيقاً في انعكاس الشمس. تكالبت السحب فجأة حتى انقلبت السماء إلى كدرة سوداء، لا يوجد ما هو أكثر رعباً من الصحراء حينما تتكدّس السماء بغيوم خانقة، زَبَدٌ يخالطه حبر أسود ثقيل، تكسو المدى الواسع بظلال موحش من الظلمة، تحتقن في أحشائها الصواعق البعيدة التي تضرب مع رعد طفيف، المطر ينتثر بزخّات قليلة تمهِّد للغرق. يجفلان رعدة، متلفعان باللحافين فوق ظهر الخيل، الهواء ليس شديد البرودة، ولكن المنظر يثير رعباً مقشعراً. قال إبراهيم بتردّد:

هل نتوقف؟

ولكن ضاري رفض، وكأنه على موعد يجب اللحاق به. ركض بالخيل حتى اشتدّ وقع الصعق، ترتفع حدّتها كرجل يركض صارخاً من مسافة بعيدة، يقترب بكلّ غضبه الوحشي المرعب. زأرت فجأة مع خطوط كهربائية من الرعد، صعقة تكاد تنفض الأرض، ضربت في شجرة عرعر تقف وحيدة برتابة مريرة، فاحترقت. حدث ذلك بسرعة هائلة، أعقبها في لمحٍ من البصر وابل من المطر بقطرات مقذوفة كالرصاص. جفل الخيل، أخذ يرفس رعباً، ولكن ضاري سيطر عليه بصعوبة. لا يكاد يرى، قطرات المطر المنهمرة تُشكل جداراً مائياً يحجب المدى، لمح بصعوبة جبلاً بعيداً، ركض يسابق الصواعق التي قتلت ببرود لامبالي شجرة تبلغ من العمر مئات السنوات. يصرخ إبراهيم في والده فتختنق صرخته في فمه، لا صوت سوى زعيق المطر والريح. اختبآ في حفرة مجوّفة في طرف الجبل، فتح ضاري قِرَب الماء وربط الخيل بقوة في صخرة بجانبهما كي لا يلوذ بالهرب. قال إبراهيم وهو يحدّق في الخيل بنظرة تتصنع اللامبالاة بالرعب:

- وماذا عنه؟

ولكن ضاري لم يردّ. يتطلع بانتباهٍ شارد في الشلال الذي يهبط من حدّ الفجوة كستارة الخيوط الشفافة، الخطوط الكهربائية الزرقاء التي تضرب في الأرض، تراب الغبار الذي يستسلم لسطوة الماء فيعود إلى أصله. تسري في جسد إبراهيم قشعريرة مستفزة، الكره والخوف يجتمعان في داخله مرة أخرى، ولكنه لا يستطيع لكم السماء أيضاً، ولذا ينكمش بارتعاشة خوف مكبوتة بقسوة، يحاول ألّا يفكّر في كل ذلك الزئير الكهربائي المرعب.

هدأ المطر فجأة. الطبيعة لا تعترف إلا بالفجأة. انفرجت السحب ببطء عن أثر للشمس، رقعة مريضة من الضوء. خرج ضاري بخطوات بطيئة، ثمة دفء غريب في المكان المتحرِّر من الريح، قوس قزح يتألق بألوانه في الأفق، الأرض الترابية تلمع بالماء كبساط من ضوء، رائحة المطر تتوهج باحتقان لذيذ، يشبه رائحة الرضيع المولود حديثاً. وقف ضاري يحدِّق، يستنشق، ينغمس بذهول متأثر، يتذكر اللحظة التي حمل فيها ابنه لأول مرة فشمّ رائحته النقية، رائحة الطفل قبل أن تفسد في عفن الحياة، وأخذ يفكر: كيف لشيء خرج من جوف إنسان أن يكون برائحة ساحرة كهذه؟ لقد أرعبته هذه الفكرة حينها، بدت شيئاً لا يمكن أن يُفهم، وكأن هذا الطفل قد بدأ بدون مقدِّمات يُبرم تحدّيه له: أنت ستبدأ في عدم فهمي من الآن. يتطلّع بشرود معلق في المدى الرطب، الخيل يشرب من النقع المجاورة، ابنه يحمل قرب الماء الفائضة المثبتة بالحصى. كل هذا الجمال، في كل هذا الألم. يحبّ الصحراء ويكرهها.

- يبه. هل نمضي؟ يجب أن نسبق العاصفة إن كانت ستعود.

انتبه ببطء. التحق بخيله وركبه أمام ابنه.

* * *

الحمى تلعب في جسده. فقاعات من الغليان يشعر بها ضاري تنضج في دماغه، غشاوة من اللظى تصطبغ في عينيه. الجبال يبدو وكأنها تتحرك، الضوء يكاد يحرق جلده، خيالات سراب تمرّ سريعاً أمامه. نام في الظلمة متعرِّقاً، كوابيس اللاوعي الوقح في قسوة سرياليته، أموات ووحوش وهُوّات وجحيم. أفاق في هجعة الليل الموحش، إبراهيم يبدو نائماً بعمق لا ملامح فيه، قام من مكانه

هارباً، يبحث عن هواء أكثر يستنشقه، يشعر بضيق في صدره، بحرارة تغلي في عظمه، المدى يتحرك أمامه كصورة زيتية، يتفصد العرق على عينيه نُدَفاً ثقيلة. خرج من ثكنة الأشجار، القمر يبدو رفيعاً مكوّراً كنقطة ضوء عملاقة، أخذ يحدّق فيه بوجوم منهكٍ مريض. انتبه لشبح رجل يقف على يساره، يبعد عنه عدة أمتار قليلة. تراجع ضاري خطوة إلى الخلف بخوف، الرجل يقف متصلباً، محدِّقاً في القمر وقد وضع يديه في جيبه، بثقة من يعرف أين هو وأين يريد أن يذهب بالضبط، يغرق في ظلّ الظلمة الكالحة. التفت نصف التفاتة نحو ضاري:

- ليلة جميلة. أليس كذلك؟

وقف ضاري بارتباك مرتعب، فكر بصعوبة ثم قال:

- هل أنت تائه مثلنا؟

أطرق الرجل لحظة ثم قال دون أن يلتفت:

- تائه؟ لا يمكن.

التفت ضاري حوله بحيرة:

- أين مكان مبيتك؟

- أنا؟

ثم التفت نصف التفاتة:

- أنا لا أبيت. أنا لا أعترف بالنوم.

- إذاً كيف ترتاح؟

- وهل يوجد راحة في النوم؟

تذكَّر ضاري كوابيسه فقال وكأنه يحادث نفسه:

- لا.

- لا يوجد راحة في شيء. صدقني، إنني أعرف.

تردَّد ضاري لحظة ثم قال:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى مكان ما.

- أين؟

التفت الرجل نصف التفاتة:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- نريد العودة إلى المجمعة.

- وما هي المجمعة؟

فكَّر ضاري لحظة ثم قال:

- مكان ما.

فقال الرجل بنبرة انتصار غريبة:

- أها. إذاً نحن متَّجهان إلى المكان نفسه.

هزّ ضاري رأسه بارتباك مزعج، تحرَّك في مكانه وهو يحسّ بطعم حبات العرق اللزجة تلامس حافة لسانه. تطلَّع في الرجل الذي يحملق في القمر برتابة، قال بيأس متردِّد:

- اسمع. يجب أن تنقذنا. هل تعلم أين الطريق إلى المجمعة؟ إلى نجد عموماً؟

التفت الرجل التفاتة كاملة أخيراً، ولكن وجهه ما زال يغرق في الظلّ. قال بهدوء متواطئ:

- طبعاً سأنقذك. ولكن ليس بهذه البساطة.

- ماذا تريد؟

- هل تقبل أن تموت مقابل أن يعود ابنك لوحده؟

أطرق ضاري بذهول ثم قال:

- هل أنت مجنون؟

ثم استدرك بانقباض:

- كيف عرفت أنّ لي ابناً؟

ولكن الرجل ظلّ صامتاً يترقب. أراد ضاري أن يقترب منه، ولكنه لم يستطع، يشعر بخوف مرعب لم يشعر به منذ أن كان طفلاً، يبدو الرجل في الظلّ الشحيح كشبح يتربص في خفاء ما. ولذا وقف دون حركة، يلمع جبينه المتعرق في ضوء القمر وتتقلص قسمات وجهه في تكشيرة حذر، يتطلع في شبح الرجل الواقف في السواد، كل شيء يبدو حقيقياً، إنه لا يمزح، إنه يترقب. طأطأ رأسه بخضوع، همس بإعياء:

- ولكنني لا أفهم. لماذا يجب أن أموت. أنا لا أفهم.

- لماذا ولا أفهم وكيف ومتى وأين. المصطلحات الرسمية للإنسان. ليس ضرورياً أن تفهم، المهم أن هذا ما يُعرض عليك. فهل تقبل؟

- ولكنني لا أريد أن أموت.

فقال الرجل بخيبة أملٍ وصوتٍ لا يكاد يُسمع:

- الجميع لا يريد الموت، رغم أن الجميع سيموتون. إنه الأمر الذي لا أفهمه، وأنا أفهم كل شيء تقريباً. هل تفهمه؟

ولكن ضاري لم يردّ، يحاول أن يستيقظ من حذره الذي يبدو كالنوم الثقيل. صمت الرجل لحظة ثم أكمل بصوته العميق:

- هل تعلم لماذا أنت حي، ورجلٌ آخر يموت؟

فردّ ضاري كيفما اتفق بتمتمة غائمة:

- لا لا. لا أعلم. لا أعلم.

- لأننا نتقاتل على المقاعد، حتى وإنْ كان بدون قصد. جميعنا قتلة طوال الوقت، وجميعنا مقتولون ذات يوم. أنت تقتل رجلاً بأن تحيا، تأخذ مقعداً وتستحلّه تاركاً غيرك في زقاق المسار حيث يسير الموت. الحروب ليست سوى الشكل الظاهري لهذه المعركة الكبرى، التصفية المباشرة بوضوحٍ حادّ صارم يثير نوعاً من الاحترام تجاه الحياة المهدرة عشوائياً.

صمت لحظة ليتأمل ضاري الذي لازال يشعر كالمنوَّم مغناطيسياً في حلم يكتسب غرابته من كونه يبدو حقيقياً جداً. أكمل ببطء:

- لماذا لا بدّ أن يكون ثمة قاتل ومقتول؟ ألا يوجد ما يكفي من المقاعد؟

فردّ ضاري بارتباك وهو يحاول طرد شرارات الحمى من رأسه:

- لقد قلت لك لا أعلم.

- ألم تفكِّر في كلّ هذا من قبل؟

- لا.

قال الرجل بابتسامة ساخرة:

- أوه يا صاحبي التائه. لا تكذب عليّ. إنك تفكر في ذلك كثيراً، حتى وإن كنت لا تعلم أنك تفكر به.

- وهل تفكر أنت في ذلك؟

- لا. لأنني أعرف الإجابة. شخص يملك الإجابة سيبدو التفكير بالنسبة إليه اكسسوار، تمرين عقليّ تافه. أنا لا أفكر.

لم يكن ضاري يدرك ما الذي يقوله، كان يتفوّه بالكلمات فقط:

- وما هي الإجابة؟

بسط يديه وكأنه يعرض له الإجابة التي تستقرّ حوله، في كل مكان.

- لا بد أن يكون ثمة قاتل ومقتول لأنّ هذه هي طريقة الكون في فرض عملية الانتقاء، إثبات الأحقية في الوجود بالنجاة من الضد يومياً وإرسال الآخر إليه.

أطرقَ لحظة ثم أكمل بهدوء قاطعٍ لا يقبل الشك:

- الحجج الأخلاقية وقناعات السلام الأخوي وضمانات الرأي المعارض اعتباطٌ يطفو على السطح اليومي، وثيقة اطمئنان لا فائدة منها إلا لتنفي -بزيفٍ- أنّ كل رجل منّا قاتلٌ وكلّ ميت منا مقتول، إنها مثل دخان التبغ تشعر بأثره ولكنه يتفتت ريثما تنفثه في الهواء، يتلاشى مع أول اختبار فعلي حين لا تبقى غير حقيقة واحدة تلوح أمامك: ما تفعله وما لا تفعله، ببساطة كونية لذيذة. تتساقط كل الدعاوى المختلقة القابلة للنقض أمام الحقيقة الوحيدة التي لا يمكن نقضها: الواقع، بغض النظر عن الاتهامات التي تُوجه إليه باعتباره تحريفاً لأصالةٍ ما وحالة لاعقلانية مزيفة تُخفي ما يجب أن يكون، الواقع بشكله الفيزيائي المحسوس يتحمّل الاتهامات، يتحمل ثقله الصارم باعتباره بديهياً لا يمكن إنكاره أو هدمه أو إلغاؤه، تراه وتسمعه وتلمسه في حالتنا هذه مثلاً نتيجة حتمية لانتقائية الفوز المجرد الذي حصلت عليه، الهواء الذي تظلّ تتنفسه وشحوب الموت الذي بدأ ينخر في خصمك، بغض النظر عن أيّ تفاعلات أخرى خارجه. تحيا أنت، ويموت هو، هذه هي كل المعلومات التي يحتاجها الواقع لبناء نتيجته. إنها لعبة، لعبة بلا قوانين، بلا حجج فكرية ومطالبات جوفاء وإلزام بسياقات ما.

تطلّع في ضاري لحظة ثم قال بعاطفة ساخرة:

- الكون يلعب بنا يا صاحبي. لماذا نثق به؟

تحرَّك ضاري في مكانه وهو يطرِف بِحَيرة ذاهلة، قال وكأنه يحادث نفسه:

- أنا لا أفهم جيداً ماذا تريد. لا أفهم.

ثم استدرك وهو يشعر بشيء من الدوار:

- ماذا تريد بالضبط؟

- أريد؟ أنا لا أريد شيئاً، لم أرِد شيئاً من قبل. هل تريد أنت؟

فردَّ بعصبيةِ مَن لم يعُد يحتمل مزيداً من الغموض:

- طبعاً. أريد كثيراً من الأشياء.

- هل تقبل أن تكون قاتلاً لإثبات أحقيّة انتقائك الوجودي؟

- لا.

اقترب الرجل بصوت حادّ مندفعٍ لا يمكن مجادلته:

- ولكنك قاتل، مهما حاولت رفض ذلك. قاتل. بيدق في لعبة الكون الأزلية، يتحرك دون أن يقف ويفكّر: ماذا سيكون ضدّ الوجود أصلاً؟ ذاك الذي أحاول أن أثبت أحقية انتقائي بأي طريقة كانت لأهرب منه. ربما لا يكون مكاناً سيئاً، كيف تحكم على شيء لا تعرفه؟

صمت لحظة وقد تقدَّم خطوة في الضوء الشبحي للقمر، ثم أكمل بحميمية غريبة تتسرب في صوته المثخن بالعمق الغامض، كرجل يعرف أسراراً لا يحلم ضاري بمعرفتها يوماً ما:

- العدم. العدم اللامفسَّر سوى بحالة وجدانية نوستالجية. العدم كخواء مطلق في ارتياح اللانهاية، تمور فيه غشاوات من

الانطفاء وشخوص مطلقة لانهائية من اللاأنا واللاحضور. هل تريد الذهاب إلى هناك؟ إنك تعرفه، إنه فيك، حينما تشعر بقلق ما، بنغزة خوف مقشعرٌ نحو غموضٍ ما، ولكنك لا تعرف ممَّ وعلى ما، هذا هو العدم، أثرٌ رجعي من علاقة سابقة تربطك به حينما لم تكن ثمة ذاكرة لعينة كهذه تحتفظ بصورة له، مجرّد نغزة نوستالجية مُثارة بقلقِ التناقض في لامعرفته والعجز عن تعريفه رغم الشعور الميتافيزيقي العارم به. هل تريد العودة إلى هناك؟

شعر ضاري بقشعريرة كهربائية تسري في جسده، كل هذا الظلام والصوت العميق والرؤية المضببة بشحوب الضوء وذرات الغبار. قال بتوتر حاد:

- ماذا تقول بحق الله؟ مَن أنت؟

- أقول هل أنت مستعدّ للعودة؟ ثمة فراغ مطلق ينتظرك، ثمة نهاية لانهائية تترقب قدومك. الحياة ظلٌّ وارف يشحذ حدّ البصيرة المثقل، فهل تريد الخروج من الظل؟ الشمس هناك، شمس كالحة تسطع سطوعاً أسوَدَ يمنعك من الرؤية، يمنعك من الوعي، يمنعك من إدراك كُنه الأشياء، لأنه لا أشياء، مجرد سطوع أبدي أسود لانهائي في خمود من اللاقلق. هل تريد القبض على الشمس؟ هل تريد يا ضاري؟

أحسّ بنظرات الرجل تكاد تخترق جبينه، يحدِّق بقوة في جسده الغارق في الظلّ الكالح، يحاول أن يبحث عن عينيه، ولكنه لا يستطيع. قال بتمرُّدِ مَن لم يعُد يحتمل:

- أيّ لعبة تحاوِل القيام بها؟ لماذا يجب أن يموت أحدنا لينجو الآخر؟

- لأنّ الحياة كما قلت معركة انتقاء لا منقطعٍ تُحدّد وحدة الوجود الأزلية. إنها خيارات، أنت أو الآخر. الخيارات هي التي تحدِّد مَن أنت وماذا تريد. ألا تتفق؟

عاد ضاري ليتحرّك في مكانه بارتباك عصبي وهو يشعر بإغماء قريب، قال بهمسٍ مكتوم وكأنه يُخبر نفسه بذلك:

- إنه مجنون. مجنون. مجنون لعين.

- وأنت عاقل؟ صحيح، أرى ذلك بوضوح.

أطرقا بصمت موحِش يتخلله عواء ذئب بعيد. بدا وكأن الرجل يترقب ردة فعلٍ ما من ضاري، وحينما لم تصدر تحرَّك في مكانه بفتور، قال بنبرة ثقيلة لامبالية:

- واللعنة على كل شيء. إنك لا تفهم. إنك تضيِّع وقتي.

ثم استدار بخفة. سار ببطء نحو الأمام، تتسرب خشخشة خطواته كوسوسة خافتة. صرخ ضاري فيه باستنكار:

- ألا تملك خيلاً؟ إلى أين تذهب؟ ستتوه.

ولكن الرجل لم يلتفت، يسير بخفّة رتيبة وكأنه يتمشى في حديقة ما، يدخل بؤرة الضوء أمامه فتتضح قبعته المدورة التي يلبسها على رأسه ولباسه «البنجابي» بالقميص الكتاني الأسود الطويل، يسير متهادياً كرجلٍ يتجه إلى القمر في المدى بمصير حتميّ قانع، حتى اختفى في السواد البعيد. عاد ضاري متمايلاً إلى مكان المبيت، يحسّ برأسه يغلي، يهمس بعصبية: «إنني أهلوس أهلوس لا محالة». رمى بجسده على اللحاف الرقيق، يُحس بالحصى تنغز ظهره بقسوة. كوابيس أموات ووحوش وهوّات وجحيم. قام في الصباح

بوعي أوضح، برأس أقلّ حرارة وعين أصفى وضوحاً، أخذ يتذكر الليلة الماضية فتبدو حلماً، يفكر أنها لا بدّ أن تكون حلماً.

يُخرِجِ الورقة كلّ فجر، يقصّ قَصَّة في طرفها. لا يثق فيها، الزمن يتمدَّد بغموض، يترنح كدخان تبغِه الهلامي. يقف أمام الغروب بنظرة تأثُّر جمالي معلّق، ولكنه يكرهه، لأنه مدخل الليل، إعلان بقدوم السواد، وكأن أكثر الأشياء جمالاً مجرّد واجهة لكآبة خبيثة. الذئاب تعوي، إنه يخشى من وحوش تقطن في الخفاء، أن تكون النهاية بين فكّي حيوان يخلط دمه بدم ابنه. ولكنه يعرف كيف يتجاوزها، كيف يهرب منها، وكيف يقتلها إن تطلّب الأمر. قتل أفعى مرقّطة الجلد كانت قد تسلَّلت إلى مكان جلوسهما قبل أن يشعلوا النار، وقف بعيداً عنها بالفأس متوثباً بجانب إبراهيم، ثم هوى على رأسها بحركة خاطفة، وقفز إلى الخلف بسرعة لئلّا يصيبه شيء من دمها. لم يشعر إبراهيم بالخوف بقدر ما شعر بالإثارة، الفأس الذي يهوي على الجسد المخروط فيقصم الرأس بقسوة قاطعة. قال لوالده وهو يقلب جثتها بعود غصن كبير:

- سأقتل الأفعى القادمة.

ولكن ضاري لم ينتبه، بدا شارداً بفتور قلق. ألسنة النار تُخطَف أمامه، يتطلع في المدى المظلم خلفها، يمضغ القطعة الأخيرة من لحمة رقمات. لم يبقَ سوى ثلاث عشرة سيجارة فقط، ينفث الدخان فيتشكل ثكنة ضبابية. «الباريدوليا»، الوهم الدقيق الذي يدفعك لأن ترى أشكالاً غريبة في الغيوم، لا يراها أحد سواك. الخيال يخدع الواقع. خطٌّ دخاني يُشبه الطريق المؤدي إلى مزرعته، خطوط دخانية تشبه وعاء فخارياً أثرياً على طاولة مكتبه. الليالي الأولى التي نام

فيها إبراهيم بجانب سريره، مجرّد رضيع خرج للتوّ من حضانة المستشفى، يبكي بألم مزعج لا يتوقف، تُهدهده والدته بعجزٍ ناقم، تطالب ضاري أن يساعدها فيحمل الطفل الهستيري، يبكي بخوفٍ يثير الرعب، وكأنه يرى شيئاً لا يراه أحد سواه. في الليلة العاشرة واصل البكاء، قامت زوجته برتابة تغيب فيها النقمة، فقام من سريره بهدوء مميت، لبس ثوبه أمام نظراتها المستنكرة، خرج بصمتٍ مطبق، يسير متجهاً إلى الخارج، يتساقط صوت بكاء ابنه وهتاف زوجته قطعة قطعة، حتى تلاشى تماماً حينما أقفل باب سيارته، سار حتى وقف على حدود المدينة فوق الجسر المؤدي إلى الرياض، الصحراء أمامه تغرق في سكون ليلي مهجور، يشقّها خطان إسفلتيان ببقع ضوء تمرّ بسرعة خاطفة، يتخيَّل أن يغرق في عمقِ مكانٍ مثقَل بالفراغ، حيث لا أحد يعرف اسمه، لا أحد يستطيع رؤيته، مجرّد امتداد شاسع من الجذْب لا نهاية له، أخرج علبة السجائر وأخذ يُدخن، يغرق في رائحة التبغ المغناطيسية، حتى نام. قام فجراً على صوت رجل يدقّ نافذة الراكب، فتح ضاري الباب بصعوبة فركب الرجل، جلس متصلباً بصمتٍ اعتيادي خامل، وكأنه يعرف ضاري منذ زمن، لا يحتاج إلى أن يُعرّف بنفسه، سأله ضاري بتردد: «مَن أنت وماذا تريد؟» التفت الرجل بدهشة وكأنه لا يفهم السؤال، حدّق في ضاري دقيقة ثم قال بشيء من الشعور بالإهانة: «أنا هو أنا، كائن لا يُعرّف بوجوده المحض لأنه لا يملك وجوداً محضاً، يكتسب قيمته من انعدام قيمته، من خواء الفراغ الهامشي الذي أتى منه، من هشاشة الهلام الذي تفتق فيه. هل عرفتني الآن؟ هل تريدني أن أكرِّر هذا الهراء؟»، تطلّع ضاري فيه بدهشة باردة، قال وكأنه

يدرك بحذر: «أنت مجنون؟»، فابتسم الرجل باستنكار: «أنا؟ مجنون؟ لقد أخطأت، أنا لست أنا لأكتسب صفة ما، إنني أحقر من هذا للأسف، إنني أتمنى لو أنني أملك من الاستقلال ما يكفي لأن أكون مجنوناً»، فقال ضاري: «إذاً مَن أنت؟»، أحدّ الرجل عينيه وكأنه يبحث عن إجابة مناسبة: «أنا انعكاسٌ لأناك، تراني كثيراً، هل تراني الآن؟»، «نعم أراك»، «هل رأيتني من قبل؟»، «لا، لم أرك من قبل»، فقال الانعكاس بشيء من الغضب: «هل أنت متأكد؟»، فتطلّع ضاري في الأفق الشاحب بزرقة الفجر، يحاول التذكر، أحسّ بدوار في رأسه، همس: «لا أذكر». أطرقا لحظة، هدأ الانعكاس وهو يتمتم غاضباً، قال أخيراً بلامبالاة عصبية: «إذاً، لماذا أنت هنا يا ضاري؟»، عاد ليتطلع بِحَيرة نحو الأمام، نافذة السيارة الأمامية تحمل أثر حشرة ميتة، يشعر بالدوار يزيد حدّة، عرك جبينه وهو يقول: «لا أعلم لا أذكر»، ثم التفت إلى الرجل كمن يبحث عن إجابة، انتبه الانعكاسُ لذلك فانتفضَ بكثيرٍ من الغيظ: «لماذا تنظر إليّ؟ لماذا تنظر إليّ دائماً في مثل هذه المواضع؟ أنا لا أعلم، أنا مثلك لا أعلم» أشاح ضاري بنظراته فأكمل الانعكاس: «ربما أعلم ماذا يعني الارتباط الأبدي بوجود آخر، ماذا يعني القلق من عدم وجود منفذ نحو انعتاقٍ ما، ولكنني لا أملك إجابة لك، فكَوني انعكاسك لا يعني أنني أملك كل الإجابات، لا يجب أن يجتمع الهوس بالقلق مع عجز التعامل معه، لا تكن طفلاً فهذان لا يجتمعان» ثم نزل من السيارة مخلفاً ضاري في فورة دوار ثقيل.

يستعيد الإحساس بالدوار أحياناً، ولكنه لا يتذكر مصدره، لا يتذكر موقفه مع الرجل، كل ما يتذكره هو أنه أحسّ به من قبل، ولكنه لا

يدرك متى أو كيف أو حتى لماذا. يشعر به الآن طفيفاً، يحاول التنقيب بحذرٍ في ذاكرته، ولكن إبراهيم قاطعه فجأة:

- كنت أظنّك تركته؟

انتبه ضاري ببطء وكأنه يفيق من نومة عميقة.

- ما هو الذي تركتُه؟

- الدخان.

أطرق لحظة بشرودٍ ذاهل. رائحة التبغ الثقيلة تمخُر في أنفه، خطوط الدخان المألوفة تذوب بسرعة. قال بغموض:

- نعم صحيح. لقد تركته منذ زمن.

يتطلع إبراهيم في والده بطرف عينه. الصمت يترنح بينهما كرفيق ثقيلٍ يرفض الرحيل، الوحشة الشبحية في الظلمة الداكنة توقظ كآبته، ينكت الأرض بعودِ غصنٍ ميت كما يفعل ضاري أحياناً. رفع رأسه من جديد نحو والده، تتسلل من فمه خيوط دخان تجمَّعت لتبدو شبيهة بوجه والدته، أخذ يحدِّق بنظرة ذاهلة حتى تلاشت ببطء هلامي. أراد أن ينبِّه ضاري، ولكنه بدا يبتسم، وكأنه رآها قبله. التفت ليتطلع في امتداد الصحراء أمامه، ضوء القمر المكتمل يسكب ضوءاً فضياً على الصخور الناتئة. يسأل نفسه إن كان سيلاحق الشمس ليقبض عليها يوماً ما.

* * *

الخيل يصعد التلال الصخرية. غيمةٌ شاردة تغطي طرفاً من الشمس، فيطفح الظلّ فوقهما ويصطبغ التلّ بالضوء أمامهما. تزحف الشمس والغيمة متعاكستين ببطء، فينتقل الظلّ إلى التلّ ويستقر الضوء فوقهما.

كان ضاري قد لاحظ اختلاف التضاريس منذ خروجه من نجران، الأشجار والجبال والتلال والسهول الخضراء، لا تبدو أنها تتجه إلى قلب نجد، ولذا مال نحو الشرق.

مرّا بجانب جثة متعفنة تآكل جزء من وجهها، تستقرُّ برتابة بليدة في وسط الخلاء، لا تنتمي إلى تحت شجرة أو على ظهر صخرة. نزل ضاري من خيله واقترب منها، نسي أن ينتبه لابنه الذي لحقه بتحديقة ذاهلة، يقفان أمام الجثة، طبقة صفراء من الحديد المتكسِّر تصبغ جلده، كتمثالٍ نحاسيّ عتيق طبخته الشمس، شفتاه المتآكلتان تكشف عن أسنان ولسان يطفح فوقها التراب، امتص الخواء لحمه حتى بدَت عروقه فوق عظامه كالأسلاك الناتئة، يلبس قطعتان بدائيتان من جلد حيوان مرقَّع، متقلب في وضعية بدنه الغريبة، يبدو وكأن الريح جرفته من مكان ما، يده اليسرى خلف ظهره ويده اليمنى تقع على صدره، مكسورة كجذع الشجرة المتحجر. انتبه لابنه بجانبه، ارتبك لحظة وهو يمدّ يده على صدره:

- لا حاجة إلى أن ترى ذلك.

قال إبراهيم بتحديقة مصرَّة:

- ولكنني أريد أن أرى.

أطرق ضاري بوجوم، أنزل يده فعاد إبراهيم ليحدِّق في الجثة. قال بهدوء:

- هل ندفنه؟

تطلَّع فيه بإطراقةٍ شاردة. البدوي الصغير يتفتق ببطء، يحدِّق في الجثة بصرامة. قال بنبرة باهتة:

- لقد تجاوز مرحلة حفظ كرامته بأنْ تُدفن جثته.

وضع يده على كتفه، ثم عادا للخيل الذي يتشمَّم الأرض بحثاً عن حشائش الربيع.

ريح السموم تنفض شجرة العرعر فوقهما، ضوء النار يسكب انعكاساً شاعرياً فوق البشرة النحاسية. يفكر إبراهيم في الموت منذ أنْ مرّ بالجثة قبل أيام. هل رأى الموت من قبل؟ هل تقاطعا ذات يوم؟ يتذكر حينما كان في المستشفى أثناء مساء كئيب، لسبب لا يذكره، وقف في الرواق السيراميكي اللامع، ينعكس الضوء الساطع فيه بكآبة جنائزية، يحتقن أنفه برائحة المعقِّمات ويزحف نحوه طنين الأجهزة الشبحي، مرَّ بجانبه شيخٌ يتحرك ببطء مترنح، يقود أمامه أنبوبة أكسجين ويتكئ على عمود محلولِ المغذّي بإبرته المغروسة في ظهر الكفّ اليمنى، بشرته المتموجة كالرمال الزاحفة، تثير الغثيان. يتطلع فيه إبراهيم وهو يتجاوزه بصعوبة، يفكِّر بشيء من الجزع المتقزِّز: إلى أيّ حدٍّ يجب أن تتشبث بالحياة؟ التفت إلى والده، ينفث الدخان بصمتٍ مفرغ وكأنه يشرد في خيال بعيد.

- هل سنموت يا أبي؟

سأل بنبرة باردة. انتبه ضاري، حدّق في ابنه بهدوء، لا يبدو خائفاً، يلوح في نظرته استسلام منجرف. قال بابتسامة رقيقة لا تكاد تُرى:

- طبعاً سنموت. هل يوجد شيء لا يموت؟

يغرق كلاهما في بُعد نافذته السحيق. بينما تنهمر أنَّات الحطب المحترق بخمول رخيم.

يقطعان الصخور المتشبثة بالأرض، ترفض التخلي عن مكانها منذ آلاف السنوات، ولكنها ستموت حينما ينتهي الكون يوماً ما، هل

يوجد شيء لا يموت؟ يميلُ نحو شمال الشرق. التهم الخيل عشباً في سهل منحدر، وتناولا أمام النار خبزاً متيبساً، ثم ناما ليلاً بعد أن دخّن ضاري سيجارة أخرى. لم يبقَ سوى اثنتي عشرة سيجارة فقط.

الخيل يمشي بمللٍ بين تلال منحوتةٍ بأشكال هندسية، يتأرجحان فوقه كالنخل في مهبّ ريح بطيئة. تلوح جبال خضراء بمدرجات كالطرق المرصوفة. وقفوا أمام بئر مهجور بماء مطر فتيّ يختلط بالتراب. قال إبراهيم وهو يتطلّع نحو والده يرفع الدلو المعلّق بالحبل المتين الذي يقاوم الزمن:

- لقد عقدت صفقة مع الله البارحة.

انتبه ضاري بِحَيرة:

- ما هي؟

قال إبراهيم بتلقائيةِ مَن يطرح حلّاً جادّاً:

- سأحفظ القرآن إنْ عُدنا إلى المجمعة.

أطرق ضاري بابتسامة منهكة. عاد إبراهيم ليقول:

- ما رأيك؟

- أنت لم تعقد صفقة، ولكنك قدَّمت طلباً، ثمة صفوف هائلة من البشر قدّموا طلبات مشابهة. يجب أن تنتظر في الصف.

- إلى متى؟

- هذا جزء من الاختبار، ألّا تعرف متى، وإلا لكان الإيمان شيئاً بسيطاً. يُقال أن مَن لا يؤمن لا يتقدّم في الصف، ولذا يظنّ أنه لم يصل، رغم أنه في الحقيقة قد وصل ولكنه لم يؤمن أنه قد وصل.

هزّ إبراهيم حاجبيه باستسلام مَن لم يفهم شيئاً، ووضع الدلو أمام الخيل. أطرقا لحظة بصمت هادئ، الخيل يشرب الماء برشف

عنيف، الشمس تتوارى خلف غيمة شاردة. فكَّر ضاري في الموت، لا يفكر كثيراً في الموت، وإنْ فكَّر فيه فهو لا يتجاوز كونه احتمالاً نظرياً. يتطلَّع في تلٍّ صغيرٍ بجانب جبل نحتته رياح التعرية، وكأنه طفلٌ يقف بجانب والده. قال فجأة بنبرة شاردة:

- خلال عشرين ألف سنة ماضية، تقلَّصت جمجمة الإنسان بمقدار 1350 سنتمتر مكعب. خلال ملايين السنوات تطورت كائنات وفنيَت أخرى. ملايين السنوات تستغرقها عملية تغيّر في التركيبة الجينية لفصيلة حية، عملية واحدة.

أطرق إبراهيم باستغراب ينتظر والده أن يكمل، ولكن ضاري ظلَّ صامتاً يحدِّق في الأب وابنه المصقولان بالريح.

- طيب. ثم ماذا؟

انتبه ضاري وكأنه نسي ما قاله ثم تذكره فجأة.

- لا يوجد ثم ماذا. يوجد فقط إحساس غامض بعدم الأهمية.

- عدم الأهمية؟

- الحجر الذي وُجد قبل الإنسان، الكائنات التي وُجدت قبل الإنسان، الإنسان الذي وُجد قبل الإنسان. الجينة التي تستهلك آلافاً من السنوات لتتحول، التلّ الذي يستهلك آلافاً من السنوات ليكون جبلاً. مَن أنت بين كل هذا؟

- أنا إبراهيم بن ضاري.

ضحك ضاري بإعياء كما لم يضحك منذ مدة طويلة، فقلده إبراهيم وهو يشرب جرعة من الماء.

- وترى أنّ هذا كافياً؟

- طبعاً. أنا الموجود حالياً، لا يهمّني مَن وماذا كان موجوداً قبلي أو بعدي.

هزّ ضاري رأسه بإطراقة خاملة، لا يرفع بصره عن التل والجبل، يتذكّر الرجل الغامض في الظلّ الشحيح بوجوم قلق.

* * *

الشمس تنحدر في الأفق. لاح أمامه مدى أخضر، حقول الشجر التي تنسكب على جانبَي وادي أذنة، مجاوراً لمدينة مأرب المسوّرة، عاصمة سبأ في عنفوانها.

بدا الوادي كنهر طويل، يصبّ من سدّ مأرب الذي يتموضع قبل عدة أميال من المدينة، بين مضيق جبلَي بلق، يتجاوز عرضه أكثر من 700 متر، بجدار يرتفع 18 متراً ليحجز مؤخرة الوادي، ومصرفين كبيرين يخرج منهما الماء إلى قناتين رئيستين تتوزعان على قنوات الميزاب الفرعية التي ترتبط بالحقول على امتداد جانبي الوادي المتوسع، حيث يقف ضاري الآن. تجاوزا بالخيل حدائق الشجر والثمر على الجانب الأيمن، تميل مع النسيم برتابةٍ وجود بديهي، تفوح بروائح عطر طبيعي ناعم، أشجار النخيل والبلسم والقرفة والكافور والكروم والتفاح، السطح الأخضر بحقول الذُرة الطويلة وشجيرات العنب، العمال الذين يحرثون ويقطفون ويسقون، السائرون الذين يتسامرون ويجلسون ويلعبون.

يسيران بنظرة معلقة. وقفا بذهول أمام بحيرة الوادي، تنعكس على سطحها المتموّج صفرة الغروب البرتقالية، وتلوح في الجانب المقابل مدينة مأرب بسورها العظيم وبابها الشرقي. الماء الممتدّ وسط الحقول في شظف الصحراء، تبدو كالجنة، كقطعة الثلج في

قعر النار. يشعران بلفحة البرد التي يحملها الماء المرقَّق بالزرع، برائحته المنومة.

- أين نحن؟

همس إبراهيم بلذة ذاهلة. أطرق ضاري لحظة ثم قال وهو يحدق في الصورة بشرود منجرف:

- لا أعلم، ولكننا لسنا حول نجد. هذا مؤكد.

يفكِّر ضاري أن النجدي يشكّ في صداقة النهر والبحر، لأنه لا يعرف الماء سوى كدخيل خجول، خريره في المزاريب الخشبية والسواقي المحفورة والآبار المطوقة بالحجر، ولكنه حينما يسيل مع المطر وكأن السماء تتقيأه دفعة واحدة، يجرف البيوت والحصاد والأجساد الطافية على سطحه. التراب لا يفعل ذلك، ولذا يقف ضاري بشك غريزي متأثر أمام الوادي الواسع.

نزلا بالخيل في منحدر منزوٍ في الطرف الجنوبي للوادي، يتساوى مع السطح الترابي بين سوى الصخور والعزلة الصامتة. شربا مع الخيل حتى انتفخت بطونهم، ثم قفزا ليسبحا بثيابهما المكدسة بالنتن والتراب، الماء الناعم يتسلل في جذور الشعر، ينجرف في قسمات الجلد، ينغز العروق المتيبسة بتصحر التقشف. رقة حالمة، تنهمر بألق شاعري. يستلقي ضاري فوق سطح الماء، يغمس جسده حتى يختفي وجهه، العالم في الضفة اليابسة بلا أصوات، صورة مائية متموجة وراء السطح، كحلم هلامي.

خرج من الماء، راقب ابنه من بعيد. يبدو لأول مرة منذ مدة طويلة، منذ أن هجرا السيارة قبل زمن لا يستطيع تحديده: طفلاً. طفلاً يعيث عبثاً في الماء، منفصماً عن كآبة اللحظة الكابوسية.

تحسَّس باطن قدمه المتقرِّح، يتكدّس الماء في الكسور القشرية. يحدِّق بكآبة في الشمس التي تسقط في الشفق، ستخرج غداً مرة أخرى، ستسحب معها يوماً جديداً، وبحثاً جديداً، وضياعاً جديداً. الجلد المتكسِّر، الجسد الناحل، الشفتان المقدّدتان، النظرة الباهتة، تنطفئ مع آخر خيط للشمس يسقط وراء سور مأرب.

يتطلع في المدينة بسورها المبني بالطابوق المحروق، تتعالى فوقه قنن قصر سلحين المبني بالبورفير والمرمر ومعبد سليمان الشاهق وكأنه نبت من الأرض. الرهبة المتوجِّسة تفرض سطوتها، أن تَلِجَ مكاناً لا تعرف ماذا يكون بالضبط. سيجلس في البقعة المنزوية أمام الوادي، بحيرة الماء السحرية، ثم سيواصل طريقه في الفجر.

- لن أمانع النوم وسط الماء.

قال إبراهيم بلذة هائلة وهو يخلع ثوبه، يعصر أوساخه فيكاد أن يتمزق ترهلاً.

قطفا ثمراً من حدائق الشجر، وجمعا قطع حطب متفرقة، يتلفتان بحذر صدوداً عن الأعين المترقبة. ولكن لم يكن ثمة شيء يراقبهما، الظلمة الباهتة بضوء القمر ونعاس الليل الهادئ.

يأكلان بصمت رقيق ينهمر فيه خرير الماء. النسيم يلفح الرأس الرطب، فيُطفئه دفء النار.

دخن سيجارة جديدة. بقي إحدى عشرة سيجارة فقط. استلقى إبراهيم بجانبه، الظلام يهدم أبعاد الوجود من حوله، سور مأرب الطويل والسدّ البعيد والوادي القريب، تذوب بصمتٍ جنائزي في غبش الظلام. تتسلَّل من بعيد دندنة هادئة لآلة «الهارب»، أقدم آلة أوتار موسيقية. التفت ضاري إلى المدى المظلم، تنسلّ الخفقات

الوترية من الحدائق كالوسوسة، وكأن الشجر يملأ وحدته الأبدية بالغناء، تحمل في هلاميتها شغف الساهرين هناك، حيث تميل الرؤوس بطرب حزين متطهِّر، تنغمس في هسهسة النار وحفيف الأغصان وخرير الماء، كالذكرى التي تنسحب من بُعد سحيق. ظلّ يحدق بانتباهة ذاهلة، غارقاً في دخان التبغ الكثيف، حتى تلاشى أثر الدندنة الشبحية.

- أبي.

همس إبراهيم بصوت غريب، متدثراً تحت اللحاف. انتبه ضاري ببطء دون أن يلتفت:

- ماذا؟

أطرق لحظة وكأنه يحاول اختيار الكلمة المناسبة، دون جدوى.

- لقد نسيت وجه أمي!

نبرة من الذهول في صوته، تختلط مع فتور مستسلم. التفت ضاري إلى ابنه، نصف وجهه يغرق في الظلمة، والنصف الآخر يحدق فيه. كيف تجيب عن تصريح كهذا؟ فكر ضاري بكآبة متورطة، رائحة التبغ تسحب وجه زوجته من ذاكرته، ولكنه لا يستطيع أن يصفها، الذاكرة كانطباع ذاتي تعجز اللغة الإدراكية عن تصويره، مجرد كتلة من الضباب الحلمي. قال بشيء من العجز:

- إنه شيء يتعلق بالذاكرة، تحتاج دائماً إلى أن تجدِّد نفسها. كأن تحدق في صورتك القديمة فلا تكاد تعرف نفسك. ليس في الأمر شيء غريب.

ظل إبراهيم يتطلع فيه من تحت اللحاف، بنصف وجهه المضيء، نظرة باردة لا معنى لها، وكأنها تقف في حياد لامبالي

تجاه عجزه. أغلق عينيه وانخرط في النوم. نفث ضاري آخر نفس للسيجارة، بشعور مبطَّن من الكآبة. قام من مكانه بهدوء، سار نحو الماء الذي يزحف قريباً منهما، وضع باطن قدمه المتشقِّق في التراب المبلَّل، وكأنه يغرق في ظلام مائي. دندنة الهارب تتسلل خافتة من جديد، كخطوات الصدى البعيد. يتذكر، ولكن بانطباع ذاتي مفرغ من الإدراك الواضح. تطلع في المدينة، يفكر أن الذاكرة بناء ضخم، كهذا السور أمامه، يتهاوى قطعة قطعة، حتى يتحول أثراً مندرساً. تذكر القصر الطيني في المزرعة، بناه جدّه الرابع ليضمّ سلالات العائلة من بعده، احتوى طوال قرن كامل على عدد من عوائل الأسرة المتعاقبة، قبل أن ينزحوا جميعاً إلى المدينة. ما زال يقف هناك، متهاوياً، كجثة لم تدفن. سور مأرب ما زال يقف في خلفية الغيوم المتراصة، يتلألأ في حداثته التي تضحك من وعيد الفناء. يفكّر إنْ كان الجميع يعيش في الذاكرة أكثر بكثير ممّا يظن، كل الأفعال التي كان يمارسها لأول مرة قد انتهت، لا شيء جديد، كلّ ما يفعله هو تكرار هذه الأفعال، التكرار الذي يرتبط بذاكرته التي تستحضر في كل مرة -بوعي أو بدون وعي- أثر انطباع الفعل الأول، المفاجئ ببكارته وجِدّته. ثم يسأل نفسه: ما الذي سيحدث حينما تُفقد الذاكرة؟ حينما يحدث التكرار خارجها؟ كل شيء سيُعاش من جديد، كل الشكوك والقسوة والجمال والغموض والعاطفة، ولأن الألم والتعقيد أكثر من الفهم والمتعة، فإن هذا أمر غير جيد. ولذا يحاول أن يتذكر، أن يستعيد كل شيء دفعة واحدة، ولكنه لا يستطيع بما يكفي من الوضوح، كل شيء مضبب، يشعر وكأنه منفصل عمّن كان، مجرّد رجل أعيد تصنيعه يجهّز الطريقُ له قسوة التجربة العذرية

من جديد. يستنشق أثراً طفيفاً جداً لرائحة التبغ، يتلاشى.

نام بصعوبةِ مَن يشعر بشيء ما يتغير في أعماق نفسه. قام في منتصف الليل. رفع رأسه متطلعاً نحو المدينة، تسطع بضوء قوي غريب، البوابة مفتوحة على مصراعيها. الوادي ينام بخرير رتيب، لمح جسراً ترابياً صغيراً يربط بين ضفتيه، لم يرَه في الأمس. قام ضاري من مكانه بهدوء متوتر، يتعرق باحتقان نَفَس عالق في صدره. تطلَّع في الغابة المظلمة وراءه حيث انقطع هسيس الهارب، ولم يبقَ سوى حفيف شجر نائم. المدينة فانوس ضخم، كتلة نور ساطعة. قَطع الجسر الحصوي متَّجهاً نحوها. يراها من بين دفَّتي البوابة، يقترب منها حتى وقف على حافتها، القصور والمعابد والبيوت المضاءة بالفوانيس المتدلية من حواف النوافذ وعلى أعمدة الشوارع والأزقة، ضوء يختلط في ضوء، صفرة احتفالية صاخبة لمدينة تبدو خاوية، لا حركة فيها، سكون هامد يجثو في الأثير المحتقن بالوحشة، يحفل بالضوء كفضاء الكون الفسيح بكواكبه المنيرة الفارغة. سار بخطوات وئيدة، يتلفت في كل جهة بذهول مغناطيسي منوّم، لا حركة، لا أحد، صمتٌ مطبق شبحي، أبواب موصدة في بيوت تبدو واجهتها مرسومة بالرصاص لا عمق فيها، أزقة خامدة في ظلّ أضواء ترفل بأزلية رثة، هدأة خاشعة كصلاة احتفالية لم يحضرها أحد. وقف في منتصف المدينة، ميدان دائري تقع في رأسه زقّورة معبد مدرج، استدار على نفسه يبحث عن أثرٍ لحركةٍ ما، ولكن لا شيء. سمع صوتاً يصرخ:

- هيه. أنت.

التفت إلى مصدر الصوت. رجلٌ يقف على منصة في الزقورة

الكبيرة، يبدو كحصاة صغيرة جداً. رفع مشيراً بيديه:

- اقترب. اقترب أكثر.

اقترب ضاري بحذرٍ متردِّد. وقف أمام المنصة تماماً. يحدِّق في الرجل الذي يبادله التحديق بترقُّب ما. قال أخيراً:

- وماذا بعد؟

فتشجَّع ضاري وقال:

- مَن أنت؟

صرخ الرجل:

- هل تمزح؟ ما زلتَ لا تذكرني؟

- لا أستطيع رؤيتك.

- هاه، صحيح. طيب. انتظر.

اختفى الرجل من المنصة، ثم خرج من باب صغير في الزقورة الهرمية. اقترب من ضاري حتى وقف أمامه متلفتاً بصمت اعتيادي خامل، وكأنه ليس في حاجة إلى التعريف بنفسه. تطلَّع ضاري فيه بقوة، ولكنه لم يتعرف عليه، تستفزه نظرته الاعتيادية التي تفرض معرفة مسبقة لا يستطيع تذكرها. ولذا قال بشيء من الحدّة:

- مَن أنت وماذا تريد؟

حملق الرجل فيه بسأمٍ ناقم لا طاقة فيه للمزاح والنسيان. قال بأوتوماتيكية ساخرة تحفل بكثير من المَقت الحاد:

- أنا هو أنا كائن لا يُعرّف بوجوده المحض لأنه لا يملك وجوداً محضاً يكتسب قيمته من انعدام قيمته، من خواء الفراغ الهامشي الذي أتى منه، من هشاشة الهلام الذي تفتق فيه. هل

عرفتني الآن؟ هل تريد شرحاً أكثر بلاغة من هذا الهراء؟ فقط أخبرني، لديّ الكثير منه، الكثير منه.

أحسّ ضاري بالدوار، تطلَّع في المدينة حوله بذهول شارد، هزّ رأسه وكأنه يطرد شرارات عالقة. قال بتوتر:

- ما الذي يحدث هنا؟ هل أنت مجنون؟

تحرك الرجل بعصبية في مكانه، أربعيني خامل بشيب في صدغيه. قال بحدَّة وكأنه يحاول السيطرة على نفسه بكلّ ما أوتي من قوة:

- وبعدين؟

- وبعدين ماذا؟

- إلى متى ونحن هكذا؟

ثم قال بكثير من الملل الثائر:

- لماذا لا تتذكرني أبداً؟

- أنا لم أرَكَ من قبل.

فصرخ:

- إنك تراني دائماً. ولكنك ترفض أن تتذكرني. لا تستطيع أن تتذكرني. تتلاعب بي. أياً كانت الأسباب، المهم أننا لا نبدو أبداً على معرفة مسبقة، كما يجب لاثنان كانا منذ الأزل.

همّ ضاري بالردّ ولكن الرجل أكمل بانقضاضٍ حادّ:

- هل تعلم ماذا يعني أن تكون انعكاساً لأناة شخص ما؟ شخص لا يستطيع حتى أن يتذكرك أو لا يريد أن يعترف بتذكُّره لك. أنا متعبٌ، لستَ وحدك الذي يعاني. وماذا عني؟ أنا لم أعُد أطيق هذه الحياة. ولكنني عالقٌ، عالق ككلب لعين مربوط في رسن لا ينفك.

تطلع ضاري في الرجل فاغراً فاه بدهشة ذاهلة. تمتم بحثاً عن كلمات مناسبة ولكنه لم يجد. قال كيفما اتفق:

- أنا لا أفهم.

اقترب الانعكاس منه وهو يقول:

- اسمع. أنا لن أعود مرة أخرى، إنني جازم هذه المرة. بإمكانك أن تخوض معضلاتك الخاصة دون الحاجة إلى شخص يمثّل مرآة لترى فيه ما تريد. هل تعلم أصلاً ما تريد؟ هاه؟ هل تعلم؟ يجب أن تعلم، لست في حاجة إلى شخص مثلي، وأنا لست في حاجة إلى شخص مثلك. ستظلّ الحياة تتكون وتتشكّل وستظل الطبيعة تتبدل وتتطور. سيختلط ما كان قبْل وما كان بعد لأن القَبْل كان بعْد نقطةٍ ما ولأن البَعْد سيكون قبل نقطةٍ ما. وهكذا يسير الخط الذي يسمّى الحياة نحو فراغ لاغائيٍّ مطلق.

يرتفع صوته تدريجياً بعصبية مندفعة.

- وهكذا كل شيء يتحرّك. كل شيء لا يقف. كل شيء يتجدد. حينما لا تمارس شيئاً فأنت في الحقيقة تمارس اللاشيء، حينما لا تبحث عن أحد فأنت تبحث عن اللاأحد، الحياة حركة حتى في لحظات السكون والتوقف، لحظات الانتظار اللعينة التي تقضيها في برزخ ما. أنا متعب، هل تسمعني؟ أنا متعب.

اقترب من ضاري وهو يطعن صدره بسبابته بتحدٍّ عنيف:

- أنا لست مستعداً لأعلق معك في أبدية ما. أنت لوحدك. أنت انعكاس نفسك. لا تفكر باستدعائي مرة أخرى، لقد انتهينا.

ثم استدار ومضى في شارع ما حتى اختفى في امتداده. ظلّ

ضاري واقفاً بذهول متحجِّر، السرعة التي يتحرك بها كلّ عصب فيه يرفع حدّة الدوار الضبابي، المكان يميد متشابكاً مترنحاً، الضوء يسطع في هدأة السكون المحتقنة بالتوتر، عيناه تطرفان بسرعةِ مَن يوشك على الإغماء. استدار بسرعة وأخذ يركض نحو البوابة المفتوحة، يقطع غشاوة الضوء المهجور، يتذكر أنه أحسَّ بشعور الدوار من قبل، ولكنه لا يدرك متى أو كيف، يركض وهو يحاول أن يدرك أين هو الآن، ما الذي حدث، هل هو نائم. ولكنه لا يستطيع، يخرج من المدينة، يقطع الجسر الترابي، يقف في مكان المبيت حيث ينام إبراهيم. الدوار يتلاشى ببطء، يتطلع في المدينة فلا يتذكر ما الذي حدث، يهمس بخفوت «هل ذهبت إلى هناك؟ هل فعلاً ذهبت؟». جلس بترقُّب، أحسَّ بنعاسٍ مرهقٍ، غفا قليلاً واستيقظ بشيء من الاسترخاء. الفجر يتمطى في الأفق البعيد، الماء يتنفس في يقظة الكون الصباحية. يشعر بارتياح أكثر، يفكر أنه كان يحلم، ولكنه لا يتذكر بماذا بالضبط، كل ما يتذكره هو أنه شعر بالدوار. هذا لا يهم، المهم أنه لا يريد الجلوس هنا، يقظةٌ مرتبكة تحوم بقلق في داخله. أيقظ إبراهيم بارتباك متسرع، يلاحظ الجسر الترابي الصغير الذي نبت بين حافتي الوادي باستنكار. يكرر بغرابة:

- هيا لنذهب. يجب ألا نتوقف. يجب أن نتحرك. الحياة حركة دائماً. دائماً. حتى في لحظات التوقف.

يحمل إبراهيم الأغراض فوق الخيل وهو يتطلع بوالده باستغراب.

- هل أنت بخير؟

- هاه؟ طبعاً أنا بخير. هيا.

صعدا المنحدر بحذر، قطفا عدداً من الثمار والفواكه والعشب لهما وللخيل، ثم جمعها ضاري في أحد اللحافين.

* * *

بدا مطرقاً، يحدِّق في الفراغ بشرود مفرغ. دخّن سيجارتين في ليلة واحدة، بين أشجار منغروف عارية، لم يبقَ سوى عشر سيجارات فقط. يسأله إبراهيم عن الاتجاه الصحيح، فيكتفي ضاري بأن يستنشق رائحة التبغ الثقيلة، تمخر بدخانها الكثيف كصورة حُلُمية.

الحرة البركانية بين مأرب وصرواح تمتد بمخاريط الحجر البركاني والصخور الرسوبية، يسأله إبراهيم عنها فيهزّ كتفيه بِحَيرة لامبالية. الشمس ترقص بقسوة فوق هامة رأسه، تطرد الهواء البارد الذي ظلّ عالقاً في جلديهما. مالَ نحو جنوب الغرب، يحدِّق في ورقة حساب الزمن باستنكار، القصات الموجودة أقلّ بكثير ممّا يظن. ظلّ يحدق فيها طوال اليوم، يعيدها إلى جيبه ثم يخرجها من جديد. سأل إبراهيم وهما يجلسان أمام النار:

- كم يوم مرّ منذ أن تركنا السيارة؟

رفع إبراهيم رأسه بشرود، يمضغ تفاحة قطفها من مأرب، تستقر فوق جلده طبقة كالنحاس من أثر انعكاس الشمس. يفكِّر بقوة فيشعر بعجز مستفزّ:

- لا أذكر تحديداً. شهران؟

عاد ضاري للتحديق في الورقة، شعور غريب بالغموض الموحش، الزمنْ كخطّ في الرمل الزاحف أثناء يوم عاصف. همس وكأنه يحادث نفسه:

- يستحيل أن تكون هذه فقط.

أنفاس ابنه الثقيلة تتردَّد برتابة، الفجر فوقهما يترنح بخفَّة. شعر برغبة كئيبة في المشي. مشى بعينين ناعستين، مخلِّفاً هسهسة النار المنطفئة وآثار مبيته الهامدة. السهل منبسط بزرع أصفر كسيقان القمح المجزوز، تتوزع فيه أشجار دم العنقاء النادرة بأغصانها الكثيفة المعقوفة كخطوط الحجر المتخشب. السماء حفلة هادئة من الألوان، الوهج المتورد في الأفق القرمزي يسبق الشمس المطلة برأسها، الصفرة القانية كحبر ثقيل يتخضب في سحب متموِّجة كالزبد، وكأن الأفق يحترق دائماً مرتين في اليوم، رقعة من ألوان تشتبك بالصحراء في آخر المدى، حيث يبدو وكأنّ كل شيء يلتقي هناك، في تلك النقطة الأبدية التي تتوسع كلما اقتربت منها كالسراب. نسيم الصبا الهادئ يتألق في أنفاسه، يطبطب بحنوٍّ على جلده النحاسي، السكون الرفيع في ألقِ عزلةٍ هامدة، حيث لا شيء يتحرك، لا شيء يحدث. «نعم هذا هو اللاشيء، هذه حركته» فكَّر وهو يتذكر حديث انعكاسه بتأثر. عينه اليمنى تطفح بقطرة ماء منهكة. تذكَّر حلم يقظته حينما كان يخنقه الزحام، أن يجد نفسه في مكان لا حدود لمداه، مكان غامض بلا اسم أو لغة، بلا أضواء معلقة وأزقة إسمنتية. يتطلّع بتأثُّر حجري كئيب، عينه اليسرى تطفح أيضاً بغشاء مائي رطب، يلمع في انعكاس الضوء.

خرج من وراء ثكنة أشجار وأجمات في المدى الأيمن أسد يجرّ غزالاً، يسحب جثته برقبته المبقورة، دمه القاتم يتخثر كالطين اللزج، يرمش بعينيه، وكأنه يحاول فهم ما حدث قبل أن ينطفئ. لم يتحرك ضاري، تفصل بينهما عدة أمتار. وقف الأسد فجأة، تطلع

فيه بفمٍ ملطّخ بالدم وعينان رتيبتان، يحدِّقان في بعضهما تحت لوحة الألوانٍ، الوهج الاحتفالي الذي ينعكس على الرمل. يحدقان بهدوء متحجر، كشخصين مرهقين، لا يملكان رفاهية العداء المفاجئ. ولذا عاد الأسد ليجر فريسته ببطء رتيب، يراقبه ضاري حتى اختفى في المدى وراء الشجر.

شمس الظهيرة تصطلي في تنور الصحراء. اقتربا من شبوة القديمة، عاصمة مملكة حضرموت، ترتفع عثورة الغبار كعباءة تتقلّدها المدينة المسوّرة. كان شمر يهرعش الحميري، مؤسس مملكة حمير، قد وكّل أتباعه من قبائل كندة ومذحج وأعراب حمير باستعادة المدينة بعد أن ثارت على السرية التي خلفها شمر، وإجهاض أي محاولة استقلال تابعة لتلك التي قام بها الحضرموتي يدعئيل بن رب شمس على حكم السبئيين. وبالتالي انضمام حضرموت نهائياً إلى حكم حمير، مملكة «اليمن السعيدة» الجديدة.

وقف ضاري بعيداً عنها، لم يكن ثمة حاجة إلى أن يعلم ما يحدث، شبح الموت يبدو قابعاً في غلالة الغبار المتناثرة كنذير شؤم. يحدِّق بكآبة يائسة، أعرابيٌّ المظهر المتنقل بين فجوات الزمن، يلمح الأجل في كلّ بقعة كوسوسة خافتة، تنكشف بوضوح أكثر ورطة الموقف، حتى بدت ذكرياته القديمة في المجمعة كخيوط الدخان التي ينفثها: وجود مهدَّد بالتلاشي، بيته ومزرعته ومكان عمله وسيارته وأصدقاؤه وزحام ليلة الخميس وخواء فجر الجمعة، خطوط دخان متداخلة. الذاكرة تندرس فعلاً؟ فكَّر برعب فوق خيله. يتشبث إبراهيم بكآبة في طرف ثوبه، يكاد يشعر برعب نظرات ابنه تمرّ بجانبه نحو بقعة الغبار الشبحية. متى تبدأ في التخلص من شعور الخوف؟

متى تبدأ الاعتياد عليه؟ متى تكتشف حقيقة ما يحدث من حولك؟ سأل نفسه وهو يشعر بنغزة تأنيب الضمير تجاه ابنه، والشفقة المستسلمة تجاه نفسه، تترنح في غمرة الإنهاك والتعب والضياع، حتى تكاد تختفي، فيبدو ابنه كما يبدو هو لنفسه: مجرد وجود دخاني مهدَّد بالتلاشي، تكاد تهفهما الريح فيختفيان، ككل شيء حولهما. لكز خيله ومضى في طريقه، مخلفاً عُثورة الغبار من ورائه، تختلط بعثورة غبار الموت في شبوة، دون أن ينبس أحدهما بكلمة. يجلسان في الظلمة الباردة في أرض لا حطب فيها، بين العناكب السوداء الصغيرة وعواء الذئاب البعيدة، يغرقان في سواد شبحي يتدثّر بالصمت، ينعق فوقه إحساس رتيب من الأسى، يتآكل رويداً ليندرس كغيره في بلادة الزمن اللامحدَّد. يقول إبراهيم وكأنه يحادث نفسه:

- إنني آسف لكل وجبة طعام رفضتها.

يلتفت ضاري نحوه، كلاهما شبح في الظلام، كلاهما ينبش في ذاكرته قبل أن تتفتت.

- وأنا أيضاً.

* * *

الجبال تتكرَّر بقننها الصخرية البارزة، تجابه الريح فتذر أثراً متعرِّياً على وجهها. السهول تتكرر بأشجار الأراك وغابات النخيل وأجمات اللبان ونباتات البخور والمر، تخدشه فتخرج عصارته الصمغية متجمدة. الهضاب والتلال تتكرر، بالحصى الصغير المدبب وأشواك الحاذ الكئيبة. الوديان الموحشة تتكرر، بمجاريها المخدَّدة الجافة بأثر منطفئ للتربة الصلصالية. المدى الفارغ في خوائه يتكرر. جثث الحيوانات النافقة المندفنة في التراب كصخور عظمية عتيقة،

فحيح الأفاعي وعواء الذئاب التي تجوب الفَلَوات متوجِّسة من النار. كل شيء يتكرَّر كشروق شمس رتيب في صيفٍ أبدي لا غيوم فيه.

حلم إبراهيم بأمه، تسقي شجر الحديقة، امرأة بشعر أسود قاتم وعينين واسعتين بحدقتين بنيتين وأنف دقيق وجبين واسعة. لا تبدو شبيهة بما يتذكره، رغم أنه ما زال غير قادر على تذكُّر ملامحها بوضوح. ذاكرة اللاوعي الحلمية تصطدم بذاكرة الوعي المشوّشة: بأيّهما يجب أن يثق؟ لطالما أحسّ بغرابة تجاه أمه، امرأة بأجندات فكرية معقدة وشاعرية غريبة، يحبها كثيراً كما يحبّ أي فتى أمه، ولكنه لا يجدها تتفق مع طبيعته الحادة ذات الخط المباشر. أفاق مثقلاً بشكٍّ كئيب، يشعر وكأنه يفقد جزءاً من نفسه إذ يفقد جزءاً من ذاكرته، وكأنّ أمه لا تتجاوز كونها رمزاً لفقدٍ ما. يحدِّق في الصحراء بعداء متحجِّر: المكان الذي يفقد الناس فيه عقولهم، فيبحثون عن شيء لا يمكن القبض عليه.

دخلا وادي دوعن من جهته اليسرى، مقفرٌ بمجرى سيله المتيبِّس، الجبال الصخرية التي نحتتها رياح التعرية تحدِّق فيهما، يتسع حيناً فيبدو طريقاً محفوفاً بالجبال كالمتاريس، ويضيق حيناً فيبدو وكأنه يستعدّ لأن يطبق عليهما بدفَّتيه. يرفع إبراهيم رأسه ليحدِّق في القنن المنحوتة، تسبح خطوط الوضوء على حوافها الصخرية، كوجه شيخ هرم يعود إلى أصله فيشبه الأرض.

وقف ضاري فأنزل إبراهيم رأسه، يستقر أمامهما «حيد الجزيل»، حصنٌ مهجور من دولة مشائخ آل عمودي الحضرموتية. تلٌّ صغير ملتصق بجبل صخري، عليه عدة صخور هائلة ككتل مقسمة من الجرانيت، لا تستطيع الوصول إلى سطحه إلّا من جهة واحدة فقط،

تستقرّ فوقها بيوتٍ مبنية من الطين الذي يكاد يكون مطابقاً للصخور تحتها، حتى يبدو وكأن الصخر أنجب بيوتاً صغيرة. وقفا يحملقان بوجوم ذاهل، لم يشاهد أي منهما شيئاً كهذا من قبل، البيوت تبدو كأثر شبحي لا حياة فيه. ولكن الإرهاق يورِث شيئاً من اللامبالاة، التأثّر لا يتجاوز موقفه كانفعال عقلي. قال إبراهيم أخيراً:

- هل نحاول الصعود؟

التفت ضاري نحوه ببطء مرهق:

- إنه مكان بُني لئلّا يستطيع أكثر الناس الصعود إليه.

الضوء الأحمر لغسق الغروب ينسحب بجمال فوق الصخر، يقفان بنظرة بليدة معلقة، وكأن شيئاً ما في المشهد يوقظ انتباهة خاملة لذيذة. سيحلّ الظلام قريباً، ستبدو هذه البيوت كغيرها هنا، مأوى للخفافيش ونقطة من السواد. يفكّر ضاري في بيته ومزرعته، هل ستكون يوماً ما شبيهة بهذا؟ أثرٌ منطفئ لحياة غابرة؟ شعر بمقتٍ معاكس لما يشعُر به من حنين اعتباطي، التفكير المستمر بما كان وما سيكون، الافتراضات الحالمة التي تظن أنها لا تزال تمتلك رفاهيةَ تكرار نفسها دائماً. همس وهو يجرّ لجام الخيل:

- لن نجد أصلاً شيئاً هناك.

يتهادى برتابة فوق ظهر الخيل، يشعر ببيوت الصخر تحدّق في مؤخرة رأسه، رقبة ابنه الملتوية وهو يبادلها التحديق بجسارة. ثمة فكرة طفيفة تنخر في لاوعيه: كل شيء متشابه، حتى وإنِ اختلف.

لظى الشمس يرقص فوق هامته. كم يوماً مرّ منذ أن تجاوزا الوادي بالبيوت الصخرية؟ يفكّر ضاري بقوة فلا يستطيع تحديد ذلك، الورقة تقول شيئاً غير ما يشعر به، الزمن دخانٌ تبغيّ متلاشي.

الصحراء لا تزال تبدو لإبراهيم عدوّاً قبيحاً. يفكر «هل يرى البدويُّ الحقيقي الصحراءَ جميلة؟» الصحراء التي تعذِّبه بعطشها وقسوتها وشظف العيش فيها؟ لا يعلم، لأنه لم يقابل بدوياً يعيش في الصحراء، لا أحد يعيش في الصحراء، لقد أضحت مكاناً مهجوراً يستوطنه الخواء والوحشة والوقت. حتى القصص التي وُلدت في أعماقها وعاشت زمناً، قد انتقلت إلى المدن، تضجّ في الكتب والمسلسلات التلفزيونية وحكايات السهرات الطويلة داخل بيوت الضوء الكهربائي. يدرك أن الصحراء فارسٌ عظيم ملأ الدنيا صخباً، رُميت جثّته بعد موته في قبرٍ سحيق يُزار في الأعياد، وعاشت قصصه اللامنتهية خارج جسده، بعيداً عنه. ولكنه يسير، يواصل السير بجانب والده، يحدق في المدى الفوتوغرافي: فتى نصف بدوي، يبحث عن نصفه الناقص، ويكره الصحراء.

صاد ضاري أرنباً بحفرةِ فخّ حفرها ووضع فيها جزرة كطُعم، ثم غطاها بالحشائش. جلسا بعيداً عنها بوجومٍ مترقّب، أكثر لحظة مثيرة تحدُث منذ زمن بعيد، فكم مرّة سيلتقيان بكائن شارد في هذا الخواء؟ سقط الأرنب فضحكا بنشوة تكشف الأسنان التي بدأت تغطيها صفرة الجير. أكلا جزءاً منه بجانب شجيرات أراك كثيفة، ينطفئ شعور اللحظة المثيرة ليُخلِّف إحساساً بالشفقة: إلى أي درجة أصبحت الحياة بليدة؟ يشعران بذلك دون أن يصرِّحا، بل دون أن يدركا، إنه شعور آخر ينخر في اللاوعي: الحياة كما يعرفانها معلقة في «الآتي» الذي يظلّ يواصل الهروب، ولذا لا حياة في «الآن» أكثر من إثارة سخيفة في صيد أرنب لعين. «إننا عالقان» همس ضاري في نفسه وهو يستلقي محدِّقاً في ستارة السماء المرقّعة بالضوء.

ولكن الزمن يحرق الأسى والإثارة. أثرٌ منطفئ لحركة غابرة.

وقفا أمام بئر بَرَهوت في الوادي القاحل، بفوهة بركانية يتجاوز قطرها 25 متراً، يغيب عمقها في ظلمة دامسة. يُقال أنَّ في قعره تقطن أرواح المعذبين في جهنم، ويُقال إنها سجون بناها الجنّ، ويُقال أن كثيراً من القصص المرعبة تحدثُ هنا. يقفان على الحافة الموحشة تحت الشمس، فلا يريان شيئاً.

- ما هذا؟

قال إبراهيم بتردُّد. أطرق ضاري بخمول، قال وهو يعود إلى الخيل:

- مجرد حفرة في الأرض.

الريح المستبردة تشتت حُرقة الشمس، رمل جنوب صحراء الأحقاف يسطو على الأرض. اختبآ تحت صخرة هائلة محدودبة تتكئ على صخرة أخرى كالغار، أطراف الأحقاف تفور بعاصفة سوداء كالعمى، التراب يندفع بحراً متموِّجاً هائجاً، يكاد يجرف في طريقه كل شيء، يقتلع أشواك السعدان والثمام ككُور تتقاذفها الريح. غطى ضاري وجه الخيل ليمنع التراب عن عينيه، يتلفّعان بلحافهما، يغطيان بقوة وجهيهما، يجلسان على متاعهما. لا حركة سوى صفير العاصفة وحبيبات الرمل، تدخل الفم عنوة، تبني جداراً في الأنف، تكاد تقتحم الحدقة المغلقِ عليها، تبني حول الصخرة أسواراً تتجمع كالموت، الخيل يصهل برعب وهو يحاول الفكاك من لجامه. نامت العاصفة أخيراً مع الشمس. التراب دفنَ أقدامهما، يستطعمانه في الماء، ينفضانه من فتحات الأذن والأنف، يشعران به في أقصى الحلق. الثمر المقطوف والخبز اليابس ينحدر في البطن المكدّس

بالتراب. الصحراء لا تكتفي بأن تصبغ ظاهر الجلد، ولكنها تقتحم الجوف. «ربما بداعي الحب» فكّر ضاري بابتسامة كخطٍّ مائل، يقف محدِّقاً بنظرة ذاهلة في المدى: إلى أين ذهبت جيوش الرمل تلك؟ لقد اختفت دون أثر، ودفنت في طريقها أثر ما كان قبلها.

يتوقف دائماً ليتطلّع في الغروب، كرة الشمس البرتقالية فوق كثبان الرمل، تتوهج في غسق غيميّ متورد يملأ الأفق، وتصبغ حمرتَها الصفراء على بساط التراب. لا يريد أن يتوقف، يريد أن يعامل الصحراء كعدو، ولكنها عدو لعين يضجّ بالشعر، كقيدٍ في معصم الروح، ولذا يتوقف. يتوقف إبراهيم بجانبه، لا يفهم لماذا يحدّق والده في الغروب، بكلّ هذا الحزن الشغوف.

- تحدق في ماذا؟

ولكن ضاري لا يرد، منوم في شرود انتباهته الشاعرية. يتطلع إبراهيم فيه بوجوم، يفكر أن كل هذا الشعر هراء، كل هذا الجمال فخّ، طريقة الحياة في اكتساب عاطفتك، ثم سحقك بما انخدعت به.

المطر الذي يسقط بحبات مقعّرة كالفناجين، التلال الهامدة كالرؤوس المتطاولة، الغيوم التي تتشكل على هيآت غريبة، العشب الذي تكتنز به المسطحات الخضراء الطويلة، الصواعق وعواصف الرمل التي يختبئان منها في تجويفات الجبال والمغارات بين الصخور. الزمن يترنح بغموضه، تجترُّ أيامه بشكٍّ مستفز. قفر السهول الممتدة في رثاثة الجدب، الجبال الصخرية المنحوتة بقننها القرمزية، غاباتُ الأشجار الباسقة التي تبتلعها فَلَوات القحط، التضاريس التي تتبدّل مختلفة عن سابقتها، محيط دائري يكرر نفسه.

يتحدثان بكلمات شاردة أقل في كل ليلة، لا شيء يستحقّ القول. الصمت يتوسّع ببلادة رتيبة.

كاد الخيل أن ينفق لولا أن وجدوا مرعى وافراً بحشائش العضيد والنفل، جلسوا بجانبه عدة أيام حتى تعافى، مضى بصعوبة وهو يصهل بألم فراقٍ غامض لا يفهمه. الجبال الخضراء كجنان معلقة، نسيم الصبا اللطيف مرقَّق برطوبة الزرع ونباتات الحثرة والحوذان، أشجار التين والمانجو التي تتدلى عناقيدها برتابة لذيذة وكأنها تنتظر أحداً ليقطفها، تبدو وكأن شخصاً ما زرعها ثم اختفى، تُزهر وحيدة منذ دهر. أعشاش الطيور الدافئة بالبيض الداجن الذي ينتظر الفقس، يسرقه ضاري لِيلْتهما أبناء حمامة غفلت عن بيتها لحظة. «شبكة» الصيد التي شكَّلها من قطعة اللحاف وعيدان حطب الحور، وأداة «المفقاس» التي صنعها من جريد النخل وحبل مترهل وجده مربوطاً في شجرة شاردة، والفخاخ التي يحفرها مغطاة بالحشائش، صاد بهن عدداً من طيور الدخل والشاهين والشرياص والأرانب.

المطر المتقطع الذي يملأ القِرب ويغسل قذارة جسديهما ويدعك قروحهما ويزرع مسطحات الزرع الأخضر على امتداد المدى، ثم السهول المجدبة كالجلد المتجدّر والصحراء الجبلية والقفر المتيبس.

يحدقان في وجهيهما بنظرة اعتياد يختبئ خلفها استنكار ضعيف: لمن هذا الوجه؟ حتماً ليس له. الثياب تهترئ، تنحل كجلديهما بشقوق صغيرة. جاكيتة ضاري اختفت ذات صباح، طارت مع الريح. الخيل يترنح بقوائمه المتعبة، يسير في طريق الموت لا

محالة، فيتوقفان أياماً، يسيران مشياً، ثم خبباً، ثم يتوقفان. . . إلخ، تكرار منوم تذوب فيه التفاصيل، كتلة جامدة من الحدوث، وكأن اليوم ورقة تقويم تُمزق فينقضي اليوم، ببلادة مكررة لا ملامح فيها.

يحدق ضاري أمامه كأعرابي لفَظَته الأرض بلحيته المنسدلة وشعره الناعم: لا حياة تبدو في المدى، لا يعرف أحد منهما كم يوماً مضى، تجاوزا الرمل منذ مدة طويلة. الطريق أطول من الكلام، أثقل من الذاكرة، ولذا يفرض وجوده بقسوة لامبالية، ينغمسان في رتابته المطلقة فيختفي كل شيء عداه.

يتطلع ضاري في السواد أمامه، يتخلله ضوء متلألئ للقمر. لم يجدا حطباً يشعلان به النار، ولذا انغمسا في الظلمة الباهتة، أكلا حبات تين صغيرة من شجرة الحماط قطفاه قبل أيام، بدأت قشرته في التعفن. يتّقيان الريح خلف أشجار القرض الكثيفة، لا أحد منهما يستطيع رؤية الآخر، وإنما شبح جسده بجانبه. لحية ضاري الناعمة تخشوشن، تزداد خيوط البياض فيها. لم يشعر برغبة في تدخين سيجارة، يجلس متربعاً غارقاً في الظلمة. لم يشعر برغبة في النوم أيضاً، يريد أن يتذكّر، دون أن يعرف بالضبط ماذا يريد أن يتذكر. رائحة التبغ ترتبط بذاكرته، ولكنه يشكّ فيها: هل هي فعلاً ذاكرته؟ ثمة تفاصيل تثير الريبة، لا يعلم إن كانت حدثت فعلاً أم أنه يتخيلها: أين تتوقف الذاكرة ويبدأ الخيال؟ ليلة زواجه في ساحة بيتهم بخيوط ضوء معلقة بين الجدارين، وأحضان دافئة لأشخاص يفرحون له بصدق. المرة الأولى التي شاهد فيها الغسق المتورد في الصحراء، أثناء «كشتة» غداء مع والده وعمه في مراهقته. النهار الذي أعقب دفن والده وهو يقف في المزرعة التي أصبحت له،

مطعوناً بفقدان الرجل الذي علَّمه كل شيء في الحياة. المرة الأولى التي أكل فيها الكرز فانتثرت عصارتها على شفتيه، حينما ذهب في شبابه لزيارة مزرعة صديق في مكة. المرة الأولى حينما جرب الجلوس في المزرعة ثلاثة أسابيع، منعزلاً عن كل ضجيج يحاول أن يطرق بابه دون بطاقة دعوة. المرة الأخيرة التي رأى المجمعة في مرآة سيارته الخلفية، تبتعد برتابة كنقطة رمادية معلقة في المدى، ثم اختفت. هل هي ذكرياته فعلاً؟ يحدِّق في الظلمة الداكنة، رمى ساعديه على ركبتيه المتربعتين. نُدف من الحزن الغامض تتساقط في عينيه، فتسحب أثر ماء يتعلق في المحجر. يداهمه النوم وهو يتذكر، فيغمض عينيه بإعياءٍ مستسلمٍ، تختلط تفاصيل ذكرياته بحلم عشوائي متداخل. يقوم على خيوط الفجر تزحف فوق وجهه، كل ما تذكره البارحة مشوه بالحلم، مشوه بالتفاصيل المشبوهة. لا يثق فيها.

يسيران أمام الخيل، يُعفيانه من أن يتحمل ثقلهما عدة ساعات. لم يعُد إبراهيم يتطلع بوالده كثيراً بطرف عينه، عاجزاً عن ابتكار شيء يستحقّ أن يُقال. ستتعب من التطلع بالشخص نفسه لمدة طويلة، دون أن يحدث شيء جديد. ولذا يسيران بعينين مثبتتين في البُعد المفرغ.

* * *

الشمس تنحدر في الشفق، يلوح أمامهما تلّ بأشجار طلح متلاصقة. سارا نحوه بصمت متفاهم، دخلا بوجوم تزحف فيه خشخشة الحشائش تحت حافر الخيل، الظلمة الداكنة قد صبغت الأبعاد. سمع ضاري صوت حركة قريبة، لاحظ ضوء نار يتغطى بين الغصون أمامه، تبعه صوتٌ من مسافة مترين، رجلان يقفان أمام

الخيل، يمدان سهامهما نحوه، يكشفهما الضوء الباهت وراء الشجرة. رفع يديه ببطء متصلب، كم مضى منذ أن شاهد بشراً؟ هذه أول فكرة مرت به. تمتم بهدوء شديد:

- ارفع يديك.

فرفع إبراهيم يديه بجزع. جنديان أزديان في مجموعة مكونة من خمسة أشخاص، الثلاثة الآخرون يتحلقون حول النار، أتباع الملك مالك بن فهم، الرجل الذي هاجر من اليمن بعد انهيار سد مأرب إلى عمان، حيث هزم الفرس الذين استوطنوها، ومضى ليؤسس مملكة تنوخ على ساحل الخليج. خرجوا قبل أيام من مدينة الجوف اليمنية، حيث يستقرّ مالك، للتلصُّص على استعدادات الفرس الذين زحفوا من صحار، واستقروا في صحراء سلوت. جلسوا ليلتين علموا فيها نظام الحراسة وعدد الجنود وكل ما يمكن معرفته، أرسلوا واحداً منهم إلى الجوف وعادوا نصف الطريق، في منتصف عمان، ينتظرون قدوم مالك مع ثمانية آلاف مقاتل فقط، لقتال جيش من الفرس يفوق أربعين ألف جندي، في معركة سلوت العظيمة.

أنزلا ضاري وإبراهيم من على ظهر الخيل، تعلو وجوههم علامات استنكار للرائحة العفنة. مضيا وراءهما حتى دخلا بؤرة ضوء النار، حيث يقف الجنود الثلاثة الآخرون. قال قائدهم بصوت فخم:

- من أنتم؟

يتحدث بالعربية الجنوبية القديمة، ولذا لم يفهم ضاري شيئاً. ظلّ يرفع يديه بحذر، هزّ رأسه وهو يقول بكلمات تغيب في ريقه المزدرد:

- نحن تائهان. كنا...

- الى أين تريد الذهاب؟

- أنا. لا أفهم شيئاً.

حدَّق القائد في ملابسهما الغريبة، الثوب الطويل والشماغ الأحمر، النتانة البدائية لرجل يعيش في هامش الصحراء، لا يبدو منتمياً إلى قضية سياسية. أطرق الجميع بصمت مترقب، ما زال ضاري يرفع يديه بشكل أحمق، يحدق بذهول مرتبك. لوَّح قائدهم بيده برتابة، يطالبه أن ينزل يديه، فأنزلهما ضاري ببطء، وقلّده إبراهيم الذي يقف بجانبه. ظلَّ يحدق فيهما بصمت ثقيل، رجل هادئ بلحية بيضاء مجزوزة، ينبعث من قسمات وجهه المتحجرة غموض يشحذ التوتر، تلمع في جبينه تغضنات كهضاب رملية، يلبس حزاماً جلدياً في حافته معدن من حديد يشحذ فيه خنجره الملقى بارتياح على الأرض. أحد الجنود يفتش الخيل، يضحك مع الثلاثة الآخرين على اللحاف المكدَّس بالثمر والعشب والبيض والحشائش، القائد وحده يحملق في ضاري وإبراهيم، بانتباه مركّز لا يبالي بسواهما. همّ أحدهم بإخراج حبل من سرجه ليقيدهما، ولكنه منعه بكلمة واحدة. اقترب منهما، أشار لهما بالجلوس فجلسا أمام النار، ولكن بمسافة أبعد من الآخرين.

ظلا متلاصقين بحذرٍ متوجس، أراد إبراهيم أن يسأل والده ولكن ضاري رمقه بنظرة حادة، تأمره بالصمت. يتحلق الخمسة حول النار، يتضاحكون تارة ويلوحون بأصابعهم غضباً تارة أخرى، غير منتبهين لهما، أدركوا أن هذا الرجل مجرد عابر سبيل مع فتاه، ولكنهم لن يخاطروا بتركه لئلا يبلغ أحداً في الطريق، سيتحفظون عليه حتى يصل غداً مالك بجيشه.

قائدهم يجلس على يمين ضاري. لاحظ يد إبراهيم التي تتشبث بركبة والده، متلاصقان بنظراتِ ترقبٍ متوتر. أخذ وعاء فيه أرز مطحون كالعصيد، ومدّه لهما مع قربة من الماء. أطرق ضاري بشك حتى هزّ الرجل الوعاء بحدّة:

- لو كنتُ أريد قتلك فلن أفعل ذلك بتسميمك.

ضحك الجميع بترقُّب. تلقف ضاري الوعاء بعد تردد، وطفقا يأكلان ويشربان ببطء وحذر.

- كن مستعداً.

همس بصوت لا يكاد يُسمع. حدّق إبراهيم بجزع في وجه والده، ينعكس على بشرته المتلفعة بالتراب ضوء النار الأصفر. الوعاءان الفارغان أمامهما، السهام والسيوف التي تستقر بجانب الجنود، النظرات الهادئة التي يرميها القائد نحوهما بين فينة وأخرى.

سمعوا فجأة خربشة تتسرب من الجهة الشمالية بعدة أمتار. وقبل أن يقوم جنديان للاستطلاع؛ اقتحم المكان ثلاثة رجال بثياب متَّسخة وخرق حمراء تغطي نصف وجوههم، يحمل كل واحد منهم على ظهره بُندقية بساق خشبية.

قفز الأزديون موجِّهين سهامهم، فأشهر الأعرابيون بنادقهم بغريزة خاطفة، وأخذ الجميع يصرخ في الطرف الآخر، بذهول عدائي أمام موقف لا يفهمه أي منهما. قفز ضاري سريعاً ليقف أمام الطرفين، أي مذبحة ستحدث لا بد أن تؤدي إلى مقتله ومقتل ابنه، ولذا أخذ يمد يديه مطالباً بالهدوء. التفت إلى الأعراب الثلاثة وقد لاحظ شمغهم، سألهم:

- من أنتم؟

حدق أحدهم فيه بذهول، ثم قال مستجمعاً جأشه:

- إننا رسلٌ تابعون لدولة عبد العزيز آل سعود إلى حاكم عمان. مَن هؤلاء عليك اللعنة؟

لاحظ قائد الأزديين التشابه بينهما في اللغة واللبس، فصرخ بأن هذا الدخيل يعرف هؤلاء الثلاثة، التفت ضاري نحوه وقد استكشف الكارثة. ركض نحو الأعراب الثلاثة صارخاً وهو يجر ابنه ويغطي رأسه بيده:

- اهربوا اهربوا.

انطلقت السهام والبنادق فأصابت ثلاثة من الأزديين واثنين من الأعراب. هرب الثالث متجهاً إلى فرسه المربوط في شجرة عند مطلع السهل، لحق بضاري وأمسكه من تلابيبه وهما يركضان:

- من هؤلاء؟ لقد قتلوهم. هل أنت معهم أيها الشيطان؟ سأقتلك بحق الله، سأقتلك. هل أنت معهم؟

ولكن ضاري تخلص منه:

- اهرب ثم تكلّم لاحقاً. وإلا سنلحق بربعك.

صعد الأعرابي فوق فرسه، فتشبث به ضاري وتشبث به ابنه من خلفه، وانطلق الثلاثة فوق ظهر الفرس كالبرق. حتى تلاشى غبش الضجيج وراءهما، ولم يبقَ سوى الظلام ورجيع الأنفاس اللاهثة.

توقف فجأة ودفع ضاري إلى الخلف، فسقط عن الخيل. وجَّه بندقيته إليه فأخذ يزحف إلى الخلف وهو يغرس أظفاره في الأرض برعب. قال الأعرابي بوحشية:

- تكلم. وإلا لن أتحسف على الرصاصة التي ستنسف رأسك أنت وابنك.

قال بسرعة:

- لقد اختطفوني يا رجل. ألا تراهم؟ إنهم لا يشبهوننا في شيء.

- من هم؟ هل هم تبع الخواجة؟ هل أرسلتهم بريطانيا؟

حاول إبراهيم الإمساك بالأعرابي ولكنه دفعه إلى الخلف، فصرخ ضاري:

- أي خواجة يا رجل. إنهم قوم من زمن مختلف.

جلسوا بصمت موحش أمام ألسنة النار، ينبعث دفء جحيمها في زمهرير جسديهما. لم يتفوه الأعرابي بكلمة، ظلّ يحدق في النار بعينٍ متوثبة وفي ضاري وابنه بعينه الأخرى، تلمع الحدقة في انعكاس النار، متشبثاً ببندقيته، يبدو أصغر بكثير من الوحشية التي يحاول أن يخيف بها ضاري، شاب لا يتجاوز العشرين من عمره رغم صلافة وجهه المتحجر، الجراب الذي يضع فيه مديته فارغ من مديته التي سقطت، فتح عدة ثقوب جديدة في حزامه ليضيق على بطنه الذي يزداد هزالاً، حتى يبدو تجويف معدته كخفس في الأرض، عظمة جفنه تبدو بارزة فوق انكماش خده، شاربه الكثّ يكاد يغطي شفتيه المقددتين. هل صدق ما قاله؟ لم يبالِ ضاري بذلك، المهم أنهما يتنفسان. ظلّ ينكُت في الأرض بعود غصن منكسر، يضع يده على ساعد ابنه الذي انزوى كالسلحفاة، يبحث عن فرص نجاتهما فيجد أنها أضعف من أن تحتمل ثقل الأمل، لقد خسر الخيل وقرب الماء وكل شيء.

رفع الأعرابي رأسه فجأة، حدق فيه بوحشية مسرحية وهو يستعد للاستلقاء في دفء بشته متشبثاً ببندقيته:

- سأذهب بك لشيخنا، وهو يتعامل معك.

ثم رفع سبابته تحت عينه اليمنى:

- ليس معي حبل أربطكما به، ولكن هذه ستراقبكما. لو خرج نفس شارد منكما فستأتي مكانه رصاصة. هل تفهمان؟

شعر ضاري برغبة في كسر عنقه، ولكنه هزّ رأسه بطواعية منكسة. أخرج علبة الدخان، ثمان سيجارات فقط، أشعل واحدة بحذر وقد أولى ظهره للأعرابي النائم وابنه المستلقي بجانبه، ينفث الدخان في الفراغ المتسربل بالظلمة، في اتجاه لا يفضح الرائحة. من يبالي بأن ينتزع الذكريات الحقيقية من افتعال الخيال؟ المهم أن تملك مكاناً تهرب إليه، مكان خاص بك، تشعر فيه بأنك كنت في يوم ما، قبل كل هذا. ولذا يستنشق التبغ بانجراف حلمي، ويتطلع في خيوطه.

همس إبراهيم بحذر:

- يبه هل سيقتلنا هذا المجنون؟

انتبه كاليقظة ببطء.

- إنه خائف بقدر الخوف الذي نشعر به، لا تمنحه سبباً ليبرر هذا الخوف. نَمْ ولا تفكر في شيء.

أغلق إبراهيم عينيه وهو يفكر: إنه خائف بقدر الخوف الذي نشعر به. يجب أن تكون رجلاً، يكرر ذلك في نفسه، يجب ألّا يخيفك شيء. الأعرابي ليس السماء، إنه رجل تستطيع أن تلكمه.

نفث ضاري آخر نفس من السيجارة. استلقى محدقاً في السماء المرقّعة بالغيوم، بجانب ابنه. تختلط تفاصيل ذاكرته التبغية بحلمه.

أفاق عند الفجر على رجيع الصراخ. الأعرابي يقف بخوف غاضب أمام البندقية التي يُمسك بها إبراهيم.

- قل له أن يعيد البندقية وإلا قسماً فسأقتلكما هنا شرّ قتلة.

ترتعد يدا إبراهيم، ما زال غير قادر على استيعاب ما فعل، قام من نومه فوجد البندقية وقد سقطت من يد الأعرابي الغارق بإهمال في نومه. قفز ضاري ممسكاً بالبندقية، وجَّهها بثبات إلى رأس الأعرابي الذي قال بحقد متفاجئ، وكأنه توقع من ضاري أن ينكمش:

- هل تستطيع أن تتحمَّل تبعات ما تقوم به؟

فقال بقسوة حادة:

- أنت لا تملك أدنى فكرة عمّا أستطيع أن أتحمل وما لا أستطيع.

أسقط في يد الأعرابي الشاب، لقد أمضى حياته في مضارب قومه، إنها المهمة الأولى التي يخرج فيها إلى مكان بعيد، بصحبة قريبه الذي خلّفه البارحة صريعاً بسهام الأزديين. لم يبدُ له ضاري الرجل نفسه الذي أسقطه من الخيل وهدَّده كالحشرة التي يوشك على دعسها، إنه يظهر كرجلٍ لا يملك شيئاً ليخسره، يوجِّه البندقية باندفاعِ مَن سيطلق النار، من سيطلق النار حتماً. قال بتوتّر يوشك على الانهيار:

- اسمع اسمع. لا داعي لأن تفعل ذلك.

ثم استدرك بسرعة:

- دعني أرحل، هاه؟

أطرق ضاري محدقاً بتقزُّز في الخوف الذي ينبعث من حدقتَي

الأعرابي، فيذكِّره بنفسه ممّا يزيد كرهه وغضبه. قال بقسوة رمى فيها كل شعور بالغضب واليأس:

- إنْ رأيتك تترصدنا، تحاول اللحاق بنا. أقسم بالله أنني سأقتلك ببطء، لن أطلق رصاصة في رأسك مباشرة، ولكنني سأعذبك حتى ترجوني أن أقتلك. هل تفهم؟

هزّ الأعرابي رأسه بذهول. قال بصعوبة:

- دعني آخذ قربة ماء.

- لا.

كان إبراهيم يتابع الموقف بجانب والده، بقلّة استيعاب أمام غرابة ما يحدث، انقلاب الأدوار الذي يضع والده الخامل بطبيعته كرجلٍ يضج قسوة وعنفاً. التفت نحوه بدهشة، الطفل الذي ما زال يتشبّث به يقفز فوق البدوي اللامكتمل، قال بعد تردُّد:

- ولكنه سيموت. هنالك ثلاث قرب، دعهُ يأخذ واحدة.

أطرق ضاري لحظة وهو يَصرُّ على أسنانه، يشعر بخيانة حمقاء من قبل فتى يقرّر الضعف في منتصف الطريق. التفت نصف التفاتة إلى إبراهيم الذي انكمش أمام نظرات والده. قال وهو يوجه البندقية:

- إذاً تفضِّل أن تموت بدلاً منه؟

- لا.

- أخبرني. لو كنتَ في موقفٍ بين موتك وموته، من ستختار ليموت؟

ولكن إبراهيم لم يردّ، ظلّ يحدّق في الأرض بنظرة ذاهلة، مرتبكاً بين ردّات فعل كثيرة تدور في رأسه. فهتف ضاري:

- من ستختار؟

- سأختاره أن يموت. طيب؟

حدّقا في بعضهما بنظرة خيبة يطلقها كلّ منهما نحو الآخر، ويعود بها إلى نفسه. التفت ضاري إلى الأعرابي:

- توكّل في حال سبيلك قبل أن أغير رأيي.

- جرعة واحدة فقط. إنني أشعر بالعطش. جرعة واحدة.

فكَّر ضاري في الضعف، إنه ألعن أشكال الوجود، قادرٌ على أن يغيِّر الإنسان في لحظة خاطفة بطريقة مقززة. أطرق وهو يحدق في الرجل الخانع بنظرته الراجية وشعره المنتفش. قال لإبراهيم:

- أعطه القربة. جرعة واحدة.

شرب حتى تفزّر الماء من شفتيه، جمع أغراضه ومضى في حال سبيله، يلتفت بين حين وآخر إليهما، وكأنه يرجو إشارة رجوع تصدر منهما. حتى اختفى وراء الهضبة.

سارا شرقاً نحو الشمال بصمت مميت، يضرب ضاري خيل الأعرابي بقسوة لامبالية فيركض كالريح، ثم يتوقف خبباً، ثم يركض، ثم يصرّ على الوقوف، ثم يركض، صراع بينه وبين الخيل. مال شمالاً بمحاذاة رمل الربع الخالي، على وشك أن يلجَ رأس الخليج المسمى بالجير. لم يجدا غير بضع تمرات في جراب الخيل وعشر قطع من الخبز المتيبس، أكلا بضع رطب مع جرعات من الماء، يتجرعانها فيتذكرا الأعرابي بصمت، أين وصل؟ هل سيموت؟ يحدق إبراهيم في أبيه دون أن ينتبه له، ويحدق ضاري في ابنه دون أنِ ينتبه له. يبدو كلاهما للآخر ظلاً يوشك على التلاشي، خطان زمنيان مختلفان يتجاوران بغربة باردة. يفكر كلّ منهما في

موقفه بشيء من الندم الناقم: لم يوجّه ضاري بندقية لأحد من قبل، بكلّ هذه الوحشية المكبوتة. ولم يندفع إبراهيم في قسوة النجاة اللامبالية، كما يفترض من بدوي يبحث عن نصفه المفقود.

ناما على جوعهما في خلاء مقفر، يصهل خيل الأعرابي بألمِ المسافة الكبيرة التي قطعها، وتئن الريح المستبردة بلا شجر تتكسَّر فوقه. الفجر يطفو بزرقة كالحة لا غيوم فيها، وقف ضاري بإعياء منهك، سار نحو أشجار سدر لم يرها في ظلام الليلة الماضية. رائحة بلل المطر الوهمية في الورق كادت أن تصرعه، وقف يستنشقها بشرودٍ مسكرٍ لذيذ. رأى زوجته من الخلف بين الشجر، ولكنها تبدو أكبر بكثير من عمرها، بشعرٍ أبيض يلمع فيه أثر من الحناء المنطفئ، تقف أمام فرن من الأستيل الفضي يتموضع هناك وحيداً برثاثة ثقيلة، تحرِّك بملعقة كبيرة مرقاً في قدر مكور من المعدن، خلفها طاولة خشب بثلاثة كراس خشبية لامعة تتموضع بين الأشجار وفوق التراب. تقدم عدة خطوات، جلس على إحداها بإعياء، زفر بكثير من الارتياح، يشعر برقةِ ملمس الكرسي الخشبي، تبعث من سراديب ذاكرته تلك الليالي التي أمضاها جالساً عليه وحيداً في المطبخ، يجهِّز عشاءه عند الواحدة ليلاً بعد أن تنام زوجته وابنه، ويجلس هناك في ضوء خافت يُنصت للريح والفراغ والوقت. تخلَّصت زوجته منذ سنوات من الطاولة والكراسي الخشبية، فغضب غضباً لم تستطع أن تفهمه «إنها مجرد أشياء، لماذا تغضب هكذا؟» تقول له بحيرة متفاجئة، ولكنه لا يردّ، لأنه لا يفهم لماذا يغضب، إنها مجرد أشياء بالفعل، يرميها بنظرةِ إقصاءٍ باردة ويخرج بحَيْرة مرتبكة. استدارت وهي تحمل وعائين تفوح منهما رائحة الكوسى

والجزر والزعتر والفلفل، تسير متهادية محدودبة بحذرِ مَن يحمل كتلة من الديناميت. جلست أمامه بوجهٍ متهدِّل متغضِّن، عجوز على مشارف السبعين، تستعدّ لتأكل وجبتها المتقشفة. ظلّ يحدق فيها بوجوم خامل، رفعت رأسها نحوه باستغراب بريء وهي تلاحظ الوعاء أمامه، قالت بشيء من الاستنكار:

- لم يعجبك المرق؟

أنزل نظراته ببرود نحو الوعاء، ثم رفعها ببرود نحوها، هزّ رأسه منهكاً وهو يقول:

- جيد. جيد.

أطرق وهو يتطلع في الخضار السابح وسط فقاعات الماء الحار. يسبح ببطء رخيم، كجسد طفل يحمله التيار النائم في غياب الريح.

- أين ينبت الجزر؟

قالت دون أن ترفع رأسها:

- في الأرض.

- وأين الأرض؟

رفعت رأسها تتطلع حولها وكأنها تبحث عن شيء ما. قالت بحيرة:

- لقد رأيتها قبل قليل.

عاد ليحدق في الوعاء. بينما ظلت تتطلع حولها بوجوم حائر.

- إنها هنا. أين ذهبت؟

انتبه ببطء فقال بحيرة:

- ما هي؟

- الأرض.

- ما بها؟

- ماذا تعني؟

- الأرض. لقد كنت تتكلمين عن الأرض.

- نعم. هنا. لقد رأيتها.

- ثم ماذا؟

طَرَفَت ثلاث مرات بحيرة فزعة في خطوط بشرتها المتحجرة.

- لا أذكر.

أخذا يحدقان في بعضهما لحظة، ينتظر كل واحد منهما تفسيراً من الآخر. ولكن لا شيء. أنزلت رأسها وأخذت تأكل، ترفع الملعقة بتركيز شديد كخبير متفجرات، تُطبق شفتيها بدقة على الحافة المعدنية، ثم تُخرج الملعقة ببطء وتحرِّك كل شيء في فمها قبل أن تبتلعه. يراقبها ضاري بوجوم حزين، لمح وجهه في انعكاس الملاحة الفضية على الطاولة، متهدل متغضن كشيخ يشارف الثمانين. قالت وهي تمارس الأكل بالتركيز نفسه:

- ستُمطر اليوم.

فقال كيفما اتفق:

- ربما.

عاد ليحدق في الوعاء بحزن كبير، قطع الخضار بين الفقاعات المخضلة بالزيت كأنها جثث طافية في النهر. قال بصوت جليدي:

- ما هو الماء؟

- ماذا تعني؟

- قبل أن يكون ماء. هل تذكرين؟ لقد سألتِني هذا السؤال ذات يوم. هل تذكرين؟

رفعت رأسها.

- أنا؟

- نعم.

- ولكنني أعرف أن الماء ماء.

- ولكن ماذا كان قبل ذلك؟

أطرقت قليلاً تفكر بكثير من الحيرة. ثم قالت وهي تنفض رأسها بخفة:

- إنك تفكر كثيراً. كفى. الماء ماء.

- إنني أخبرك. إنه ليس ماء. الأشياء ليست أسماءها. كل شيء مختلف في مكان ما.

- أي مكان؟

- مكان ما.

طأطأت رأسها من جديد لتأكل، ظلَّت منكبّة على طعامها تتجاهله. تطلع فيها عدّة لحظات بتبلُّد فاتر، هامة رأسها البيضاء بفرقة محمرّة بأثر الحناء. همس بصوت لا يكاد يُسمع «لا جدوى». سحبَ جسده بصعوبة من ظهر الكرسي، تلقف الملعقة وأخذ يأكل، يقلدها تماماً، بالتركيز المجهد نفسه.

صمتٌ شعائري متصالح بين الشجر.

- ابنة عمتي ماتت.

قالت دون أن ترفع رأسها عن وعاءها. سأل دون أن يرفع رأسه عن وعائه:

- مريم؟

- نعم.

- ألم تمت قبل ذلك؟

- لا. كانت تعيش.

- وهل كلّ من يعيش ليس ميتاً؟

- طبعاً.

- كيف تعرفين؟

- أعرف ماذا؟

- أنّ.

ولكنه صمتَ بِحَيرة وقد رفع رأسه بتفكُّر، تقطُر من فمه نقط المرق اللزج، ويمسك الملعقة الممتلئة معلقة أمامه. همس بصعوبة:

- لا أذكر.

- تذكر ماذا؟

فقال بشيء من الحدّة:

- لو كنت أذكر ماذا لما كنت لا أذكر.

رفعت رأسها.

- عن ماذا تتحدث؟ ما بك اليوم؟

- لا شيء.

أطرقا بوجوم. يرشفان ببطء.

- ابنة عمتي ماتت.

- مريم؟

- نعم.

- كيف ماتت؟

- صمت كل شيء في جسدها.

- هذا مرعب. الصمت مرعب. أليس كذلك؟

- ربما.

لا صوت سوى مزّ المرق الذي يشبه خرير ماء في المزاريب. فرغت من أكلها فقامت تتهادى بصعوبة، وضعته على طرف الفرن، ثم خرجت من ثكنة الأشجار وهي تقول:

- ضعهُ إذا انتهيت هناك. ستغسله الشغالة لاحقاً.

ثم اختفت. أنهى ضاري مرقه ببطء رتيب، قام من مكانه ووضع الوعاء على الفرن، ثم قفل عائداً إلى مكان المبيت، حيث نام ساعة قبل أن يستكملا المسير.

الخيل يلتهم عشباً متيبِّساً من العوسج، شرب جرعة من الماء الآسن في نقعة مطر منصرم. حفر ضاري حفرة في جدول جاف، بدأ الماء يتفزّر بعد متر تقريباً كالدم من الجرح، يملأ الأخاديد التي أفرغها من الوحل الصلصالي، عبأ قربة واحدة فقط وأكمل طريقه، يتلفت بحثاً عن صيد، دون جدوى. الجوع يُثقل على عينيهما ويبعث في فمهما رائحة تشبه القيح الأصفر، نام ضاري وهو يحسّ بأثر طعمِ المرق المطبوخ، ينحدر في لعاب لسانه المتيبس.

الضباب ينتشر كالدخان في انعكاس الضوء، نقياً تكاد تمسكه بيدك. لمح إبراهيم ظلاً يركض أمامه، لكزَ والده وهو يهمس بذهول:

- ثمة ملَك يرعانا.

غزال يركض بين شجر النخيل القصير. نزل ضاري بهدوء، وضع سبابته على فمه فأحجم إبراهيم عن الكلام. أمسك البندقية

بإحكام، يتذكر الصباحات التي كان يخرج فيها مع والده للصيد، يكاد يشم رائحة البارود في يديه، ويسمع صوت والده وهو يصرخ فيه «فكِّر في هذا الأرنب كعدو، إما أنت وإما هو». وجّه الفوهة بدقة بين نُدف الضباب الرقيق، وقتل الغزال برصاصتين في رقبته. قام بهدوء، نزل إبراهيم من الخيل بتحديقة شاردة في الجثة البعيدة، يخترقان البياض الحليبي نحوها. سلخا سوياً جلد الغزال الرطب بنتانة البلل، يَشرح ضاري العملية بدقّة لابنه، فينفّذها بموهبة فطرية لا تبالي بالرائحة العفنة. حملا اللحم المقطّع فوق الخيل، وأكملا السير في انتظار الليل. يتجرعان ساقه المطبوخة دون طعم، أشجار النخيل تنشر ألقاً لطيفاً، الصمت يعتمل في حفيف أوراقها. يأكل إبراهيم بشراهة، يتخيل المَلَك الذي يرسل غزالاً إلى تائهين في الصحراء، لماذا يموت الغزال من أجلهما؟ يفكِّر بقوة وهو يمضغ بشرود، «إنه يموت لأنه يجب أن يموت»، لا، يستدرك قليلاً ويكرِّر «إنه يموت لأنه لم ينتبه للرصاصة التي ركضت نحوه». التفت نحو والده، قال بهدوء:

- لو لم نقتل هذا الغزال، كنا سنموت جوعاً لا محالة. أليس كذلك؟

التفت ضاري إلى ابنه، حتماً لم يكن يقصد الغزال، إنه أكثر صلابة من أن يبالي بحيوان شارد. أطرق لحظة ثم قال وهو يلوك اللحمة المطاطية:

- ولو لم نطرد ذلك الأعرابي ونمنع عنه الماء، كان من الممكن أن نموت أيضاً.

حدّق فيه إبراهيم بنظرة تشبه الاعتذار. قال بقناعة كئيبة:

- إذاً يجب ألا تبالي إلا بنفسك، هاه؟

أطرق ضاري بِحَيرة ثم قال بشيء من الشك وكأنه لا يبدو مقتنعاً تماماً بما يقول:

- لك أن تبالي بالآخرين ما لم يعترضوا طريقك. إنه قانون الحياة. الأسد الذي يقتلك ليس شريراً، إنه يقتلك كما تقتل الغزال.

الرمل يهب من كلّ جهة، الأيام تنهمر في غموضها الرتيب. الخيل يصهل بألم وعطش، عبأ ضاري قرب الماء بعد أن أمطرت السماء قبل أيام. كم يوماً بالضبط؟ لا يستطيع تحديد ذلك. لم يبقَ سوى قربة واحدة، وقطعة من لحم الغزال، وعدّة كسر من الخبز المتيبس. يتطلع في السماء، لا سحاب، يتطلع في المدى، لا صيد، يتطلع في الشجر، لا ثمر يؤكل عدا الحشائش.

يسير بجانب الخيل، يمسك باللجام محدقاً بوجوم، بينما ينام إبراهيم فوق ظهره بإعياء. صهل الخيل بفمٍ متيبس، التفت ضاري نحوه، يلمح في عينيه صورة الأعرابي. تردّد لحظة، فتح القربة الأخيرة وسقاه قليلاً من الماء. همس بجانبه:

- هل ترى؟ لست شخصاً سيئاً.

ولكن الخيل لم يُجب، ظلَّ يسير مطأطئ الرأس.

وقفا أمام أرنب يركض بخفة بين العشب، أخيراً. أطلق ضاري رصاصة متعجِّلة أخطأته، فهرب الأرنب مسرعاً.

- أطلق مرة أخرى، إنه يهرب.

هتف إبراهيم بحماس. ولكن ضاري أنزل البندقية بوجوم متحجر.

- لم يبقَ رصاص فيها.

إطراقةٌ ذاهلة من الخيبة، تطفو بينهما. قطفا توت علّيق ناشف في شجيرته المليئة بالشوك، فجرحت إبهام ضاري. يحتفظان بقطع الخبز المتيبسة، ستكفيهما لا محالة.

صادف طير «دخّل» يقف وحيداً على جذع شجرة سدر يابسة، بدا وكأنه أتى لينتحر في الصحراء بعيداً عن سرب أصدقائه، لم يتحرك حينما اقترب منه ضاري، اختطفه بابتسامة يقابلها وجوم على جسد الطائر الكئيب.

* * *

لاح أمامه السور الخلفي لمدينة جلفار، التابعة لمملكة هرمز. صعدا تلاً هلالياً يتموضع خلفها، قطعا سهلاً بأشجار متفرقة، حتى جاورا غرفة بُنيت من الطين المحروق، تقع وحيدة في السهل، تبعد عن المدينة ما لا يزيد عن نصف كيلومتر تقريباً. وقف ضاري بجانبها، العزلة الغريبة التي تنكمش فيها، لا يلوح شيء حولها، مجرد غرفة طينية مهجورة في وحشتها، بُنيت بغرابة في رقعة فارغة وهجرت بالغرابة نفسها.

نزل بعد لحظات من التردُّد، اقترب من الباب الخشبي، مواربٌ بخطٍّ ضئيل يكشف الظلمة الشبحية.

- هل ستدخل؟

قال إبراهيم بتوجّس وهو ينزل عن الخيل.

- لا تقلق. إنها مهجورة.

وضع أطراف أصابعه على الباب، دفعه بخفّة فصرَّ صريراً خافتاً وكأنه يخرج من ذاكرة ما، انكشف عن غرفة صغيرة يملأها الغبار والأثير المختنق. الضوء يتسرَّب بكثافة من الباب المفتوح، بعد أن

كان يجد طريقه بصعوبة من نافذة صغيرة في أعلى الجدار. ثمة طاولة خشبية يستقر عليها زيرٌ فخاري وقوس وعدة سهام متناثرة، سريران متلاصقان من القشّ في الزاوية، موقدٌ محفور في الجدار بحوافّ حجرية، سجاد ناعم مغبرٌ يغطي نصف الغرفة، سارية خشبية في المنتصف يتعلق فيها فانوس زجاجي. احتقانُ رائحة الطين المبتل بالتراب تسطو على أنف ضاري، وقف كالنائم وسط الغرفة، حبيبات الغبار في بؤرة الضوء تبدو كغشاوة حلم ضبابي. تذكّر قصر الطين الذي بناه جدّه الرابع في طرف المزرعة، كان والده يذهب به إليه، يدخلانه سوياً ليروي له حياة أجداده بحنينٍ غامض يكتسب قوته من قسوته، كيف بُني وكيف عاشوا ومَن عاش فيه، كلّ تلك القصص التي دُفنت مع الأموات، ولم يبقَ منها سوى أثرٍ طيني متهدم، كالذاكرة. حينما وقف أمامه بعد أن ورث المزرعة، داهمه حنين الرجل الفلاح، الرجل الذي صار يملك أخيراً رفاهية العيش بمعزلٍ عن كل ذلك الضجيج في الخارج، المزرعة كبيتٍ له، يفتح ذراعاً من العزلة الهادئة، ولذا ابتنى بيتاً من البْلوك بجانب القصر الطيني، وصار يعيش هناك تقريباً. يقف كالمنوّم ذاهلاً وسط الغرفة المتلفعة بغلالة كريستالية من الغشاء المضبّب، تستدرجه لينغمس في متاهة حلمية تؤدي إلى ماضٍ يبدو قديماً، قديماً جداً، إلى ذاكرته التي تتفتت ببطء، توشك على التلاشي.

- هذا المكان مهجور منذ زمن بعيد.

همس إبراهيم بخفوتٍ ذاهل، فانتبه ضاري بصعوبة. كان ثمة شيء في المكان يثير تلك النظرة الذاهلة، العتاقة الحزينة التي تشبه عجوزاً تشيخ وهي تنتظر أحداً لا يأتي. قال بصوت عميق شارد:

- سنرتاح هنا إلى الصباح القادم.

نظفا المكان بسرعة لامبالية. خرج ضاري إلى الخلاء بحثاً عن ماء، المدينة تقع في المدى القريب، ثمة خزانات مياه كبيرة على طرفها، تمّ وضعها لحماية مياه الأمطار من الضياع، يأتي لها الناس من المدينة ليتزوّدوا بالماء. ذهب وملأ القِرب كاملة، ثم عادَ وهو يحدِّق من بعيد في المدينة، تتلألأ كفانوس سحري، الرهبة المتوجّسة من كلّ ما يمُتّ بصِلَة لما هو غامض. الخبز المتيبس يكفي. يمضغانه بصعوبة منهكة بين اليقظة والإغماء، يستلقيان للنوم على فراش القش الناعم، يقول إبراهيم بخفوت ناعس:

- ألن نرحل غداً؟

أطرق ضاري لحظة ثم قال وهو يغلق عينيه بانجراف:

- ثمة سقف يغطينا. لماذا العجلة؟

قام في الفجر، جلس على القش بخمول لذيذ. كان يحب الفجر، لحظةُ اليقظة حينما يتنفس كل شيء في الكون، يحبّ ضوءه الشاحب يتسرَّب بخفّة من الشقوق، زقزقة العصافير بطنينها الغنائي، رطوبة الندى النقي اللزج، رائحة الجِدّة الرقيقة كعبق طفل وليد، النسيم الناعم لألقٍ غامض يتمطى ناعساً بشبع. كان يجلس مثلما يجلس الآن على طرف سريره في المزرعة، يختزل الفجرَ بكلّ ما فيه مدة من الزمن، لا يتحرك، يتنفس في هدأة سكونية غامرة وكأنه يشرب الهواء، يراقب الضوء ينضج نحو صفرة رقيقة فاقعة، كالصور القديمة التي يصبغ سطحها اصفرارٌ يقوم مقام آثار أقدام الزمن. الفجر يذكِّره بالطفولة، ليست طفولته، وإنما طفولة ما، نقاءُ وجود أصيل.

أمضى الصباح وهو يجلس بخمول أمام الغرفة الطينية، يراقب الذين يخرجون من المدينة ليصطادوا الطيور في السهل تحت المنحدر. يُحدِّق في الفراغ بلذّة خاملة، يراقب دبيب الوقت في خطوات الضوء الذي يرتفع ويقسو. ذهب إلى السهل بحذر، صادَ ثلاثة طيور صغيرة وتلقف عشاً مكدَّساً بالبيض، ثم عاد بهدوء رخيم، يتطلّع في الضواحي التي ترفل في شمس العصر المتوهجة بصُفرة فاقعة. لطالما فكَّر إنْ كان الإنسان بيضة لا تفقس إلا بموتها حينما يخرج من قوقعة جسده، إنها فكرة تُرعبه، أن تكون موجوداً ولكنك ما زلت لست موجوداً بعد، الحياة كمرحلة تكوُّن والموت كمرحلة ولادة.

يسأل إبراهيمُ بِحَيرة عن موعد الرحيل، فيستنشق ضاري بقوة هواء الغرفة الطينية المعتّق بالقِدم، كأنه في ذاكرة تلك العجوز التي بدأت تُحتضر وهي تتذكر طفولتها بحزن متصالح. يأكل بيضة سمّان يستحوذ صفارها على جزء كبير من بياضها، يشعر بأمان الجدران التي تغلق عليهما وحشة المدى المفتوح. يهزّ رأسه برتابة وهو يقول:

- لاحقاً. لاحقاً.

تلقّف في الفجر القوس الخشبي والسهام المسنَّنة. لم يجربه من قبل، درَّبه والده على البنادق والمسدسات، بل واشترى له سيفاً يُقال أنه كان ملكاً لعبد العزيز الجنازة. مسح طبقة الغبار المتكدِّسة فوقه برقَّة، مصقول من شجر النبع بوتر مصنوع من القنّب، يلمع بين يديه كسبيكة من الذهب. جرّبه حتى فهم طريقة الرماية به، ثم أخذ يطلقه مع إبراهيم على الطيور الكبيرة والأرانب البرية في السهل تحت المنحدر، حتى انتصف الضحى.

- لن نُتقنه. إنه مضيعة للوقت.

هتف إبراهيم بحدّة بعد أن ضرب وتر القوس يده أثناء ارتداده. ضحك ضاري بخفّة وهو يتلقفه ويوجِّهه بلذّة نحو الأمام:

- أولاً، لدينا ما يكفي من الوقت. ثانياً، المهارة ليست كافية لتتعلم شيئاً، يجب أن تتعلم الصبر قبله.

حدّق إبراهيم في والده وهو يمصّ أصبعه بألم، منذ مدة طويلة لم يشاهده يضحك، يفكِّر أنّ منظر القوس يضرب أصبعه لا بد أنه كان مضحكاً بالفعل، يركل حصاة أمامه ويراقب سهم والده يطيش في الهواء مرة أخرى.

صاد ضاري أخيراً أرنباً برياً يحوم حول الحشائش، صوت ارتداد الوتر المشدود يطنّ في أذنه بنشوة موسيقية. رفع إبراهيم يديه غير مصدِّقٍ، ركض نحو الجثة التي تتعثر في دمها، وقف فوقها بنظرة انتصار لذيذ.

- ماذا قلت لك؟

قال ضاري وهما قافلين بجثّة الأرنب، تقطر دماً. هزَّ إبراهيم رأسه بطواعية وهو يحدِّق في أثر الدم خلفه:

- الصبر.

- ولدينا ما يكفي من الوقت لنمارس رفاهية الصبر.

صعدا التل نحو الغرفة الطينية. يتطلّع ضاري في المدينة المجاورة، البوابة المفتوحة تدعوه للدخول، يدٌ حانية ترفع قربة الماء لعطشان يوشك على الموت، يشعر بمسامات جلده النحاسية ترق أكثر، نسيم الخريف في الهواء الرقيق يحن بألق أبوي، هذا المكان

يبدو لحظة حانية من الهدوء والدِّعَة. لا داعي للخوف. قال وهو يتوقف شارداً:

- اذهب إلى الغرفة ولا تخرج منها. سأذهب إلى المدينة.

- سأذهب معك إذاً؟

- لا. ستُبطئ حركتي، انتظرني هناك في الغرفة، وكن مستعداً.

عاد إبراهيم بقلق عاجز، يحمل الأرنب المكتنز في يده بنظرة رثاء لامبالية. لم تعد تقطر دماً.

تسلَّل ضاري بحذر إلى الداخل، ملأ قربة الماء من بئر محجَّر بالسيراميك، ثم مرّ على السوق. الضجيج والزحام والروائح، المدينة الكبيرة بعماراتها وبيوتها وأزقّتها وعبق العطر المكتنز في أثيرها، الأغطية الكتانية المتدلية من حوافّ الأسطح، نوافذ البيوت المزينة بمزهريات الزهور والورود، السكك التي فُرش بعضٌ منها بالحصير، السابلة التي تملأ المكان ضاحكة جالسة متحركة لا تتوقف. تحاول جلفار أن تتشبَّه بمملكة هرمز بفخامتها الشهيرة وحركتها التجارية الحثيثة، في حين تعتمد هرمزُ على جلفار بأن تمدّها باللؤلؤ الذي تشتهر به، والماء العذب الذي يُحمَل إليها بالقوارب، والخيول العربية التي تأتي من شبه الجزيرة.

وقف بنظرة تنجرف في ذهول اللحظة، يكاد يشم رائحة البحر في الشمال تختلط برائحة التوابل، القوارب الخمسون التي تبحر في شهري تموز/ يوليو وآب/ أغسطس لاستخراج اللؤلؤ، الترف الذي يصبغ الوجوه المسترخية في نعيم الهدوء والدعة. يحدّق بصمت ذاهل وسط الحشد، وكأنه يختزلُ تدفق الحركة التي يشعر أنه يراها

لأول مرة، لا يعلم إنْ كان يفتقد نبضها القوي في وحشة التيه الطويل، أم أنها ترعبه بكل ضجيجها الذي يبدو عدائياً.

فاجأه شخص بجانبه يصرخ في رجل أمامه:

- الخيول لدي لا يعادلها خيل في العرب قاطبة.

كان مظهر المدينة عربياً، ولكنه لم ينتبه لذلك، وحتى لو انتبه فلنْ يثق في حدسه. ولذا أخذ يحدق في الرجل العربي بذهول، حتى التفت نحوه وهو يقول:

- هل تريد شيئاً؟

ثم استدرك بنظرة ساخرة:

- تبدو وكأنك سقطت من الجحيم. ثم ما هذه الرائحة؟ هل هذا أنت؟ ألا تستحمون؟

فتح ضاري فمه ليردّ ببلاهة ولكن الرجل عاد ليقول:

- جميعكم متشابهون، تأتون إلى هنا بقذارتكم بحثاً عن العمل. هل تريد عملاً؟ سأعطيك قدراً عادلاً من الدنانير، وسأضربك بالعصى إنْ لم تعمل على استحقاقها.

هزّ ضاري رأسه بارتباك. كلّ شيء يحدث بسرعة لا يستطيع اللحاق بها، ولذا ظلّ مطرقاً بشيء من الحمق.

- ماذا؟ ألا تنطق العربية أيضاً؟

قال بصعوبة خانعة:

- نعم أنطقها.

- جيد.

ساعدَ رجلاً يُدعى حسان في اجترار أربعة خيول إلى حظيرة في آخر المدينة، أحدها خيل أبيض ناضج الترويض، ينقاد بصعوبة.

تذكَّر ضاري حظيرة الخيول في مزرعتهم، ستة خيول عربية، أحدها أبيض اعتاد ركوبه في صباحات الخميس. حينما قرَّر والده بيْع خمسة منها طلب منه أن يحتفظ به، ولكنه قرر الاحتفاظ بالكميت الذي كان أصغر سناً وأصحّ جسداً.

أفلت الخيل الأبيض من لجامه المربوط، حاول الهرب من باب الحظيرة المفتوح، فلحق ضاري به، ركبه بصعوبة فكاد أن يلقيه، يلفّ لجاماً يُمسك به بقوة حتى هدأ، أخذ يُربّت على رقبته، يهمس في أذنه، حتى صهل بانقياد. فعاد به إلى الحظيرة.

استلم عدداً من الدنانير المرصوفة بالفضّة، زادَها التاجر ثلاثة أضعاف هدية لإمساكه الخيل من الهروب.

- لقد استحقّيت ذلك. كنتُ سأخسر وزني ذهباً لو هرب اللعين.

وقف أمام التاجر لحظة ثم قال:

- هل سأجد لديك عملاً في الغد؟

- ربما. إذا لم تجد لدي ستجد عند غيري، كن موجوداً ومستعداً.

ثم استدرك بنبرة اشمئزاز:

- واستحمّ عليك اللعنة. اشتر ثوباً وقميصاً وعرّف نفسك على صديق وفيّ يُدعى الماء، ستحبان بعضكما صدّقني.

مشى في السوق وهو يحدّق بنظرة ذاهلة، يلمس بأطراف أصابعه الأقمشة والسجادات وأوعية الفخار والقناديل وقوارير التوابل. يرمقه الكثيرون بنظرة استنكار، فيخجل من بشرته المتيبسة ورائحته النتنة وملابسه الممزقة ولحيته الكثّة. اشترى ثوبين ولحافين

ونعالين وثلاث قرب ماء جلدية وقارورة توابل وقارورة معطر للجسم وقارورة مرهم للتقرحات. لم يبقَ معه دينار واحد، صرفها جميعاً بنشوة سكرية لامبالية. وقف متصلباً أمام وعاء فخاري مدوّر بقاعدة رشيقة، على جدرانه صورة أسد يروضه إنسان ضخم، مشى عدة خطوات قبل أن ينتبه بذهول أنه سرقه بالفعل، أنّ ذلك لم يكن خيالاً ظلّ محبوساً في رأسه.

أشعل سيجارة في الطريق إلى الغرفة الطينية، لم يبقَ سوى ست سيجارات. يستنشق الهواء من أنفه وينفث الدخان من فمه، ببساطة لذيذة لا تعقيد فيها. يتطلع في خيوط شمس العصر المنطفئة تتخايل فوق التراب، المدى المثخن بضوء أصفر ورائحة نقية تشبه رائحة الكرز الناضج.

وضع الوعاء الفخاري فوق الطاولة الخشبية، أخذ يُحدِّق فيه بعمق، ينفث آخر نفس من سيجارته.

- ما هذا؟

ردّ ضاري دون أن يلتفت:

- وعاء فخاري. جميل، أليس كذلك؟

لم يفهم إبراهيم جيداً.

- ولكن لماذا أتيت به؟

- لقد أعجبني.

ثم أدرك بنظرة شاردة بعمق:

- أنظر إليه. وكأنه يضيء المكان.

وقف إبراهيم وراءه، تطلع في الوعاء دون أن يفهم.

- ولكننا لن نجلس هنا. ما أهمية أن يضيء الغرفة؟

التفت إلى ابنه ببُطء حادّ منكمش. قال وكأنه يؤكِّد حقيقة بديهية ولكنه يقولها لأول مرة:

- أعلم ذلك.

دهنا تقرحات جسديهما بقليلٍ من الخلطة المعطّرة بالياسمين، وسكبا قليلاً من معطر الجسم الشفاف على الجسد المدعوك بالماء، لأول مرة منذ مدة طويلة لا يستنشقان من جسديهما رائحة جثة عفنة. لبسا القميصين بنعومةِ خامة القماش القطني التي تبعث على النعاس، تداعب خيوطه برفقٍ سطح الجلد المتحجّر، يشعر به ضاري كيَدِ فتاة تمرّ بحنوٍّ على صدره، فيتنهّد بما يشبه الحسرة.

أشعلا الموقد وطبخا جزءاً من الأرنب القتيل. أكلا بلذّة صامتة، يتكدَّس اللحم بتوابل الملح والزعفران وزيت الزيتون، فتتفجر عصارته في الفم كحفلة صاخبة. صوت الريح يتكسَّر في الجدران، خيوط السجادة الناعمة رغم أغبرتها تداعب باطن القدم المقدّد، الألق الرقيق لعزلة الغرفة التي تحجُب وحشة الأبعاد. يبتسمان دون مناسبة، يضحكان على كلّ شيء، يتطلّعان بشرودٍ ناعم. اللحظة تتمدد، تبدو أبدية كوعي عالق في حلم سرمدي، حيث تكتسي الألوان بمزيد من اللمعان الفاقع، حيث تتفتح الورود وهي تهتف راقصة بلونها، حيث يحنو الهواء على البشرة كأمّ تهدهد طفلها بين يديها. يتكئ ضاري بأريحية ناعسة، يشرد بنشوة، يشعر بجسده كحبيبات ثلجٍ تنهمر على الصخر. قال بنبرة متراخية:

- ستذهب معي غداً إلى المدينة. سنعمل سوياً، وسنبحث عن مكان نستأجره.

أطرق إبراهيم وهو يلوك لقمته:

- ألن نمضي غداً في طريقنا؟

التفت ضاري نحوه بهدوء مَن لا يريد العبث باللحظة:

- هل نسيت درس اليوم بهذه السرعة؟ الصبر. ألا تريد أن تستحمّ؟ ألا تريد أن تنام على فراش؟ الطريق لن يذهب إلى أي مكان.

هزّ إبراهيم رأسه بطواعية آلية، يحمل اللقمة الأخيرة من الحمامة بلذّة نهمة. نام، رأى نفسه في الحلم وهو يركض في الصحراء، مادّاً يديه، يلحق شيئاً ما، يركض ويركض ويركض، الدماء تسيل من قدميه المتآكلتين، ثوبه يتفتَّت في مواجهة الريح، فقاعات دم محتقن تفور في رأسه، يشيخ ببطء ثقيل، يتهدّل جلده، يبيضُّ صدغه، يملّ من الركض، ولكنه لا يتوقف. يمرّ بفتاة تجلس وحيدة عند تلٍّ صغير، بحدقتين تشتعلان ناراً كجمرتين ملتهبتين، تقف أمامه فيقف، يسألها محدّقاً في عينيها المرعبتين «من أنت؟» تطرق الفتاة الصغيرة بوجهها القذر وملابسها المترهلة، تقول بلغة غريبة ولكن إبراهيم يفهمها «لماذا تعذبني؟ ما الذي فعلته لك؟» فيردّ صارخاً بجزع «ولكنني لا أعرفك أنا مجرّد فتى ضائع هل تعرفين أين أبي؟» ولكنها تقترب منه بوجهها الشفاف كالزجاج العاكس، فيرى في انعكاسه صورة وجهه، رجل كبير في السن، متغضّن بإعياء أشعث تنطبع فيه رثاثة الزمن، فيتراجع خائفاً ويواصل الركض، تتفتت قدماه فيصير يركض على ساقيه، تتفتت ساقيه فيصير يركض على ركبتيه، يظلّ يتفتت وهو يركض حتى لا يبقى سوى رأسه، يتدحرج وهو يتآكل ببطء، يذوب المدى أمامه ويستولي ظلام أزلي كالموت. أفاق ببطء ثقيل، يشعر برأسه كحجر فوقه حجر. صرصار

الليل يصِرُّ في الظلمة برتابة، القشّ تحت جسده يدغدغ جلده، التفت نحو والده، يبدو غارقاً في النوم بشبع آمن.

يحلم ضاري بفتاة، لأول مرة منذ أن تركا المجمعة، بل لأول مرة منذ زمن أبعد يفكِّر في امرأة بمثل هذه الحميمية الصبيانية، رغم كل ليالي الوحدة الثقيلة. كان قد استلقى وهو يشعر بالنعاس ينهمر من العدم برقة هلامية، فينفث أثر النوم الطري على خمول الجسد، الزمن لحظةٌ من الندى اللزج الدافئ، انتباهة دخانية تتلاشى بنعومة بطيئة. رآها خلف غلالة سطوع شفاف، اقتربت منه، تلتصق خصلة شعرها المنفردة بجبينها المتعرِّق، تفوح من عروقها حرارة طاقة محترقة، فتصطبغ بشرتها بحمرة باهتة في بياض حليبي، لثم خدّها فانطبع في فمه نكهة خوخ في أريج نضجه، يفور من راحة يده على ملمس جلدها نشوةً تتكهرب في نخاع عظمه، يطرحها أرضاً، يتقلبان ضاحكين، يقبِّل، يشمّ، يلمس، تنتفخ أوداجه، يشعر بالحرارة تتضوع كالرحيق الخانق. قام فجراً من نومه محتلماً، رجل تجاوز الأربعين من عمره. ضحك بعينين ناعستين، التفت نحو إبراهيم، ما زال نائماً.

لم يوقظه، بدا مستغرقاً بشبعٍ آمن في النوم، بشرته المتصحِّرة تبدو أكثر رقة، يتوسّد يده باستغراق بريء. يحدق ضاري فيه برضى شارد وهو يلبس ملابسه، خطوط الزرقة الناعمة تنسلّ بخفّة من شقوق النافذة، الفجر ينضح في عروق الكون الذي يتنفس. سيعود لاحقاً ليأخذه.

سار ببطء مع ارتفاع الشمس، تنسدل برقة على بيوت الحجر. لقي التاجر في دكانه.

- أها. جميل، أرى أنك تلبس قميصاً جديداً ونعالاً جديداً.

ابتسم ضاري قائلاً:

- شكراً لك. هل لديك عملٌ لي؟

- نعم، إذا كنت جيداً كالأمس سأوظّفك لدي. اذهب إلى الحظيرة وقابل حسّان، سيُخبرك بما يجب فعله.

مضى بين الدكاكين التي تشرِّع أبوابها، البيوت المزينة بالأصص المذهبة والنباتات والزهور، يطأ الحصير الذي يدثّر بعض الأزقة، يستنشق رحيق العطر الذي يملأ الأثير. الساحة الخلفية المجاورة للباب الخلفي تمتلئ بالمخازن، حُجر كبيرة يضع فيها التجار بضائعهم. قابل حسان عند الباب، رحَّب به بحرارة صحبةٍ قديمة. ساعده ضاري في تركيب حذوة لفرس جديد، ينتهز فرصة الفراغ بين الفينة والأخرى ليربت على الخيل الأبيض، أو يقف عند باب الحظيرة محدقاً في انجراف الحركة. اللاشيء يحدث.

في الجهة الأمامية من المدينة يزحف الجيش البرتغالي بقيادة قائده ألفونسو دي ألبوكيرك، الرجل الذي فتح مملكة هرمز في مهمة انتحارية، واستمرّ ليستعمر أكثر مدن الساحل الغربي للخليج، ولم يتوقّف إلا عند حدود البصرة. حاصر المدينة بجيشه الذي كابدَ مشقّة السفر في الصحراء، ثلة ممّن يضرب بإلهام الجوع والإعياء. فلا يُلهم الإنسانَ شيءٌ للقتل أكثر من اليأس.

خرج ضاري من الحظيرة، أصوات الموت تزحف من بعيد، الأغبرة تثور في المدى، سجادات الحصير تتطاير في الأزقة، الجميع يهرب من كمَّاشة اللحظة الأخيرة، الجنود يتراكضون لإغلاق بوابات المدينة. عاد إلى الحظيرة، تلقف الخيل الأبيض، ثم خرج من الباب

الخلفي، وركض به متجهاً إلى المخرج الخلفي قبل أن يصل إليه الجنود. توقف فجأة أمام مخزن للأطعمة، مشرع الأبواب بآثار الهرب الهستيري، تلقّف دون وعي خيشة رز وخبز وحمّلها فوق الخيل، أصوات الصخب والهرب والرعب تقترب منه. ركض خارج المدينة، يتخيل برعب: ماذا لو قابلته سرية أتت لتحيط بالمخارج؟ ولكن لم يجد أحداً هناك، لاحظ الجنود يغلقون البوابة بعد خروجه بعدة أمتار، بل إن أحدهم حاول قذفه بسهم مرَّ بجانب رأسه. يقف إبراهيم أمام الغرفة الطينية، سأل والده بجزعٍ وهو يتطلّع في عثورة الغبار:

- ما الذي يحدث؟

نزل ضاري بسرعة عصبية ليجمع الأغراض.

- ما الذي يحدث في رأيك؟ أُناس تَقتل وأناس تموت. كالعادة.

خرجا بسرعة من الغرفة الطينية، عثورة الغبار تلوح كتلك التي خارج شبوة في حضرموت. ركبا الخيل الأبيض كيفما اتفق، ولكن ضاري التفت فجأة إلى الغرفة، كما التفت إلى سيارته، وكأنه يودِع صديقاً حميماً.

- لماذا لا نسير واللعنة. لنهرب.

همس دون وعي:

- الوعاء.

ولكن إبراهيم صرخ:

- هل جننت. لنهرب.

ركضا بالخيل الأبيض سريعاً حتى انحدرا بعيداً عن التل. أوقفه ضاري فجأة والتفت إلى الخلف:

- لماذا توقفت؟

حدّق في البُعد المفرغ بكآبة مريرة. لقد اختفت جلفار، واختفت عثورة الغبار، واختفت الغرفة الطينية، واختفى فرس الأعرابي. واختفى كل شيء.

* * *

لم يبقَ سوى ستّ سيجارات. ينفث الدخان أمام النار في ظلمة الليل، يجلسان متقابلين على غير العادة. يحدّق ضاري بوجوم في النار، ويحدق إبراهيم بِحَيرة في والده. قال وهو يبلع لقمة خبز:

- هل أنت بخير يا أبي؟

رفع ضاري رأسه بحيرة. قال وهو ينسحب ببطء من شروده:

- لماذا لا أكون بخير؟

- إنني أسأل فحسب.

أطرق إبراهيم لحظة كالمتورط. شعر بضرورة أن يقول شيئاً، ولكنه لم يعرف ماذا أو لماذا. والده يبدو متناقضاً بشكلٍ لا يفهمه، قوياً يوجّه بندقية إلى رأس أعرابي بإصرارِ قاتلٍ متمرس، ومرتبكاً بشيء من الضعف يحدّق بكآبة في الفراغ. قال بنبرة هادئة:

- هل تظن أننا سنجد نجداً ذات يوم؟

نفث ضاري النفس الأخير من السيجارة، دون أن يرفع نظراته عن النار. ثم همس بكثير من اللامبالاة المنهكة:

- لا أعلم. ربما.

لم يكن يعلم أين هو الآن، أيّ طريق يجب أن يسلكه، أيّ اتجاه يستقرّ فيه بيته. يحمل خيشة خبز ورز، وستّ قِرَب ماء، وقوساً

وسهماً، وبندقية بلا رصاص. أطفأ عقب السيجارة واستلقى كجسد مسجى.

لم يتلفت كثيراً في مطلع الفجر، الاتجاهات المكدّسة بالضياع لم تُرعبه. سلك جنوباً دون أن يفكِّر إلى أين يؤدي ذلك.

- هل يفترض أن نتوجه من هنا؟

قال إبراهيم بتردُّد، يستقرّ خلف والده. أطرق ضاري لحظة وكأنه يفكر ببطء، قال وهو يلتفت نصف التفاتة:

- هل تظنّ أننا نتّجه إلى مكان ما؟

فكَّر إبراهيم لحظة ثم قال:

- أليس هذا ما يفترض أن نفعله؟

أطرق مرة أخرى بصمت يتكسّر في صهيل الخيل وحفيف الريح.

- لا يبدو أنّ هذا ما يحدث. كلّ ما هنالك أننا نسير. السير هو الشيء الوحيد الذي نقوم به، ولكن كيف نثبت أننا نتوجه إلى مكان ما؟ ربما كلّ ما نفعله هو أن نسير، ونسير، ونسير.

لم يجد إبراهيم رداً مناسباً. ظلّ متشبثاً في والده الذي يتأرجح بأوتوماتيكية مميتة، يفكِّر دون جدوى.

مرّا بسربِ حمام فوق أشجار الغاف في سهل موحش، صادَ ضاري واحدة بالسهم فطار السرب هارباً. وضع آخر قطرة من توابل الملح والزعفران في اللحم، أكلاه مع الأرز برتابة لامبالية. يحدق ضاري في الخيل، كان قد ازدرد خطوط عرفج وشيح يابس وشرب حصة ضئيلة من الماء، يشعُر بوخزة تأنيب ضمير تجاهه، الرغبة في أن يقدم اعتذاراً لهُ، فالموت بسهام البرتغاليين ربما كان خياراً أقل قسوة.

خرجا من رأس الخليج، وهما يتجهان شمالاً نحو الغرب.

اختبآ في كهف صغير وسط جبل كبير طوال نهار كامل. نفود شرق شمال الربع الخالي تفور بعاصفة سوداء. الصحراء تصارع الريح، والريح يحاول سرقة الرمل، معركة تمتدّ إلى رقعة السماء، ثم تهدأ فجأة دون منتصر أو خاسر. يخرج ضاري وهو يسأل نفسه ككلّ مرة يخرج فيها مختبئاً من عاصفة: أين ذهبت جيوش الرمل تلك؟ من انتصر؟

الخيل الأبيض يسير ببطء شديد، يكاد يعلق في الرمل. بدا غير معتادٍ عليها، ربما ولد في جلفار، لم يعرِف من الرمل سوى ما يهبّ بخفة على وجهه. ثمة بقع برمال ناعمة مفككة تزحف بمن يسير فوقها، فتكاد تبتلعه. سار ضاري على حدودها، يتذكر حينما كاد يغرق في رمال متحركة فوق حافة بحيرة في كندا، أثناء سفرته الوحيدة إلى الخارج قبل سنوات، ماء من الرمال يزحف كالمدّ والجزر، يعوم في أحشائها بخفّة حذرة، يخبره مرافقه ألّا يقوم بحركات خاطفة، أن يستمر في العوم ببطء، حتى يصل إلى الأرض اليابسة. وقف يحدّق فوق تلٍّ رملي ممسكاً بلجام خيله، الشمس تسقط في الشفق، الرمل يطفح بضوء ذهبي شاعري، فكّر ماذا لو ابتلعتهما الرمال هنا؟ أن يحفر الموت لهما قبراً؟ ألا يموتا كتلك الجثة التي تآكل جزء من وجهها، تتدحرج مع الريح حتى تتفتت. هل سيكون ذلك أمراً سيئاً؟

- لماذا توقفنا؟

قال إبراهيم فوق ظهر الخيل بنبرة ناعسة. يحدّق ضاري بتأثُّر في امتداد سطح الرمل الذهبي، يشتبك بالشمس الساقطة كحبة الجمر.

الرمل يتناقص، الأرض تزداد صلابة بسهول حصوية. لم يجدا حطباً يابساً، ولذا ناما في الظلمة الدامسة.

إعياء ضرير يترنّح في وعي ضاري. استلقى كحجر، يكادُ يسمع خرير ماء في المزاريب الخشبية القديمة والسواقي المخندقة. نُدف من الحرارة تغلي في رأسه، يشعر بنغزات مدببة في كل عصب من أعصابه، غشاوة من الإعياء الضبابي، خيوط نوم تجرّه إلى استفاقات مفاجئة، يتطفح متعرقاً بشعور عميق بالرعب. «هل بدأت أفقد عقلي فعلاً؟» يفكر بصعوبة بين اليقظة والإغماءة، معلَّق في غشاء ساطع من اللاوعي. قامَ من مكانه بصعوبة، سار متهادياً في الطريق، يتنفس بقوة، لا يُدرك جيداً إلى أين يذهب، مجرد الحركة ليس إلّا، مجرد الولوج في مدى المساحة المطلقة، يتنفس بقوة، يتهادى منهَكاً يلفح الهواء غلالة العرق الطافح في جلده. تلفَّت حوله، لقد ابتعد منذ زمن، لا يستبين شيئاً من الطريق، القمر مكتمل، الضوء الشحيح يسبح في التراب. أين أنا؟ همس بصعوبة مرتاعة، لقد انقضى زمن على خروجه. لمح من بعيد ضوء نار حول شجرة، مشى بخطوات لاواعية، يقترب منها، شخوص واقفة حولها، تتضح أكثر. رأى ابنه، إنه إبراهيم، همس بذهول متحجِّر، مكمَّم بيدين مربوطتين في جذع الشجرة. ركض متهادياً يكاد يسقط، يقترب بسرعة، الصور تتحرّك أمامه كلوحة انسكب ماء على ألوانها. أحسّ بضربة على هامته فهوى على وجهه، رفعت رأسه يدٌ من الخلف، رأى ابنه معلَّقاً يتدلى من الجذع، مكمماً بنظرة رعب وهو يحاول الصراخ، أربعة رجال يقفون بجانب النار، بأقنعة سوداء.

- من أنتم؟ ماذا تفعلون؟

صرخ بصوت غريب بينما تتحكّم برأسه اليد التي تقبض على شعره. سمع ضحك أحدهم، ثم أخذوا يهتزون مقهقهين. رأى رجلاً يقترب من ابنه، يغرس عصاً مسننة في جنبه ببطء متلذِّذ فيصرخ إبراهيم مكمماً، تتدفق من الجرح حول العصا المثبتة ثلاثة خطوط من الدم الغامق، كشرارات نار تهسهس مندفعةً ثم تختفي. لم يستطِع ضاري أن يصرخ، انتفخت العروق في وجهه وبزغت عيناه برعب متصلِّب أخرس. ركع الرجل الذي يمسك برأسه، همس في أذنه بصوت أجشّ ثقيل «راقب». إبراهيم يلمع في ضوء النار، تفوح منه رائحة البنزين الحارقة. اقترب الرجل الذي غرس العصا نحو ضاري، أقعى أمامه، حدق في عينيه البازغتين برعب مهول. لا يفهم ضاري شيئاً ممّا يحدث، يطرف كثيراً، يفتح فمه بلعاب يسيل لزجاً كمعتوه هستيري، يشعر بشعره يتفتَّت في راحة الرجل الذي يقبض عليه. تطلَّع الرجل فيه لحظة، ثم قال بحسرة ساخرة:

- ثلاث عشرة سنة: في المزبلة.

التفت إلى إبراهيم الذي ينتفضُ بإنهاك والدمّ يتخثر من جرح جنبه حيث تستقرّ العصا. ثم عاد إلى ضاري.

- هل تعلم ماذا كان يقول؟

صمت ليفسح مجالاً للتنبؤ. ثم أكمل:

- ليتني لست حياً.

جعل الجملة تترنَّح في الهواء بثقلها الهائل للحظة طارفة، حيث تهسهس النار ويهتزّ جذع الشجرة الذي يحمل ابنه. ثم أكمل:

- مَن الذي جعله حياً؟ أنت؟

أطرق بذهول مصطنعٍ ثم قال وهو يهز رأسه:

- أيّ خطيئة ارتكبتها يا رجل. أي خطيئة!

الصوت يتحجَّر في حلقِ ضاري، يفتح فمه كالمجنون الذي يحاول قول شيء فلا يستطيع، يخرج صوت من أقصى حلقه كصفير أبواق الحرب، يمتزج بلعابٍ لزج يتدلى من فمه، يريد أن يتحرَّر من القبضة الحديدية الممسكة بشعره، ولكنه لم يعُد يحاول أصلاً. قام الرجل ببطء، رفع غصن شجرة من النار المشعلة، وضعه على العصا المغروسة في جنب إبراهيم المتدلي بألم لاواعي، فسارت النار بسرعة خاطفة نحو جسده، واشتعل كجمرة ينتفض تحت الجذع بصرخات مكتومة، تغلي من فروة رأسه فقاعات يتفزّر منها دماغه السائل، ويتفحم كقطعة ظلام تحترق بضوء قوي. أطلقت اليد التي تمسك ضاري رأسه، فهوى على وجهه غائباً عن الوعي. قام بعد زمنٍ ما برقعة دم متحجر على أنفه الذي ارتطم بالأرض، لم يرَ أثراً للشجرة أمامه، لم يرَ أثراً لرمادٍ وجثّة محترقة. قام متهادياً بين اليقظة والإغماء، أخذ يركض متمايلاً في كلّ اتجاه حتى وجد مكان المبيت، جثا أمام إبراهيم النائم تحت لحافه الثقيل، يلهث بهمسٍ محتقن وعرق طافح وعينان بازغتان وبكاء محتقن، ثم اندلق ببطء على الأرض العارية بجانبه، ونام منهاراً.

* * *

يخاف من النوم. يخاف من المسير وحده. ينتظر من ذاكرته أن تمسح ما رآه، ولكنها ترفض حتى هذه اللحظة. ولذا ينام بخوف مترقّب، يصحو كل لحظة ليلتفت نحو إبراهيم، ثم يعود إلى أحلامه المكركبة. استلقى في الظلمة الدامسة، يكاد يسمع صوت هسيس جثة محترقة، لم يغلق عينيه، ظلّ ينتظر غضبة النوم حتى انقضّت

عليه، فأطبقت برمشيه كجدارين من الخرسان، وغرق في حلم حيادي لا شكل فيه ولا ذاكرة له.

أفاق في الفجر على صوت رجل ركع فوقه بابتسامة لطيفة:

- مرحباً يا غريب.

فزّ من مكانه وقد وضع ساعده فوق ابنه، متطلعاً برعبٍ ذاهل في الغريب. ولكن الغريب أخذ يفرش سفرة مهترئة وهو يتحدّث بإسهاب عن الطقس والطرق. قام إبراهيم بنظرة ناعسة، تطلع الاثنان في التمر المرطب بشهوة متوقدة، أن تأكل شيئاً عدا الأرز الفجّ والخبز المتيبس. انقضا على السفرة باندفاع، فضحك الرجل:

- ترفقا. ستبلعان العبس.

أطرق لحظة ثم قال:

- معك صالح بن سياف الشمري.

تردَّد ضاري قليلاً وهو يلفظ عبستين متلاصقتين، ثم قال:

- معك ضاري.

- ضاري من؟

فكَّر بكآبة في اسمه. ثلاثون سنة أمضاها وهو ينتمي إلى قبيلته، ولكنه انتماء صوري، صدفة محضة. يشمّ نتانة ابن سياف تختلط بنتانة رائحته ورائحة ابنه ورائحة التمر الحارق، ماذا يهم من تكون وسط كل هذه النتانة؟ ولذا قال بشيء من البرود:

- ضاري بس.

فضحك ابن سياف وهو يضع خيوط تبن وعشب للخيل:

- ضاري بس؟ على راحتك، تشرّفنا يا ضاري بس. لم أكُن لأتوقف لغريب لولا أنّ بصحبتك فتى، لا يمكن لأبٍ أن يغدر أمام

فتاه. هاه؟ هل زعلت؟ لا يبدو أنك ترى نفسك فتى؟ نعم أنت رجل، لست فتى، ولا تزعل. ما اسمك؟

- اسمي إبراهيم.

قال بابتسامة واسعة وهو يزدرد تمرة جديدة، معجباً بالطريقة التي يتحدث بها الرجل الغريب، يبدو كبدوي ولدَ من التراب.

- تشرفنا يا سيد إبراهيم.

تولى ابن سياف دفّة الحديث، باسترسال حميمي، علاقة وثيقة تربطه باللغة، كمفردات مختارة بعناية، يبدو مطّلعاً على الأخبار والشعر والحكايات، بلهجة مفخمة الحروف. شكره ضاري بتقشُّف ممتنّ، ثم سأله وهو يستنشق الهواء بشبع:

- من أين أتيت؟

- من مسقط. متّجه إلى الزبير. هل تعرفها؟

- سمعت بها.

سأل إبراهيم بفضول.

- لماذا أنت ذاهب إلى هناك؟

- إنني ذاهب هناك إلى الحياة. لقد عملت بائعاً للكتب ومزارعاً، بل وشاعراً.

ضحك ثم أكمل بنبرة غريبة:

- لقد طفت الأماكن القريبة حتى حفظت معظمها. ولكنني توقفت ذات يوم لأسأل نفسي: وبعدين؟ إلى متى؟ أنت لا تنتمي إلى مكان واحد، يجب أن تخرج إلى فسحة الأرض، يجب أن ترى كثيراً من الأشياء التي تنتظرك. حدقت في المسافات التي تمتلئ بالخيارات، فبدت الزبير مدينة جيدة لأبدأ بها.

ظلّ إبراهيم ينصت بانتباه مستمتع، يترقب والده أن يسأل ابن سياف، ولكن ضاري يلوك التمرة بشرود خامل، وكأنه منفصل عمّا يحدث. ولذا قفز ليسأل الرجل:

- كيف نذهب إلى نجد؟

انتبه ضاري فجأة بغرابة، لم يفكر في طرح السؤال. أطرق بن سياف لحظة وهو يحدق فيه بدلاً من سائله إبراهيم، يتطلع في الاتجاهات، وكأنه يسترجع الخريطة المبرمجة في ذاكرته، ثم أخذ يسرد طرقاً ومسارات يجب أن يتّجه نحوها. ولأن ضاري بدا وكأنه لم يفهم أو يبالي بشيء ممّا قاله، ضحك بن سياف ثم قال:

- اسمع إذاً. خلك معي إلى أن ننتصف على امتداد الظهران، ندخلها ونجلس يومين نتطهّر فيها من الصحراء، وحينها سيكون الطريق سهلاً لأن تصلب مباشرة إلى الوسط، ما رأيك؟

فهزّ ضاري رأسه بصمت، وركب خيله بطواعية لامبالية. أخبر ابنه ألا يقول شيئاً ممّا يحدث، لا يجب أن تكشف نفسك لغريب أبداً.

لم يتفوّه إبراهيم بشيء من ذلك. بدا منشغلاً بلذة الصحبة التي منحها له ابن سياف، الرجل الجذاب ذو الحكايات الكثيرة، يتشبّث بوالده فوق ظهر الخيل، يتهاديان بجانب خيل الغريب المسافر، يسأله عن شيء ما فيجيب باستطرادات مندفعة، ينشد أشعاراً لرجال لم يسمع بهم أحد، ويروي قصصاً لأناس شبعوا موتاً. يغرق إبراهيم في انجرافها بلذةِ مَن يسمع زجاج الوحدة يتكسر ببطء، يبتعد لأول مرة عن ادِّعاء البحث عن نصفه البدوي المفقود، ويبدو مجرد فتى يريد أن يضحك، ويتحدث، ويسمع قصصاً لأناسٍ عاشوا ذات يوم.

ظلّ ضاري مطرقاً أمام سواليفهما. لطالما كره أحاديث الغرباء، اللحظة الوحيدة التي يشعر فيها كمركز للانتباه، بآراء خاصة له كرجل اجتماعي فعال، عوضاً عن مجرد وجود فرديّ هادئ، منزوٍ في مزرعته بعلاقاته وصداقاته المختارة بعناية. ولذا فكَّر بنفسه في انعكاس الشعور الذي نبت أمام عثورة الغبار في حضرموت، وبدأ يتضخّم حتى لحظة الهروب من جلفار: حرفٌ ضئيل في كتابٍ متناهٍ من الحروف، بصقة حقيرة في بحر يتلاطم مبتلعاً كل شيء. انتبه لابن سياف وهو يقول:

- لم أقابل رجلاً يحبّ الصمت مثلك.

فكَّر لحظة وهو يتأرجح بخفَّة رتيبة فوق ظهر خيله.

- كم إنساناً وُجد في رأيك منذ بدء الخليقة؟

أطرق ابن سياف بِحَيرة ثم قال:

- الله وحده يعلم.

- هذا الزمن، منذ أبد الآبدين، كأنه طريق لا نهاية له. هل تتصور أن تسير في طريق لا نهاية له؟

أطرق ابن سياف لحظة. يقطعون صحراء تبدو وكأنها تشتبك بالسماء في نقطةٍ ما بعيدة، حمرة الغسق في الغروب تتساقط فوق الرمل الذهبي وكأنه طريق يصعد إليها، بينما تزفّهم الريحُ بحبيبات الرمل التي تلاطف مودعةً وجوههم. . قال ابن سياف:

- لقد قال شخصٌ قديمٌ أنّ الزمن يهدِم كلّ شيء، يهدم العمر والمدن والأعراق والقبائل، ولكنه يبني التاريخ. وكأنّ كل ما تمّ هدمه أُخِذ لتُبنى بهٰ القصص والأساطير. يَهدم من جهة، ويبني من جهة.

- وكأنّ الزمن موظّف يعمل لدى التاريخ.

فقال ابن سياف ضاحكاً:

- ما لنا وللزمن والتاريخ وكم من رجلٍ عاش وكم من مدينة هدمت وكم وكم. الحياة تمرّ والإنسان يُحدِّق. كفاك تحديقاً.

صاد ابن سياف ببندقيته أرنباً برياً، طبخا جزءاً منه وأكلاه مع الخبز. أخذَ ضاري منه عدَّة رصاصات وضعها في بندقية الأعرابي المحمَّلة فوق خيله، بجانب السهم والقوس، لمحهما ابن سياف فانخرط ضاحكاً، أخذ يروي كيف كان يحارب الأقدمون، الأسلحة والجياد والترسانات. يجلسون متحلقين أمام النار، تقتل قليلاً من رائحة العرق والقذارة الملتصقة بأجسادهم. انتقل ابن سياف باستطراد ليتحدث عن اقتحام العثمانيين للقصيم، القصص والسباحين والخرافات، فينصت إبراهيم بإطراقة مكدسة بالانتباه الشغوف. رمقه ضاري بطرف عينه، بدا ابنه جميلاً في انعكاس ضوء النار، الحرارة التي يشعر بها في مشاركة رجل غريب، تجعله يبدو وكأنه يضيء بألقٍ سحري. قام من مكانه وقد غرس غصناً في النار، ثم قال مستبقاً تعليق ابن سياف:

- سأذهب لأطيّر الشراب.

مضى حتى اختفى رجيع صوتيهما في الصمت، لا صوت سوى الريح تخفق في الفراغ. أخرج علبة الدخان، لم يبقَ سوى أربع سيجارات فقط. أشعل إحداها برأس الغصن المشتعل، ثم رماه ليغرق في الظلمة والدخان.

ما هو الزمن؟ فكر ضاري وهو يحدِّق في حمرة الغسق في الغروب. كم يوماً مرّ؟ يتهادى برتابة فوق خيله، يترنح حول أذنه

صوت ابن سياف يتقاطع مع صوت ابنه، كدبدبات الذكرى المنسية تزحف من أقصى الذاكرة السحيقة.

الخيل يصهل بألم، يضرب بصعوبة في كثبان الرمل. قِرَب الماء الستّ توشك على النفاد. لمح إبراهيم قبل الغروب خيال مدينة في امتداد البصر.

- أنظر. هل وصلنا؟

كانا قد تقدّما عدة أمتار عن ابن سياف، حينما توقف للتبوّل دون أن يبلغهما. التفت ضاري نحوه وهو يقول:

- أظنّ أننا على مشارف مدينة ما. هل نحن على امتداد الظهران؟

ولكنه لم يجده. حدّق دقيقة بترقُّب واجم، ينتظره أن يلجَ بؤرة النظر من البُعد الذي تأخر فيه، ولكن لا حركة. همس وهو ما زال يحدّق في الفراغ بمقتٍ:

- ماذا كنت تتوقع؟

قال إبراهيم بنبرة ذهول:

- أين ابن سياف؟

فردّ ضاري ببرود شديد:

- مدن تختفي ولا تريد من رجل أن يختفي؟

استدار متجّهاً إلى الخيال الذي يبدو كرؤوس السراب. ظلّ إبراهيم ملتفتاً فوق ظهر الخيل، يحدّق في الفراغ الذي اختفى فيه بن سياف، يترقّب خروجه في أي لحظة بنظرة رثاء كئيبة. اقتربا من البقعة دون أثر له، فاستدار إبراهيم بيأسٍ منهزم نحوها.

لم يكن ثمة مدينة أصلاً، مجرد أثرٍ مهدم بجانب الطرف الأيمن من بحيرة الأصفر، بين كثبان الرمل الزاحفة.

- ماء.

همس إبراهيم وهو يحدق في البحيرة بذهول، تختلط مع السراب، تحوم حولها حشود من البعوض والحشرات. أطرق ضاري بوجوم متحجِّر، ازدرد ريقه ثم قال:

- لا يمكن أن تعرف متى تكون الصدفة في صفّك، ومتى تكون في الصف الآخر.

شرب الخيل بلذّة، يصهل بعد كلّ جرعة بشغف. ستحمل الصدفة أيضاً صديقاً لم تتوقعه، فكّر ضاري وهو يربّت على رقبته، يأكل العشب الكثيف الذي ينبت على الأطراف.

اغتسلا في البُحيرة بعد أن عبّأ إبراهيم القِرب. لا أثر لحركةٍ ما، الرمال فقط تزحف ببطء، تُكوّن كثباناً ستبني بعد زمن حبساً عسيراً حول البحيرة. ناما بجانبها، طبخا سمكة صغيرة صادها ضاري بيده مع قليل من الأرز. ثم تجاوزاها في الفجر.

* * *

الشمس تستحلّ الظهيرة الشتائية، دفء الأشعة تمتزج مع الريح الباردة.

الغروب البرتقالي يناقض قفر الخواء، حمرة الشفق المتوهّجة مع صفرة الشمس المحتضرة.

ثم الفجر، الزرقة الداكنة يكللها الضوء البعيد، يتسرّب من حيث ترتقي الشمس سلّم الشفق. شاعرية السماء في مطلق الصحراء

المقفر. يكره الصحراء، ويحبها. علاقة معقدة لا يفهمها ابنه، يسأله في كل مرة يقف فيها فجأة أمام الشروق والغروب، ليحدِّق بنظرة ساهمة. ولكنه حتماً يكرهها، أكثر بقليل من حبه لها، وهو ما يضاعف نقمته: أن تكره شيئاً تحبه.

طبخا آخر حبّة من الأرز، لم يبقَ سوى قطعٍ من الخبز. يحدّق ضاري في التراب، فيتذكّر كيف ملأت العواصف الثلاث بطنيهما. يجلسان بصمت مطرق أمام النار، رائحة الأرز المطبوخ دون طعم تنخر نتانة الأثير. قلّب علبة الدخان بين يديه، لم يبقَ سوى سيجارتين فقط. التفت إلى إبراهيم النائم أمام النار، يسترجع رائحة التبغ الهلامية كحلم قديم. دخّن واحدة بكآبة شاردة، يحدق بوجوم متحجر في السيجارة الأخيرة.

الخيل الأصيل يأكل الأعشاب والحشائش المتيبسة وقطع الخبز بشفتين مقددتين، يشرب الماء من نقع المطر الآسنة ويقاسمهما نصيبهما. اغبرّ وجهه الكالح في بياضه، وانعقد شعره المنسدل بخفة. لقد نسي جلفار حتماً، فكَّر ضاري بذلك وهو يحدق فيه، كما نسي هو المجمعة، يحاول أن يتذكرها فتغيب في ضبابية ذاكرته المتشظية.

سمع خرير ماء يتسرّب من بعيد. لاح أمامهما سهل بأشجارٍ وأجمات تحوم حوله الطيور، يفوح برائحة الندى العالق في الأوراق، ويتدثّر بالزرع الأصفر الطويل كخطوط القمح وأجمات الحشائش الخضراء، يخترقها الخيل كخطّ طائرة تقطع صفحة غروب أحمر. تجاوزه إلى حافة وادي الباطن الذي يتفرع من وادي الرمة، حينما كان نهراً أثناء آخر دور في العصور المطيرة، في شبه الجزيرة،

يوشك على الانقراض بلفحة الجفاف التي تضرب الجوّ حولهما.
الماء يتحرك باعتيادية مملّة في الوادي الواسع، تلمع زرقته في انعكاس ضوء الشمس الباهتة وراء الغيم، تراجع اندفاعه بعد حقب الجفاف التي أعقبها رجوع المطر بخفة أقل من السابق.

نزل ضاري فلحقه إبراهيم. قال بنظرة ذاهلة:

- أين نحن؟ هل هذا نهر؟

- لا أعلم.

أطرق إبراهيم بحيرة.

- ألا يُفترض أن نسير غرباً لنصل إلى نجد؟ كما قال ابن سياف؟

ولكن ضاري ظلّ صامتاً، يتطلّع أمامه بنظرة متحجِّرة. على الضفة الأخرى ثمة قطعان من الغزلان والمها تتراكض فوق الزرع الأصفر، رؤوس طائر النعام تتطاول بجانب تلّ مكدّس بالشجر. الزرع والحشائش بدأت تتقلص بفعل الجفاف، فتختفي بعض الحيوانات العاشبة وتختفي معها كثير من الحيوانات المفترسة. نزل من الحافة، وقف أمام امتداد النهر الأزرق يشقّ الغرب، يشتبك في آخر مداه بالسماء الزرقاء المرقَّعة بالغيوم، فيبدو وكأن السماء تسكب زرقتها فيه، أو أنه يصبّ زرقته في السماء. سأله إبراهيم من جديد وهو ينزل من الحافة يجرّ الخيل:

- يبه سمعتني؟

زفر بتبرم جرّه من تأمله المتأثر.

- لا أعلم.

ثم استدرك بِحَيرة باردة:

- هل وصلنا إلى المنتصف؟ كم يوماً سرنا منذ قابلنا الرجل؟

فكر إبراهيم بقوة، ولكنه لم يستطع تحديد ذلك. الإحساس بالزمن يبدو كخط في الرمل. تخلص ضاري من الورقة المقصوصة منذ مدة طويلة، لم يكن مقتنعاً بعدد القصّات في طرفها. قال وهو يضع قدميه على حافة الماء:

- سأسبح.

جلسا بقية اليوم أمام النهر، تحوم حوله الطيور المائية، وتلوح أمامهما بعض حمر الوحش الشاردة والأرانب البرية والجمال. بقيت عدّة قطع كافية من الخبز، طبخا جزءاً من حمامة كان قد صادها قبل أيام بالقوس والسهم، بعد أن استهلك الرصاصات. خرير الماء الجاري ببطء يزحف في عمق الظلمة، رائحة طين الشاطئ تترنح بخفة حلمية، أصوات الحيوانات في الليل تبدو أكثر إثارة للرعب. قلَّب ضاري علبة الدخان، سيجارة واحدة فقط. أعادها إلى جيبه وهو يحدق في النهر، لقد سبح فيه ابنه، ولكن إبراهيم لم يبدُ طفلاً «يطافش» في الماء، كما بدا في وادي أذنة. يفكر أنّ كلاهما قد تغير. يطأ النعاسَ كقدمه التي تطأ حافة الشاطئ، بانجراف شاردٍ عميق، يتطلع في أكوام الشجر المتراصّ، بنظرة شكّ باردة. قال فجأة:

- هل كنت فلاحاً يوماً ما؟ أم أنه شيء دفعني والدي لأن أشعر به؟ هل أحببت الشجر أصلاً ذات يوم؟

انتبه إبراهيم بشيء من الحيرة، لم يملك جواباً مناسباً، لأنه لا يفهم ما دافِعُ والده لقول ذلك. ولذا أطرق مترقِّباً، ولكن والده لم يكمل، وكأنه لم يقُل شيئاً أصلاً.

الفجر يزحفُ بغيم باهت، زخّات من مطر تتساقط بخفّة. سار لوحده في السهل المكدّس بالشجر والأجمات الصفراء القمحية، يبحث عن تلك الشرارة القديمة، حينما كان يربط كل شيء جميل بالشجر. ولكنه لم يجد شيئاً. وقف بوجوم، ربما يخرج من وراء تلك الشجرة أسد بلا فريسة، يحدِّق فيه بعِداء، ولكنه يقرِّر ألّا يتركه هذه المرة، ينقضّ عليه، يمزِّقه إرباً، يموت بين كل هذا الشجر، وكأنه يموت بين ذكريات منطفئة. حفيف الأغصان يتحرّك برتابة بليدة، قطرات الماء المعلقة تسقط من الأوراق، الأصوات تزحف بكثافة مفخمة. يفكِّر لأول مرة: كيف سينجو إبراهيم إن مات هو؟ ولكن هل سينجو إبراهيم معه؟ وما هي النجاة أصلاً؟ الطيور التي تشمّ رائحة الماء تحوم في السماء. التفت ضاري عن يمينه فرآه. قال بنبرة غير متفاجئة:

- أنت مرة أخرى.

كان الرجل ذو الظلّ الشبحي، ولكنه يبدو هذه المرة واضحاً تحت ضوء الشمس المتكسّر بين الغصون كالصفائح. يضع قبعته المدورة نفسها التي تنحدر هامتها لتغطّي جبينه وحاجباه بغموض، ويلبس هذه المرة بنطال جينزٍ ضيقٍ وجاكيتة سوداء بأزرار بيضاء، يبدو كرجل من رجال الغرب الأميركي الذين يحبّ ضاري مشاهدة أفلامهم. يتكئ على الشجرة برتابة خاملة جذابة، تلوح على ملامحه وسامة حجرية صارمة. قال ضاري وهو يتطلّع نحوه بنبرةِ مَن اكتشف أخيراً سراً كان يحيّره:

- إذاً أنت حقيقي.

- لماذا تقول ذلك؟

- لأنني لا أهلوس الآن.

- ومَن قال أنك لا تهلوس؟

- لأنني لستُ مريضاً بالحمى.

- وهل الهلوسة مرتبطة بالحمى؟

تحرّك ضاري في مكانه بمقت:

- إذاً أنت لست حقيقياً؟

- وما هو الحقيقي؟

ضحك ضاري وهو يطأطئ عينيه وينكث الأرض بحدّ حذائه.

قال وهو يهزّ رأسه محدِّقاً أمامه:

- أنا لا أعلم مَن تكون. ولكنك كائنٌ مريض.

فقال الرجل بدهشة مفتعلة:

- أنا؟ لماذا بس؟

- لماذا تحب هذه الألاعيب؟ لماذا لا تقول مَن أنت وماذا تريد ببساطة؟

فرفع كتفيه بخمول وهو يتصنّع يأساً ساخراً:

- ربما لأنني لا أعرف مَن أنا وماذا أريد ببساطة.

- يا لك من مسكين.

- هل تعرف أنتَ مَن أنت وماذا تريد ببساطة؟

حدّق فيه ضاري بنظرة باردة حادّة، ازدرد ريقه وعضّ شفته السفلى بشيء من العنف البدائي. فقال الرجل بنبرة مبتسمة يلوح فيها شيء من الانتصار:

- لا نُبل في المعاناة. لا نبل في البحث. لا نبل في القلق. هل تعلم من أنت؟

- نعم أعلم.

- لا، لا تعلم أيها الصديق الغارق في تيهٍ لا نهاية له. أنت جزء صغير من كون لانهائي، كواكب ومجرات ونجوم تنطلق إلى أبدية الفضاء الشاسع. هل تعلم أين يقف الفضاء؟ إنه لا يقف، إنه لا ينتهي، إنه نسخة العدم الذي تقطن فيه كل الأشياء. وفي بقعة صغيرة جداً، كوكب، وفي نقطة صغيرة منه، أنت. أنت باعتبارك طفرة جينية، والدك كان قرداً، ثم كان مهجّناً بلا أسنان، ثم حيواناً يأكل الجيف، ثم ثم ثم. ثم إنساناً يقتل ويسرق ويبرِّر ويحاول أن يفهم في لعبة الكون اللامنقطعة، تضحك عليه الكائنات العظيمة في الكواكب الأخرى التي تملأ الجوف اللانهائي للوجود، حيث فهمت منذ آلاف السنوات أنه لا نبل في الحياة، لا نبل في الجدوى.

ثم قال بزفرة ساخرة:

- آه يا صديقي الصغير كم أرثي لك.

يحدِّق ضاري في الأرض بوجوم متحجِّر، وكأنه لا يسمع شيئاً ممّا يقوله. أكمل الرجل بنبرة رقيقة:

- هل أنت خائف؟ هيا أخبرني، لا تكن عنيداً. هل ثمة نبلٌ في الخوف؟ هل تشعر بنوع من التجلي حينما تخاف؟ أم أنه جحيم، قيدٌ لعين يكبّلك؟

ولكن ضاري ظلّ يحدق في الأرض بابتسامة باردة، يحشد كلّ قوته لتصنع سخرية لامبالية، بينما يلاحظ سنجاباً صغيراً يمرّ بين سيقان الزرع القمحي. فهم الرجل ذلك فقال بابتسامة خبيثة:

- لقد مات البدوي.

رفع ضاري رأسه بسرعة، تطلَّع بانتباهٍ حادّ ونظرة شكّ فضولية،

ولكنه بدا أكثر إنهاكاً من أن يُكمل المبالاة التي بدأها، فاعتراه فتور طفيف وأشاح بنظره. أكمل الرجل ببرود مستفز:

- إذاً. أنت الفائز.

لم يستطِع ضاري السيطرة على نفسه، قال أخيراً بحدّة غاضبة وكأنه يريد تأكيد وجوده بمعارضة صمته الذي بدأ يزعجه:

- بماذا؟

هتف الرجل بطريقة خطابية ساخرة كشخصٍ يدعو إلى نبوءة ما:

- هل نسيت؟ الانتقاء الوجودي الذي قبلتَ في سبيله إرسال رجل إلى الضدّ في لعبة الكون الكبيرة اللامنقطعة حيث تفقد جدالات الحجج الأخلاقية قيمتها وضماناتها ولا يبقى سوى الحجة الواقعية لانتصار شخص وفشل آخر.

ثم رفع يديه مشيراً إلى كلّ ما حوله بنشوةٍ مفتعلة.

- هل أنت راضٍ بالنتيجة؟

ولكن ضاري لم يردّ، طأطأ رأسه ليحدّق بوجوم في الأرض.

ظلّ الرجل يتطلع نحوه بابتسامته المائلة بخبثٍ منتصر.

- لأنك لا تبدو راضياً.

- أنت لا تعلم بماذا أشعر. صدقني.

ضحك الرجل وهو يلوّح بيديه:

- إنني أعلم بالضبط، بل أعلم أكثر ممّا تعلم.

ثم أكملَ بشيء من الحرارة التي تبدو غريبة على صرامته الساخرة:

- لماذا تصرّ على كلّ هذا؟ أخبرني فقط لأنني لا أفهمك، لا يمكن أن أفهمك. كفاك بحثاً. هل تظنّ أن الجدوى تسقط من

الأشجار؟ هل تظنّ أن قوة عظمى تصنعها؟ أنتَ الذي تصنع الجدوى بكلّ خصوصيتها التي تفوح منها رائحة الاختلاق، ثم ترميها معصوبَ العينين في مكانٍ ما لا تعرفه، ثم تبحث عنها وأنت تشعرُ بنبلِ الحياة التي أتيتَ إليها دون قصد. توقّف حباً بالله، لا تقبض على الشمس، لا تحلم بالعدم، ولكن توقف على الأقل، استسلم، اهدرْ حياتك في انتظار لحظة الخلاص.

رفع ضاري رأسه بابتسامة مريرة وهو يتطلع في الفراغ:

- إنك تعرف كل شيء إذاً.

- إنني أعرف ما يكفي.

أطرقا بصمت رخيم. زقزقة العصافير التي تحلق بين الغصون، وخرير الماء الذي يتسرب من بعيد، وحفيف الورق مع الريح. قال الرجل:

- من أنت إذاً؟

- أنا رجل لا يريد الإنصات لك.

- إذاً لماذا ما زلت تقف هنا؟

طأطأ ضاري رأسه بانكسار. صمت الرجل لحظة ثم أكمل وكأنه يحاول أن يتذكر:

- كم زمناً مضى منذ أن رأيتك آخر مرة؟

أطرق ضاري بارتباكٍ، أخرج يديه من جيبيه وتحرّك في مكانه بشيء من التوتر، أراد أن يلتفت ليحدّق بعنفٍ في الرجل، ولكنه أمسك نفسه بصعوبة، لا يجب أن يمنحه شعور الرضى بأنه استطاع استفزازه أخيراً. قال الرجل بصوت هامس تتخلله نبرة ساخرة مستفزة:

- أنت لا تعرف كم مضى. أليس كذلك؟

ولكن ضاري لم يردّ، يحدّق في المدى بنظرة شك متحجِّرة يداخلها شيء من الجزع، يلاحظ خطوط الحفر المتعرِّية على جبل بعيد بجانبه تل صغير. فأكمل الرجل ببرود وكأنه يقول معلومة عابرة:

- أوّل علامات الجنون هو أن تفقد الإحساس بالزمن. هل تعلم هذا؟ بعد ذلك ستبدأ بفقدان الارتباط بذاكرتك، الارتباط باستيعاب ما يحدث حولك، ثم ستبدأ في تعويض فراغ الذاكرة والاستيعاب باختلاق الأشياء، باختلاق الأسماء والأماكن والصور. هذا هو الجنون، اختلاق الأشياء لتعويض عدم قدرتك على فهم أو استيعاب ما يحيط بك. هل بدأت تفعل ذلك؟

ولكن ضاري ما زال يحدِّق في الجبل والتل، يتنفّس بقوة أكبر، يشعُر بجزع أشدّ سطوة وعنفاً. أكمل الرجل وهو يزفر زفرة طويلة بشيء من الخمول:

- إنني أحسّ بما تمرّ به، صدِّقني. من الصعب أن تكون إنساناً. كلّ هذا سينتهي ذات يوم. هذا كل ما أستطيع أن أوفره لك من مواساة.

رفع جسده عن الشجرة مُعلناً نهاية مشهده، سار بخطواته الرتيبة أمام ضاري الذي رفع رأسه ليتطلّع نحوه. يحدِّقان في بعضهما بتناقض. قال الرجل وهو يشير إلى الشمال:

- هل تعلم أنك ستصادف مدًنا كثيرة؟

ولكن ضاري التزمَ بعدم الردّ، ليس عن قناعة وإنما بذهول متصلِّب، يحدِّق فيه بحدّة متألمة. فأكمل الرجل برقَّة صادقة في قسوة وجهه الوسيم:

- هل تذكر أصلاً إلى أين تريد الذهاب؟

حزنٌ ثقيل يطغى على نظرة ضاري، تصطبغ ملامحه بوجومٍ حجري كالحٍ، وكأنه يريد البكاء ولكنه لا يستطيع. استدار الرجل وسار بخطواته الرتيبة الخاملة، حتى اختفى وراء الأشجار.

طأطأ ضاري رأسه، الشعور بالألم لم يعُد مفاجئاً، تصاحبه أحياناً خفة غريبة، خفة اللامبالاة اليائس، الانهزام الذي يجعلك تشكر الله على أنه أرسل لك يأساً يخلِّصك من الركض في الأزقة وراء وهم ما. فكر أن كل شيء ربما يبدو خالياً من المعنى فعلاً، من الجدوى، كلّ شيء يسير إلى نقطة ما، لا أحد يستطيع التنبؤ بها، الحياة ليست سوى الحفاظ على الموارد التي تملكها، وليست البحث عن نتيجة ما، الخيارات قسوة يجب القيام بها منفصلة عن تبرير الحياة بنُبلٍ وجوديّ، عن كل ما قد يكون غير موجود. مضى عائداً إلى الوادي بكآبة متحجرة، يركل الحصى بخفةِ مَن لا يملك شيئاً ليخسره.

كان إبراهيم قد عبأ قِرَب الماء، ويحمل الأغراض فوق الخيل.

- هل نذهب غرباً؟

أطرق ضاري وهو يرمي البندقية على الأرض:

- سنستمر بالسير إلى الأمام بمحاذاة الوادي.

تطلّع إبراهيم في البندقية.

- ألا يجدر أن نأخذها في حال وجدنا رصاصاً؟

هزّ رأسه برتابة وهو يركب الخيل:

- لن نجد رصاصاً.

واصلا السير بمحاذاة الوادي، يمرّان على ما بقي من حيوانات تتغذى على ما بقي من الحشائش، أسدٌ رابض في مدى بعيد لم ينتبه لهما، قطيع من بقر الوحش يركض كأطفال يلاحقون الكرة. تختفي سهول الشجر والزرع الأصفر قطعة قطعة، حتى استحكم خواء الصحراء من جديد، وبدا وادي الرمة أخدوداً فارغاً من الصخر والتراب والأشجار المتحجِّرة على ضفافه كالخشب.

لم يَصِد شيئاً من كل تلك الطيور والأرانب والغزلان التي تحوم حول النهر، يُصرّ إبراهيم بحدّة فيلتفت نحوه بابتسامة غريبة:

- لماذا لا تصيد أنت؟

يأخذ إبراهيم القوس، يطلق السهم فلا يصطاد شيئاً، يحتاج إلى مزيد من التدريب، ولكن لا وقت لذلك، سيختفي كلّ شيء باختفاء الماء، وسيختفي الماء كغيره حتماً. يعودُ إلى الخيل وهو يحدِّق في والده، ثمة شيء غريب يحدث.

لم يبقَ سوى كسر من الخبز. قطع من التمر اليابس متساقطة من شيص نخل شارد، لا أكثر. يربت ضاري على الخيل الأصيل فيركض بأقصى سرعته. صاد إبراهيم أخيراً أرنباً في مجموعة هربت من السهم الأول الطائش، أمسك به ورفعه في وجه والده بابتسامة انتصار، فهزّ ضاري رأسه مبتسماً:

- إنك تتحسن.

- أتحسن؟ قريباً سأصيد دخّلاً من مسافة كيلومتر.

الطريق يتعرَّج في تلال صخرية وسهول حصوية. يستنشق ضاري رائحة التّراب المبلل بالندى اللزج في شتاء خميمي، يمخُر في أنفه بجاذبية مغناطيسية. يمرّان بجبل سنام الصغير كرأس ملحيّ في ثكنة

من صخور الجص وأحجار الجير، شاحبةٌ شحوب الموت، وكأنها فخورة بعمرها الذي يتجاوز عمر نشوء الإنسان.

لاحت على يمينه رقعة سواد بعيدة، بين مدينة الزبير وشطّ البصرة، كلما اقترب منها توسعت لتكشف عمّا يبدو كجيش مرابط، نقاط صغيرة متراصة. جيوش عائشة بنت أبي بكر والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، يقفون أمام جيش علي بن أبي طالب، خارج مدينة البصرة القديمة التي سُميت لاحقاً بالزبير. تجلس عائشة في هودج جَمَلها خلف صفوف المحاربين، يتوزّعون برتابةِ مَن يستعدّ باستسلام للموت.

- من هؤلاء كلهم؟

همس إبراهيم بترقُّب. تراجع ضاري بِخَيْله وهو يتَّجه إلى اليسار، حتى وقف يحدِّق من بعيد في بؤرة اللاوضوح، رقعة السواد في البُعد المدجَّج بالموت، تنكمش في المسافة الكبيرة التي تفصل بينهما.

- هيه. أنت.

التفت ضاري مرتعباً إلى يساره. ثمة رجلٌ يجلس بخمولٍ أمام ساقِ شجرة طلحٍ بين عدّة أشجار، محدِّقاً برتابة فضولية، يمسك بقارورة في يده اليمنى.

- تعالَ واجلس معي.

ثم أكمل بإغراء:

- معي خمر وتمر وماء ولحم.

تردَّد ضاري فوق خيله بحذرٍ. همس إبراهيم بإصرار:

- لا تذهب. شكله مجنون.

رقعة السواد البعيدة عن يمينه، والرجل ذو الخمر والتمر والماء واللحم عن يساره. اقتربا من الشجر، نزل عن خيله وهو يقول لإبراهيم:

- لا تنزل. كن متوثِّباً.

جلس بحذرٍ بجانب الرجل الذي قرّب السفرة بنظرة سكرى ممتنة.

- لقد سرقتها من المعسكر وتسلَّلت إلى هنا، إلا الخمرة فقد هرَّبتها معي. إذا كنت سأموت فسأموت شبعان.

هزَّ ضاري رأسه بارتباك. يرمق السفرة المليئة بنظرة متوثبة.

- لا تبدو ممّن على وشك الحرب هناك، كنت سألوذ بالصمت وأنا أشاهدك من بعيد، بل إنني أوشكت على الهرب خوفاً، ولكنك حينما اقتربتَ تأكّدت أنك لستَ من هؤلاء، ملابسك ليست ملابس حرب. هل أنت من هؤلاء؟

- لا. أنا مارّ من هنا.

ضحكَ الرجل ضحكة سكرى خاملة، تخرج محشرجة من أقصى حلقه.

- أن تمرّ تحديداً في هذا المكان في مثل هذا اليوم اللعين. لا يمكن لأحد أن يفهم الصدفة، أليس كذلك؟

صمَت ثم قال فجأة:

- هل تعلم من سيتقاتل هناك؟

- لا.

- ولا أنا. لقد جرّوني إلى هنا باسم الله والشرف وأشياء أخرى لا أذكرها. لماذا لا تأكل؟

- سأقتسمه لاحقاً مع ابني. هل ستمنحني إياه؟

- طبعاً طبعاً.

ولكنه استدرك بحرارة مندفعة:

- إلّا قارورة الخمر. هي لي وحدي. هل تريد جرعة؟

- لا بأس.

سعل ببحّة ثقيلة. الصمت يتأرجح بينهما، رائحة الأغصان والتراب والشؤم المتربص. قال وهو يُحدّ بصره تجاه الرقعة السوداء البعيدة:

- أما زالوا يستعدون للموت؟

فكَّر ضاري منصِتاً لصرخات المقاتلين وصهيل خيولهم، تتسرّب مفخمة من بعيد، وكأنها تنقع في أبدية الخلود البطولية، ويصل منها أثر طفيف خاطف كخيط الدخان.

- يبدو وكأنهم يستعدّون للنصر.

فكرَّر الضحكة نفسها السكرى المحشرجة:

- وهل سمعت قتيل حرب يستعدّ لغير النصر؟

قال ضاري بأوتوماتيكية:

- إذاً تظن أنهم سيخسرون؟

فردّ الرجل بشيء من الحدّة:

- طبعاً هنالك طرف سيخسر.

أطرق لحظة بعمقٍ شارد ثم استكمل:

- أن تموت في صفّ جيش منتصر، فهو أمر قد أقبل الجِدال فيه. ولكن أن تموت في صفّ جيشٍ خاسر؟

هزّ رأسه بامتعاض متقزّز:

- الجدوى المُهدرة تمنح شرفها الرفيع لقتلى الطرف الخاسر.

شرب جرعة طويلة من القارورة. أطرق دقيقة بصمتٍ متحجِّر، تكسو ملامحه غلالة سوداء، يحدق أمامه بكآبة مأسوية. همسَ بصوتٍ لا يكاد يسمع:

- أنا لا أريد أن أموت.

التفتَ ضاري إلى الرقعة السوداء البعيدة.

- لماذا لا تهرب إذاً؟ لا أحد يراقبك، لا أحد يراك.

- وأين سأذهب؟ لا أستطيع أن أعود إلى بيتي هارباً، سأوصَم بالعار. يجب أن ألطِّخ سيفي بدم غيري أو يلطِّخ غيري سيفه بدمي.

أطرق لحظة ثم أكمل بعمق:

- ألا تفكر لو أنك وُجدت في زمنٍ مختلف. ماذا ستكون؟ زمنٌ لا يوجد فيه كل هذا. هل تفهمني أيها الغريب؟

- ولكن هل يوجد زمن لا يوجد فيه كل هذا؟

ابتسم بحرارة:

- لا أعلم. كل ما أعلمه هو هذا الزمن الذي أعيش فيه، هل تعرف أحداً يبادلني بزمنه؟

هزّ ضاري رأسه بشيء من التأثر، الحمرة المغرورقة في عين الرجل تفضح ضعف الانهيار. قال بنبرة جليدية:

- سنموت لاحقاً على أية حال. الحياة هي رجفة الموت ليس إلّا، ستون سنة، سبعون سنة، مائة سنة، أياً كان، تطول الرجفة أو تقصر، ستظلّ الحياة رجفةً لموتٍ ينتظر عند الباب.

يحدّق الرجل في الأرض بنظرة متحجِّرة، تجرّع جرعة أخيرة ثم قال وهو يستجمع جأشه:

- إلى الموت إذاً.

قام من مكانه لا يحمل غير القارورة، ركب خيله بخفّةٍ لم تتأثر بسكره، ومضى دون أن يلتفت إلى ضاري. يركض نحو رقعة السواد البعيدة، حتى اختلط بها.

نزل إبراهيم عن الخيل، أخذا يأكلان ويشربان بسرعة، يتطلعان في الرقعة السوداء، بصمتٍ مطبق.

جمعا المؤونة وركبا الخيل. حدّق ضاري برتابة لامبالية في المدى. قال إبراهيم:

- هل نذهب غرباً الآن؟

التفت ضاري نصف التفاتة:

- لماذا تصرّ على الذهاب غرباً؟ ماذا تظن أنه يوجد هناك؟

تردَّد إبراهيم لحظة ثم قال:

- نجد.

- كيف تعلم؟

- ابن سياف ق.

قاطعه ضاري بسرعة:

- تقصد الرجل الذي اختفى فجأة في الفراغ؟

أطرق إبراهيم بشيء من العجز، لم يعُد يفهم كثيراً ممّا يتفوه به والده. أكمل ضاري بحدة حاسمة:

- سأوازن المسألة: سأذهب شمالاً، وسأميل قليلاً إلى الغرب.

لكزَ الخيل بخفة، التفت إلى رقعة السواد التي تتضاءل عن يمينه، حتى اختفت.

السهول المنبسطة بنباتات العناقية البيضاء والأقحوان الأصفر كشمس يخالطها سحاب خريف، نسيم السموم يهبّ مرقَّقاً بماء مطر لا أثر له. أعاد طبخ اللحمة في الليل، خالية من الملح والتوابل، ولكن عصارتها تتراقص في الفم بانسياب، يتذكّر جلفار بلذعةٍ حارقة من الأسى المنطفئ، خيوط القميص القطني تتحجَّر، لم تعُد تداعب صدره كَيَدِ فتاة ناعمة. لم يحلم مرة أخرى بفتاة كطعم الخوخ الناضج. انتبه لإبراهيم بجانبه، لم يعُد يتطلع فيه كثيراً، لقد اعتادا الصمت المطبق، يمضغان أمام النار بانتباهة مُفرغة.

أخرج علبة الدخان، سيجارة واحدة فقط، قلّبه بين يديه. حدّق في ابنه النائم بشبعٍ. يكاد يشم رائحة التبغ، تتضوّع من ذاكرته. ولكنه أعاده بكآبة.

* * *

زُرقة الفجر تموج كالبحر المعلق، الريح الجافة تصبغ الهواء. انتبه إبراهيم عن يمينه:

- هل هذا هو بحر الخليج؟ لنذهب غرباً الآن، لقد انتصفنا حتماً.

اقتربا من نهر الفرات، وقفا أمامه بنظرة حائرة، الضفة الأخرى تبدو قريبة.

- هل هذا نهر آخر؟ أين نحن بالضبط؟

ولكن ضاري لم يجب. نزل ببطء لامبالي، عبّأ القرب وأورَد الخيل إلى النهر، ثم نزل فيه ليسبح، فتبعه إبراهيم بعد عدة دقائق من التردُّد. قال فور نزوله:

- هل يجب أن نعود إذاً؟

أطرق ضاري مغمَضاً عينيه، يشعر بالماء البارد يقطر من فروة رأسه، يمسح طبقة الجلد الناشف بحنوٍّ ملائكي.

- إلى أين؟ ليس هنالك مكان نعود إليه. سنستمر في طريقنا.

خرج إبراهيم من النهر بِحَيْرة متشككة. يحدّق في والده، فيكاد لا يعرفه. يحدّق في الطريق، فلا يستبين شيئاً. يحدق في ذاكرته، فلا يتذكّر شكل والدته، ومبنى مدرسته، وشارع حارته، والسيارة التي تركاها تحت شجرة الطلح. يحدِّق في الماء فيرى وجهاً غير وجهه. أن تعود، أن تتقدم، أن تقطع النهر، لا يعرف شيئاً، مربوط بحبل في والده. ولكن ما الذي يحدث لوالده؟ لم يفهم هذا أيضاً.

جلسا على حافة منخفضة للنهر، بجانب أشجارٍ من اليوكاليبتوس. صمتٌ عتيق يجثُم فوقهما، لا شيء سوى خرير الماء وحفيف الريح ونعيق غرابٍ بعيد. يحدّق ضاري في النهر، يشرد بعيداً بتحديقة متحجِّرة رثّة، لا يفكّر، لا يحاول أن يتذكر، لا يتنبأ ولا يتوقع. لا يشعُر سوى بإنهاكٍ مرضيّ ثقيل، الرغبة المُلحة في أن ينتهي كلّ شيء، أن يتوقف كل شيء، أن يجد اللاشيء.

سمعَ خشخشة حركة في الأحراش عن يمينه، خرج رجلٌ من بين الأشجار، جلس أمامهما بوجوم أشعث متيبّس، وكأنه خرج من نخاع قفرٍ متصحّر. تصلَّب ضاري في مكانه لحظة، همّ بأن يهتف لإبراهيم الذي بدا وكأنه لم ينتبه لشيء، ولكن الانعكاس قال دون أن يلتفت:

- لا داعي. إنه لا يراني.

تطلّع ضاري بدهشة حذرة في الرجل، يجلس باعتيادية مَن لا يحتاج لأن يعرِّف بنفسه، وهو ما استفزّ ضاري. قال بتردُّد عدائي:

- مَن أنت وماذا تريد؟

رفع الانعكاس راحة يده بتكشيرة سأمٍ حادةٍ تعبيراً عن اعتراضٍ منهك.

- أرجوك، كفى. لا داعي لكلّ هذا. فقط. كفى.

- أنا لا أفهم.

ولكن الانعكاس بدا وكأنه لم يسمع شيئاً، أخذ يهزّ رأسه شارداً وهو يحدِّق في الفراغ، تطغى على وجهه ملامح ألمٍ غامض.

- أنا الذي لا أفهم. إنني أحاول الهرب، أحاول الفكاك. ولكنني أجدك دائماً، أو تجدني، أو نتقاطع سوياً. لا يهم، المهم أننا عالقان في بعضنا.

رفع سبّابته معترضاً بجمود:

- ولكنني أعترض: أنت لست عالقاً فعلاً، لأنك لا تعلم، لا تذكر، لا تفهم، لا تعي، لا تدرك. إنك غائر في نعيم انطفاء لذيذ. بينما أنا أتذكر كل شيء، أنتظر على الهامش، أترقّب، أتحرّك، أتناقض، أسير أماماً وأنا أتجه إلى الخلف، أهرب وأنا أعود، أنطفئ وأنا أنبعث، أتكرَّر وأنا أتجدَّد. إنني عالق في دائرة مفرغة من عود أبدي، إنني منهكٌ. لا إنني لست منهكاً، إنني مريضٌ. لا إنني لست مريضاً أيضاً، إنني موبوء، إنني معاقبٌ، إنني تعبيرٌ مجسد عن الجحيم، تعبير مجسد عن الذاكرة والإدراك اللامنقطع لوجود يرتبط بمصير غيره.

ثم قال بنبرة ختامية وكأنه يضع الخلاصة التي لا تقبل الجدال:

- إنني لعنة.

تطلَّع في ضاري الذي يتجمَّد بترقُّب بارد، يشعر بدوار طفيف

يدور في رأسه ولكنه يبدو معتاداً عليه، لا يزعجه. قال الانعكاس بتأمل عميق:

- إنك تبدو مختلفاً. هل تعلم هذا؟

ولكن ضاري لم يرد، يلمح ابنه إبراهيم وهو يجلس بصمت ناعس متطلعاً إلى البحر، لا يدرك شيئاً حوله. أكمَل الانعكاس بنبرة مقتٍ لامبالية:

- إنك تبدو وكأنك تفهم، لأول مرة. هل تفهم؟ أظنّ أنك تفهم. هل تفهم؟

قال ضاري ببحّة طفيفة أعقبت صمته الثقيل:

- أفهم ماذا؟

- ما أقول.

فهزّ رأسه ببطء حذر.

- قليلاً.

فابتسم ابتسامة غريبة.

- أوه كم أنا سعيد بهذا. القليل يكفي. إنني راضٍ بالقليل.

ظلّ يتطلع في ضاري بابتسامته المتشفية، وكأنه يحاول اختزال لذة اللحظة ببطء. ثم قال:

- إذاً. كيف هو هذا القليل؟

التفت ضاري نحو البحر، تطلع في الزرقة المتموجة بخفة متماهية، وكأنه يجلس بصحبة صديق قديم. قال بوجوم كئيب:

- إنه مؤلم. إنه عذاب. إنني لا أريد أن أشعر به.

طأطأ الانعكاس رأسه بابتسامة منتشية، يلوح في عينيه بريق نصرٍ

ما. رفع رأسه بتحديقة أمل عميقة، قال بشغفٍ لا يمكن الاعتراض عليه:

- لتستسلم إذاً. لا مزيد من الحيرة، لا مزيد من الترقُّب. فقط انطفئ.

* * *

قطَعا الفرات بصعوبة في عمق منخفض.

ريحٌ باردة مفاجئة تضرب صاخبة في النار. يقتربان منها، يتدفآن بلهيبها، يتدثّران بلحافي جلفار الثقيلين. سيجارة واحدة فقط، أعادها ضاري إلى جيبه. يُنصتان بصمتٍ لهسهسة الحطب المحترق، لفحيح ما تحمله الأبعاد المكشوفة. لا شيء يُقال، الاتجاهات التي تحمل الضياع، القصص القديمة التي تضاعف الألم، النحول والإرهاق والذاكرة المهشّمة، اللاشيء يُقال.

الشمس تنحدر في الشفق ببطء خلاب. ظلّ ضاري يسير بِخَيله حتى ارتقى فوق تلٍّ رفيع، يبدو وكأنه يتصل بالسماء المصطبغة أمامه بمدرجات غيوم الغروب البرتقالية، وكأنه سيقتحمها. ظنَّ أنه سمع صوت طفلٍ فالتفت حوله بحذر، سأل ابنه ولكنه كان ناعساً يستند إلى ظهره، فعاد يحدِّق أمامه وهو يتهادى من منحدر التل.

السهل الممتد بزهور الجعفري الصفراء وأشجار الصفصاف المتناثرة، تلمع في حمرة الشفق. لمح من بعيد برج الإله مردوخ «الإيزاكيلا» يشقّ عباب السماء في بابل، كمنارة الملاحة في البحر، يهتدي به التائه في طريقه، بمعبده الذي يقع في قُنة الزقُّورة الهرمية، مغلَّفاً بالطابوق المزجَّج الأزرق. سار في أثره، وتوقف على مسافة منه.

- إنها تبدو مدينة كبيرة.

قال إبراهيم بذهول حذر. كانا قد تجاوزا المدينة من الخلف، يمرّان على البيوت التي يسكن أصحابها في الضواحي خارج المدينة، حتى وقفا أمام واجهتها الشمالية. ثمة خندق مائي واسع يقطع نحو الحصن الأول «نيمتي- بيل» ببوابته الكبيرة، يتموضع وراءه الحصن الثاني «إمكور- بيل» الذي كان أعظم طولاً وأكثر سماكة. في كلّ سورٍ أبراج جانبية تهيء الجنود للوقوف دفاعاً عمّن يحاول الهجوم. ستتجاوز عدّة بوابات حتى تصل حينما تسير بمحاذاة النهر إلى شارع الموكب المهيب، الشارع الذي أطلق عليه الملك البابلي نبوخذ نصر «دعْ العدو لا ينتصر»، على جانبيه أبراجٌ شاهقة دفاعية مزيّنة بلوحات صقيلة ورسومات إلهية، تمتد لتؤدي إلى البوابة الثامنة الأخيرة «بوابة عشتار»، إلهة الأنوثة وعشيقة كبار الآلهة.

سهر ضاري الليلة تحت شجرة كافور عارية، متطلعاً في المدينة العظيمة، شاهقةٌ كحلم أسطوري، وكأنها نبَتَت ذات يوم مقدَّس من الأرض.

- ما هو البيت في رأيك؟

سأل ابنه فجأة بغرابة. التفت إبراهيم بدهشة، لأول مرة يسأله والده عن رأيه بكلّ هذه الجدية التلقائية، وكأنهما صديقان يتحدثان في ليلة شتاء أمام وهج المدفأة. فكَّر لحظة ثم قال:

- إنه المكان الذي تعود إليه دائماً.

حدّق في والده بترقُّب. يتطلَّع ضاري بعمق في المدى، حيث تستقرّ الأسوار الشاهقة، هزّ رأسه بخفةِ اعتراضٍ لا تكاد تُرى:

- إنه مجرّد مكان. أثره لا يعدو أن يكون فكرة. فكرةٌ لا توجد إلّا في خيالاتنا.

لفحةٌ من الحذَر الكئيب تسطو على وجه إبراهيم، يحدّق في والده فيبدو له رجلاً غريباً لا يكاد يعرفه، ممّا يولد لديه شعوراً غامضاً طفيفاً بالغربة، بالوحدة، لا يكاد يُدركه، ينخر فيه بهدوء لا أثر له. عاد ضاري ليقول:

- ما هو أول شيء ستفعله إن عدنا إلى المجمعة؟

تطلع إبراهيم بتردد، لم يفكر في ذلك من قبل، وهو ما بدا غريباً بالنسبة له: أن توغِلَ في البحث عن شيء ما، دون أن تفكِّر ماذا ستفعل إن وجدته، وكأنه بديهي لدرجة أنك لست في حاجة إلى وضع خططٍ خاصة به. ولذا قال باستسلام لامبالي:

- لا أعلم. ماذا ستفعل أنت؟

- سأذهب مباشرة إلى البيت لأتأكّد من لون جدرانه.

ابتسم إبراهيم بحيرةٍ حذرة منهكة. فقال ضاري:

- هل تذكُر ما هو لونه؟

أطرق إبراهيم لحظة، وكأنه يسحب شيئاً بعيداً من ذاكرته.

- بنيّ.

طأطأ ضاري رأسه وهو يبتسم ضاحكاً، تلمع صفرة الجير الفاقعة في أسنانه. قال بنظرة رقيقة:

- إنه أبيض.

- هل أنت متأكد؟ أكاد أجزم أنه بنيّ.

- مَن هو الصح إذاً؟

قال إبراهيم بنبرة تكاد تكون لامبالية:

- ربما كلانا صح.

حدق فيه ضاري بهدوء. يبدو ابنه رجلاً، لم يعُد فتى في الثالثة عشرة من عمره. قال بهدوء ينضح بخوفٍ مبطَّن:

- هذا أرعب شيء في الحياة. أن تخضع الذكريات للشكّ، حتى يصبح الجميع صحّ، والجميع خطأ. لا أهمية لما حدث فعلاً، كل ما يهم هو انطباع كلّ واحد منّا عمّا حدث. كلّ واحد منّا يملك نسخة خاصة للواقع، حيث الواقع ليس موجوداً.

يحدِّقان في بعضهما بوجوم أريحي، رجلان يغرقان في متاهة الذاكرة. أغصان الكافور العارية تتحرك مع الريح دون حفيف الورق، تتسرب كآبة رقيقة في الموقف، تتعلق بأهداب وحشته الحزينة.

جزم ضاري في الفجر على دخول المدينة مع الحشد الذين يسكنون بجانبها. لحقه إبراهيم بتوجّس، أصرَّ بقلق:

- يجب أن نعود. إننا في الطريق الخطأ.

أطرق ضاري وهو يقف في شارع الموكب المكتظ، يحدِّق بشرود حالم في بوابة عشتار الهائلة، مبنية من الطابوق المطلي، مكسوة بالمرمر الأزرق والرخام الأبيض والقرميد الملون، عليها نقوش تنين السيروش والثيران والأسود وحيوان المشخشو «التنين الثعبان» رمزُ الإله الأكبر مردوخ. قال وهو يحدِّق بشرودٍ متصلّب في البوابة:

- كلّ الطرق خطأ. لم نسلك طريقاً صحيحاً من قبل.

الجميع خرج ليحتفل بأوّل أيام عيد ميلاد رأس السنة «أكيتو». الحصون المُشرعة والحشود المصطفة والمواكب المستعدة. وقفا في

مكان منزوٍ في الخلف، يغرقان في ظلٍّ شبحي، رائحتهما النتنة تضيع في حفلة العبق العطري الفواح. مسيرة موكب الاحتفال تخرج من البوابة، تماثيل الآلهات تُجرّ بفخامة مبهرة تملأ العين، تفرض أبَّهة مقدَّسة على الحشد، تُحيط بها كهنة المعابد بالصلوات والأناشيد وقرع الطبول وضجيج الآلات الموسيقية، يشقّون شارع الموكب المصطك بالمهللين، متّجهين إلى معبد «أكيتو» خارج المدينة، المكان الذي كان يزوره مردوخ نهاية كل سنة.

يحدق ضاري بانجرافة متأثرة مرهقة، يبتسم ابتسامة لا تكاد تُرى. أخرج علبة الدخان، سيجارة واحدة فقط، قلّبها بين يديه، التفت إلى ابنه، يتطلع إبراهيم في الحشود بنظرة مستنكرة متقزِّزة. أشعل السيجارة بعود كبريت أضاء ظلّ الزاوية، ثم انطفأ سريعاً، وأخذ يُحدِّق وينفث، برتابةٍ رقةٍ لامبالية.

خلفية الصخب تنسلُّ في خمول الصمت بينهما. قال ضاري فجأة بما يشبه الهمس:

- إنه ليس مكاناً سيئاً للعيش.

التفت إبراهيم نحوه بذهول، ليس في نبرة صوته أو ملامح وجهه ما يدل على السخرية. يحدِّق بشرود منوّم في المسيرة الاحتفالية، وينفث آخر نفسٍ من سيجارته الأخيرة.

الفصل الثاني

التيه - البحث

- لماذا نخرج من هنا يا أبي؟

حدق إبراهيم ساهماً في الفراغ أمامه، يتأرجح ببطء رتيب فوق ظهر الخيل. قال بعد لحظات بعمق:

- لأننا لا ننتمي إلى هذا المكان.

مات ضاري بعد خمس عشرة سنة من استقرارهما في بابل. ظلّ يُحتضر شهراً يتقيء فيه الدم، يهلوس بوعي طائش عن تسميد نخلِ مزرعته في المجمعة. ثم مات، واختفى، فكأنه لم يكن.

بكى إبراهيم أمام جثته طويلاً، ينخره الشعور الحادّ بالوحدة السحيقة في هذه البقعة المتوحشة بالغربة، يشعر بحقدٍ طفولي تجاه جثة والده المسجاة. خمس عشرة سنة في هذا الجحيم. عملا طوال ستّ سنوات طويلة حتى تمكّنا من فتح دكانٍ خردة صغير في السوق، تعلّما اللغة والعادات والأدبيات ببطء، بل وركعا أمام تمثال مردوخ وسارا في مواكب رأس السنة «أكيتو».

تزوج إبراهيم وهو في الثامنة عشرة من فتاة يتيمة تخدِم في المعبد الكبير، بعد إصرار ضاري الذي أراد أن يجعله ينتمي إلى هذا المكان، ألّا يخرج إلى التيه من جديد. كان يقول له وهما جالسان

أمام الدكان قبل يومين من زواجه «أنت تسجنني هنا، هل تعلم هذا؟» التفت ضاري نحوه بذهول، وكأنه أفاق من نومة عميقة، تطلَّع لحظة ثم أشاح بصره إلى الأمام «الأرض سجن، بقوانين فيزيائية وجغرافية معقدة، ولكنه قابل للحياة، لو انطلقت خارجه فستموت»، أليس كذلك؟ «السجن أحياناً شيء جيد» يتطلع إبراهيم في صدغه الأبيض، يكره حينما يحاضره بحِكم متذاكية، وكأنه ما زال طفلاً أحمقَ، قال بإصرار يتصنَّع اللامبالاة: «لو كان بيتي خارج الأرض فنعم، سأهرب إلى هناك وأموت، كلنا سنموت يوماً ما، هل تذكر؟» يتطلع مطرقاً بوجوم، أصوات الخطوات خارج المحلّ تتردد برتابة، لا أحد يتوقف، لا أحد يلتفت، مجرد عصر يوم كئيب. قال ضاري أخيراً «المزرعة بيتي لأنها كانت بيت أبي، وهي بيت أبي لأنها كانت بيت جده» فقال إبراهيم بنقمة تطفح بإزعاج حكم مملة: «ما علاقة هذا بما أقول؟» ولكن ضاري أكمل بثبات «ولذا المجمعة بيتك لأنها كانت بيتي، إنها سلسلة لا منقطعة، لا تتعلق إلا بالصدفة، وكأن الجميع سيبحث عن بيت له، ولكنه في الحقيقة ليس له، هو للشخص الذي كان قبله، لأن الجميع باختصار، وهنا المشكلة: يحتاج بيتاً» أطرق إبراهيم بصمتٍ متأثِّر، قال بنبرة هادئة: «إذاً ما هو بيتي؟» فردَّ ضاري بتلقائية دون أن يلتفت: «ليس لك بيت، ليس لأحد بيت» ولكن كعادته استعاد إبراهيم عدوانيته سريعاً، هزّ رأسه برتابة عصبية: «جيد، جيد، واصل قول ذلك، إلى أن نموت هنا، مجرّد غريبين لعينين».

تزوج بعد يومين، ثم أنجب ابنه سنحاريب ذا الاسم البابلي في السنة نفسها، وعاش مقيداً بوالده وبإحجام الجرأة المندفعة. حتى توفيت زوجته قبل سنوات، ثم توفي والده قبل أشهر.

عاش ضاري خمس عشرة سنة مكتفياً بنظرة مستسلمة يطلقها في الفراغ الجاثم أمامه، وكأنه يحدِّق في تلك النافذة الخفية التي تُطلُّ على الفجوة الزمنية، دون رغبة في الحديث أو الزواج أو الهروب. مجرَّد العيش في كنف راحة البال المستسلمة، مكبلةٌ بالرعب من أن يخرج ولو بالصدفة من بوابة عشتار، فتختفي بابل.

- ولكننا عشنا هنا طوال حياتنا؟

قال سنحاريب الذي بلغ الحادية عشرة بعربية تحتاج إلى كثيرٍ من التشذيب، يستقرّ خلف والده فوق ظهر الخيل. ولكن إبراهيم ظلّ مطرقاً بشرود، يتذكّر والده، يتذكر المرأة والطفل في قاعِ مكة، يتذكر اللحظة التي كادَ أن يموت فيها أمام الأزديين، يتذكر الأعرابي وعثورة الغبار في شبوة ورقعة السواد عند البصرة. يمضي مطأطئ الرأس، يتأرجح برتابة فوق خيله، لا صوت سوى الصهيل الحزين يضرب أسوار الصمت.

يستعيد بشكٍّ شريط الحياة في بابل، الحدائق المعلقة والفرات الذي يقطع المدينة والقصور الشاهقة والمعابد الكثيرة وبيته ودكانه وعزلته الرتيبة. يدرك أنه لا يشتاق حقاً إلى ذلك المكان، إلى كلّ ذلك الصخب الذي يضيع فيه كنغمةِ نشازٍ شاذّة، إنها مجرد أوهام الشك اليائس تنخر في خيالاته، لقد باع دكانه وبيته واشترى بها فرساً عربياً أصيلاً، وحمّله بمؤونة كافية من الماء والطعام والعتاد. لقد قُضي الأمر. إنه ذاهب للبحث عن بيته.

ولكنه رغم ذلك وقف والتفت نصف التفاتة إلى الخلف، فلم يجِد الأسوار الهائلة التي خلّفها وراءه، أو قنة معبد الإله مردوخ تشقّ

السماء، كما شاهدها مع والده قبل خمس عشرة عاماً. مجرد سهل يستغرق في خوائه المُطلق. لقد اختفت بابل، واختفى قبر ضاري معها.

- لماذا نقف يا أبي؟

حدّق دقيقة في البقعة الفارغة بكآبة متحجرة، زُرقة الفجر تصطبغ بحسٍّ شاعري حزين في البُعد المفرغ، لذعة الوحدة الحادّة تنبض في أعماق ذاته، أن تشعر كطفل سقط من حافة العربة التي تنقل أهله، يحدّق في أثرهم وكأنه ينتظر أحداً منهم أن ينتبه له، حتى اختفوا وراء المنعطف.

مضى النهار ببطء مؤلم. جلسا تحت شجرة صفصاف خلعت قميص أغصانها، فبدا وكأن ريح الشتاء تضربهما معاً فيرتجفان معاً. بعيدان عن نهر الفرات بعد أن اغتسلا بمائه البارد، يمضغان بطقطقة رتيبة أمام النار، الدفء المقدّس، قطعة من اللحم المملح مع شيء من الفاصوليا. تذكر إبراهيم دخان سجائر والده، «الباريدوليا»، خداع الخيال للواقع، تبدو في ضوء النار كأشكال الغيوم الوهمية، حتى أنه لاحظ وجهاً شبيهاً بوجه والدته في خطوطها ذات مرة، أراد أن يُنبِّه والده ولكن ضاري كان يحدّق في الخطوط، وكأنه لاحظها قبله بابتسامة شاردة. فمُه الملطخ بالدم حينما كان يتقيأ أحشاءه لحظة احتضاره، هلوساته الشبحية عن نخل المجمعة، تحديقته المعلّقة بعد أن لفظ آخر نفسٍ شارد. يحدق إبراهيم في النار بحزن متحجر ناقم، لماذا لم يمُت بحثاً عن بيته؟ ولكن ما هو البيت؟ لقد فكّر في ذلك كثيراً قبل أن يقرِّر الخروج من بابل، هل هو مكانٌ حسّي، أم أنه مجرّد فكرة كما قال ضاري، تستطيع خلقها في أي مكان؟ حرّك

الحطب بغصن ميت، يغرق في انتباهةٍ مستسلمة لامبالية، يتخيل خطوط الدخان القديمة ترسم بيتاً شبيهاً ببيته. كل هذا لا يهمّ، بابل قد اختفت إلى الأبد.

- هل يوجد في نجد حدائق معلقة؟

سأله سنحاريب بنبرةٍ تطفح بشيء من الغضب المكبوت. التفت إبراهيم بوجوم، كان يرجمه طوال النهار بأسئلة شاردة كهذه، يريد أن يخبره بصدق لا أذيّة فيه «صدقني: كلانا متورط بالآخر». ولكن لا يمكن أن تقول شيئاً كهذا دون الألم الذي يُحدثه، لا يمكن أن تطرحه كحقيقة جافّة لا مفرّ من الإقرار بها دون حقدٍ أو كره، خصوصاً لطفلٍ مُنتزَع من بيته. ولذا قال بهدوء شديد:

- يوجد ناطحات سحاب. هل تعلم ما هي؟

كان يخبره في طفولته بذلك، بقصص خرافية عن نجد، بصور المباني المتطاولة والشوارع الطويلة والملاعب والتقنيات، خلقها الإنسان البدوي في عمق الصحراء، بعد أن وجد الذهب الأسود، وبنى لنفسه مكاناً كحلمٍ شاهق مهدَّد بأحقاد وصراعات مكررة. ولكن سنحاريب ظلَّ يكبر منغمساً في بابل، يبتعد خطوة خطوة عن قصص والده. لم يحاول إبراهيم القتال من أجل أن يعيده إليه، جعله ينجرف عنه بشيء من اللامبالاة، يحدِّق فيه من بعيد يعيش في بابل، يحدِّق في والده من بعيد يعيش في عزلته الخاصة، يحدق في زوجته من بعيد تعيش في غربتها عنه، ويبقى هو وحيداً مع قصصه منجرفاً في خمول لامبالي، يترقب لحظة متوثِّبة يهرب فيها، يبحث عن بيته الذي ينتظره في مكان ما. ولذا لا يتذكر سنحاريب ما هي ناطحات السحاب، يبدو الاسم جذاباً، يفكِّر لحظة بتردُّد، لا يريد أن يتخيل

شيئاً أفضل ممّا سيكون في بابل، لأنه لا يريد أن يتعلق بشيء غير بابل. ولكنه قال بفضول حذر:

- ما هي؟

- إنها مبانٍ شاهقة، تلامس السحاب.

أطرق سنحاريب بشكّ، قال بنبرة لامصدقة:

- مستحيل.

- ما تراه مستحيلاً سيحدث، ما كنت أراه مستحيلاً سيحدث. لا يوجد مستحيل.

رغم الصورة الساحرة لبناية تطعن السحاب، إلّا أن ذلك لم يكن كافياً بالنسبة إلى سنحاريب، بابل لم تكن الحدائق المعلقة فقط حتى تعوّضها ناطحات إسمنتية، يريد أن يشرح ذلك لوالده، أن يشرح ما تعنيه بابل كبيتٍ له، ولكنه لا يستطيع. ولذا يشيح نظره بكآبة. يحدق فيه إبراهيم بوجوم، لا يبدو شبيهاً به، طفل بابلي نجدي مركّب. يعود ليحدِّق في النار، يبحث عن تلك النافذة الخفية القديمة، حينما كان يرى فيها ما تفعل والدته في مثل هذا الوقت. لقد ماتت حتماً، سأل والده ذات يوم حينما تجاوز مراهقته بوقت طويل: «هل تظنّ أنها حية إلى الآن؟» أطرق لحظة ثم أكمل بجمود متحجِّر: «أظن أنها ماتت» التفت نحوه ضاري وقد ارتعش جفنه، نبرة اللامبالاة المتحجرة في صوت ابنه تُرعبه، حدَّق في الفراغ بشيء من الضيق، وكأنه يرى جسدها يخرج من التراب، ثم قال بنبرة حزينة «جميعنا سنموت».

* * *

يسيران بين دجلة والفرات، الخيل الأصيل يصهل بحشرجة بردٍ

متأوِّهة، الريح تقشعرُّ كنغزات السكين الحادة، أزهار الأقحوان تميل بسيقان عارية تُجاورها زهور الجعفري بأوراقها المتساقطة. لا شجر يكافح الريح، سهول وهضاب من المدى المفتوح. حمل أغطية وملابس قطنية ثقيلة من بابل، وأدوية ومراهم للجلد، وطعاماً ممّا اعتادا على أكله، اللحم المملح والفاصولياء والأرز والطحين المسمن، ولكن ذلك لم يمنع إصابة سنحاريب بالإسهال، ثم الحمى، وتقرحات في قدمه، وتكسُّر في جلده الرطب. يجلس الاثنان بصمت أمام النار، ينغمس سنحاريب في عجز حسرته المكبوتة، بعد أن تناول دواء للحمى، يشعر بجبينه تطفح في حرارة حارقة وبتصلب في عظامه المنكدة بالإعياء. ويغيب إبراهيم في لامبالاته الشاردة، بدوي عتيد لم يصَب بشيء، يحب ملمس الأمواج النحاسية في جلده المتصحر، يترك شعره الناعم يطول وشاربه الخفيف ينسدل على شفته، يرفض إعطاء ابنه دواء للإسهال والإمساك، يجب أن تعتاد معدته على قسوة الصحراء. ولذا يجلسان بمزيد من الصمت الموحش، يزحف بحدة متقشفة.

يتطلع إبراهيم في الشروق بكثير من الحيرة اللامبالية، يتذكر وقفات ضاري الطويلة حينما كان يحدق في السماء بتأثُّر منجرف. لا يفهمها. إنه كرجل يحدِّق بحبٍّ في امرأة تعذبه.

حلم سنحاريب بامرأة غريبة وراء ستارة بيضاء شفافة، بوجهٍ قمحيّ نحيف وعينين واسعتين وشعر قصير، يُخبره وعي حلمه أنها أمه. يتذكر بضبابية وفاتها، لم يكن تجاوز الخامسة، شاهد جثتها المسجّاة في غرفتها، ثم اختفت. بكى أياماً طويلة، ثم نسيها، ككلّ طفل لا يتعلق شيء في ذاكرته. لم يبقَ من وجهها غير أثرٍ ضبابي،

تتعلق عدّة مشاهد راسخة في ذاكرته، بحواراتها وروائحها وانفعالها، ولكن لامرأة بتفاصيل وجه مجهول. لقد أخبره جدّه بآلة تحفظ صورة الوجه في ورقة، إلى الأبد، كلَّما تذكّر والدته تمنى لو أن لها صورة في مكانٍ ما، تفاصيل وجهها الدقيقة كما هي، دون ذاكرة مخادِعة ضبابية. رمق والده بطرف عينه، هذه أطول مدة جلسا مع بعضهما، لا يريد أن يكلِّمه، يريد أن يعاقبه بالصمت، رغم شكّه بأنّ والده سينتبه لذلك أصلاً. يُطبق شفتيه، يصمت بقوة مستفزّة، ثم ينكسر بعجزٍ طفولي:

- هل تذكُر شكل أمي؟

انتبه إبراهيم بنظرة ذاهلة، أطرق لحظة بوجوم، منذ مدّة طويلة لم يفكّر فيها، لقد سقطت من ذاكرته تماماً، فكأنّها لم تكن. قال ببطء:

- نعم. عموماً.

ردّ سنحاريب بِحَيْرة متردِّدة:

- كيف عموماً؟ هل تذكرها أم لا؟

- أذكرها، لها وجه ممتلئ أبيض، شعر طويل، عينان زرقاوتان. ولكنني.

أطرَق لحظة بعجز متبرِّم، يحاول أن يقبض على فكرة مزعجة.

- ولكنني لا أذكرها فعلاً. هذه كلّها مجرد تفاصيل، العينان والشعر والوجه والجسد، ولكن تركيبة الملامح نفسها، الشيء الذي يكمن وراء الوصف: يغيب نوعاً ما. فلا أكاد أتذكرها. هل تفهمني؟

يهز سنحاريب رأسه بطواعية مستسلمة، يغرس أصبعه في الرمل، يغرق في صمتٍ مطرِق. لقد خدعه الحلم، ليست تلك

المرأة هي أمه. يتطلّع نحوه إبراهيم، ولكنه لا يراه، يغرق في ذاكرته، لقد نكث الولد صورة قديمة نسيها. لم يحضر ليلة زواجه إلّا نفر قليل من جيرانهم، مهاجرون كادحون مثلهم. تسلل هارباً ليتسكّع خلف البيت، محملاً بغضبٍ مكبوت ضدّ والده، ماذا يفترض أن يفعل بفتاة بابلية؟ مراهق في الثامنة عشرة من عمره، يريد الخروج بحثاً عن بيته البعيد. دخل الغرفة التي تنتظره فيها، تجلس فوق السرير بارتباك، نظرتها المنكسرة كفتاة يتيمة تخدم في المعبد الكبير. ناكحها بشيء من العنف، قضى وطره في دقيقتين سريعتين، اختلط بياض منّيِه بحُمرة عذريتها، فهرب من السرير بارتباك. ولكنه استمر في القيام بذلك، يناكحها كواجب بيولوجي يؤدّيه بصورة محتدمة، حتى ماتت فجأة ذات يوم. يحدق في الظلمة خلف النار، يشعر بشيء من الارتياح، أن لا يكون مضطراً لأن يفكر في امرأة، أن ينام مع امرأة. مجرد البحث عن بيته البعيد، الهرب من ذلك المكان.

نهر الفرات يرافقهما. يتوقفان كلّ ساعة ليقرفص سنحاريب وراء شجرة، الإمساك يبني جداراً في معدته، يخدعه باستعداده ثم يصدمه بفراغ مسنن يمزق أحشاءه. فيعود إلى الخيل بخجل. يتطلع بطرف عينه نحو والده، لماذا لا يكون مثله؟ أليسا من عرقٍ واحد؟

طبيعة المكان لا تبدو شبيهة بما توقعه إبراهيم، غابات الأشجار والسهول الخضراء بالزهور الملونة والفرات الذي لا ينقطع. ظلّ يسير صالباً في طريقه، يحاول ألّا يحيد عن مساره حتى يخرج من العراق، ولكن كيف يعرف أنه خرج من العراق؟ كان قد سأل في بابل عن وسط شبه الجزيرة، فأعطاه الجميع طُرقاً متناقضة. يحتقر أهل بابل من يسكنون حول ضواحي المدينة، فكيف سيعرفون الطريق

إلى من يقبعون في مجاهل شبه الجزيرة. ظل يُحدّق في الأبعاد المفرغة حتى بانت أمامه مدينة سُرَّ من رأى، على ضفة نهر دجلة. إذ كان لم يستدِر فور خروجه من بابل ليتّجه إلى جنوب العراق، يتذكر مخطئاً أنه دخل مع ضاري بوابة عشتار من الجنوب، بينما تقع هي في الشمال، ولذا خرج منها متجهاً إلى الأمام.

وقف على حدود المدينة بحذرٍ متوجس، يتذكر كل تلك المدن التي مرَّ بها مع والده، ينبض صدره بتوتر منضبط. سأله ابنه متشبثاً به فوق ظهر الخيل:

- أين نحن؟

كان جدّه قد أخبره مراراً بكيفية وصوله مع والده إلى بابل، بسرِّية جادة، ولكن إبراهيم لم يقتنع أن ابنه الصغير قادر على استيعاب إمكانية الدوران في فجوات الزمن، فضلاً عن تصديقها. ولذا قال بالبابلية بحذر وهو يحدق في المدينة بترقب:

- هل تذكر ما قاله جدّك لك؟

- نعم.

- الآن ستراه بعينيك.

ولكن لم يكن ثمة شيء يستحق أن يُرى في سرّ مَن رأى. الشارع الممتد يقتبس خواء الصحراء، ولكن بوحشة أشدّ ثقلاً تجترحُها الأطلال المهجورة. على جانبيه بيوت لا تزال قائمة، يعلوها كِلْس الركود الهامد دون حركة، خطوط النباتات على تصدُّعات الرصيف، تنقع في سكون أبدي، وكأنّ قاطنيها اختفوا فجأة. العصارة الأخيرة لسرَّ مَن رأى، المدينة التي ابتناها المعتصم بعد أن ضاقت بغداد ذرعاً بحاشيته وجنوده، فتحوَّلت من بقعة يقطنها

عددٌ من النصارى بأديرتهم وبساتينهم وبيوتهم، إلى مدينة من أعظم مدن الإمبراطورية العباسية، بقصورها ومساجدها وحركتها النابضة. الخيل يضرب بحافره في الأرض، فيحمل الصدى أثره في الفراغ الموحش. رفع إبراهيم رأسه بنظرة ذاهلة، مئذنة جامع المتوكِّل الملتوية تشقّ السماء، كعمود يحمل خيمة الخراب. لم ينبَس أيّ منهما بكلمة، لمحةٌ من الذهول اللحظي تكبِّلهما. قال سنحاريب أخيراً بانتباهة متصلبة:

- ما هذا المكان؟ أين ذهب الناس؟

وقف إبراهيم بالخيل، فاستحكَم الصمت. على الجدران كتابات لا تكاد تُقرأ، بيتان لابن المعتز يرثي مدينة جده المعتصم، آية «هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً»، رسمة بدائية لقطٌّ يبدو كالأسد أو أسد يبدو كالقط. عدة ضربات من المدى البعيد، تزحف ببطء. انتبه إبراهيم بقلقٍ، سارَ بحذرٍ شديد، حتى وقف على ثلاثة أشخاص يقتلعون رخام قصرٍ ما. العشرات من الناس يرتادون سرَّ مَن رأى، يقتلعون أنقاضها ويحملونها إلى بغداد لاستخدامها في العمار، ولذا يهدم الثلاثة برتابة لامبالية، تتبرأ من اتهام اللصوصية، مجرد موظفين يصرخون ويتمازحون ويستريحون على آثار غرفة متهدمة. انتبهوا لإبراهيم فوق خيله، بلباسه البابلي الغريب. حدق نحوهم بترقب حذر، وكأن كلاهما ينتظر الآخر أن يتحدث. قال أخيراً وقد بدأ يشكّ في مساره:

- أين جنوب العراق؟

أطرق أحدهم بابتسامة ساخرة. الطفل الذي يتشبث بإبراهيم أكسبه شيئاً من المصداقية، وإلا لجزموا بريبته المستفزة. قال بهدوء:

- الجنوب وراءك. أنت متجه إلى الشمال.

رفع يده مسلِّماً برتابة واستدار إلى الوراء. خرج مودَّعاً بأصوات الخواء الموحش، يتخيل بنقمة مرتبكة: ماذا لو أنه وجد المجمعة، ولكن في المستقبل؟ حينما يعيث فيها الخواء بعد حرب ما، مهدمةٌ بيوتها بآثار القذائف، تزحف في شوارعها أغطية الرصاص المتساقطة، تستحلّها القطط والكلاب والكتابات الباهتة على الجدران. لأول مرة يشكّ في حتمية وجود بيته. يفكر بقلق أنّ لا أحد يتخيل بيته قابلاً للزوال، يتجه إليه مؤمناً أنه ينتظره، يقف في مكانه تماماً كما تركه.

* * *

وقفا ليشرب الخيل من نبع صغير، فذهب سنحاريب ليتبول وراء ثكنة الأشجار على يساره، يخجل من فعل ذلك أمام والده. رائحة العرعر قوية كضباب كثيف، أفرغ مثانته ومضى يسير بين الأشجار، يكاد يرى أثر العرعر يتضوع في المكان كالدخان، الرائحة تكتسب مظهراً حسياً يخترقه فيشعر بأثره على جلده، يقف لحظة بين الحفيف والعبق والسكون الرثّ، فيكاد ينسى نفسه. لمح جده ضاري يقطع أغصاناً من شجرة أمامه، التفت نحوه وهتف له:

- سنحاريب. تعال بسرعة.

ركض نحوه، وقف بجانبه وساعده في اقتلاع الغصن. جلسا أمام بعضهما بوجوم، الشمس تتكسر بين ستارة الشجر الكثيف كأعواد ضوء باهتة، رائحة بلل ما تقتحم المكان كوسنة خاطفة. أخذ ضاري يقطع الجذع الكبير، ويفصل اللحاء بمهارة. رفع رأسه نحو سنحاريب، قال دون أن يتوقف عن العمل:

- تبدو منهكاً.

- نعم. أبدو منهكاً.

- لماذا تبدو منهكاً؟

- لأنني منهك. أليس هذا ما يحدث حينما تكون منهكاً؟

- ماذا؟

- أن تبدو منهكاً.

- ولكن لماذا أنت منهك؟

هزّ رأسه بفتور منهك.

- لا أعلم. لا تسألني لماذا. إنني أكره لماذا.

- لماذا؟

- كفى. لا أريد سماع هذه الكلمة.

فأصرّ ضاري وهو يفصل اللحاء:

- لا يهم أن تحبها أو لا. إنها موجودة. لا يمكن تجاهلها.

- هل هي موجودة فعلاً؟

- طبعاً.

- كيف تعرف هذا؟

- ألست قادراً على قولها. لماذا. إذاً هي موجودة.

- لا. ليست موجودة. أنا لا أعرف ماذا تعني.

- إنها تعني السبب. لكل شيء سبب.

- هل فعلاً لكل شيء سبب؟ هذا لا يبدو أنه يحدث هنا.

- أين هنا؟

- هنا.

- ولكن ما هو هنا تحديداً؟

فعَرَك سنحاريب جبينه بقوة وهو يقول:

- أرجوك كفى. ألا ترى أنني منهك.

- أرى. لماذا؟

ولكن سنحاريب بدا وكأنه لم يسمع. يتطلع حوله بوجوم متحجر، أشجار العرعر باسقة مشذبة الأطراف بعناية، تبدو خروجاً عن نسق الرثاثة الطبيعية. تحرَّك في جلسته بقلة ارتياح، تطلَّع نحو الجذع العملاق بين يدي جده.

- ماذا ستفعل به؟

- سترى.

- أنت دائماً تقول ذلك.

- لو أخبرتك فسيقضي ذلك على متعة الاكتشاف.

- أي اكتشاف؟

- اكتشاف ما سيحدث.

- وماذا سيحدث؟

- كيف لي أن أعلم. لا أحد يعلم ما يقطن في «ما سيحدث».

أطرقا بصمت ثقيل طويل. أكمل ضاري:

- لا يوجد لذة أكثر من أن ترى الخطوات البطيئة لشجرة تتحول إلى كرسي، أو طاولة، أو سرير.

تردَّد سنحاريب مبتسماً ثم قال:

- سأخبرك بشيء لم أخبرك به من قبل.

- تكره النجارة.

- كيف عرفت؟

فرفع ضاري رأسه متطلعاً حوله ويداه تواصلان العمل بمهارة.

- إنني أعلم كل شيء.

أطرقا بصمت رخيم طويل. يتطلع سنحاريب بخمول ويعمل ضاري بدقة محترفة. حفيف الأغصان يتحرك برتابة وسط رائحة البلل القوية، تخالطها رائحة عسل نقي وتراب لم يعفِّره ماء منذ دهر.

- هل تعلم إذاً أننا تركنا بابل؟

- سمعت بذلك.

- ألستَ حزيناً؟

- الميت لا يحزن.

- بماذا يشعر إذاً؟

- بلا شيء.

- ما هو اللاشيء؟

- لو كان قابلاً للتفسير لَما كان لا شيء.

- إذاً هو صمت؟

- أقل من الصمت.

- فراغ؟

- أقل من الفراغ.

- عدم؟

- أقل من العدم.

- هل يوجد أقل من العدم؟

- طبعاً. اللاشيء.

رفع ضاري الجذع المسلوخ من اللحاء، قام من مكانه وهو يقول:

- هذا سَيَفي بالغرض.

ثم مضى ليخرج من ثكنة الأشجار. توقف لحظة ثم التفت إلى سنحاريب قائلاً:

- حينما تكون نجاراً فإنك تملك حرية صناعة ما تريد، أنت والخشب ولا غيركما. بإمكان الأرض أن تميد وأن تتقيأ البراكين وأن تفور السماء بالأعاصير، كل هذا لا يهم، أنت والخشب.

فهز سنحاريب رأسه بوجوم حزين، واختفى ضاري وراء الشجر.

خرج عائداً بين العرعر، يخترق الرائحة الحسية التي تنسحب على وجهه، تطبطب برقة على مسامات النحاس الثقيلة. وجد الخيل ووالده ينتظرانه. قال إبراهيم بحدة:

- أين كنت؟ لا تتأخر مرة أخرى. لا نملك رفاهية إهدار الوقت.

يقطع إبراهيم طريق العودة، يمر بما مرَّ به خلال الأيام الماضية، يلوم نفسه بغضبٍ بارد على الوقت المهدر.

سنحاريب يحاول الالتزام بالصمت الاحتجاجي، ولكنه يعود ليكسره من جديد، كما يفعل الأطفال بوعيدهم. جزع الظلام يجبره على ذلك، عواء الذئاب ودبيب العناكب وفحيح الأفاعي. يسأل والده بتردُّد وراء وهج النار إن كانا قد ضاعا، يلتفت إبراهيم نحوه ببطء مرهق، يحدِّق فيه لحظةً بشيء من القسوة فيطأطئ سنحاريب رأسه، ينكث الأرض بعودِ غصنٍ ميت. يشيح إبراهيم بنظره نحو نافذته، تلك القدرة العجيبة على الرجوع سريعاً إلى بَوتقة عزلته، يتخيل بقلق ما إذا وجد بابل مستقرة في مكانها أثناء عودته، بوابة عشتار تدعوه للعودة، تفتح شارع الموكب بحنوٍّ أبوي لطيف.

ولكنه لم يجدها، لم يظهر أمامه معبد الإله مردوخ يشقّ السماء. مجرّد رقعة فارغة من الخواء، تنتشر فيها أشجار اليوكاليبتوس بأغصانها الطويلة المتهدلة، وتتوزع عليها نقع ماء تفوح رائحته بقوة. وقف في مكانها، هل يقف فعلاً في مكان بابل؟ الذاكرة تخونه، لا يتعرف بدقة على الجبال والسهول والأشجار المعمرة.

استقرا في قفر تخشبت فيه أشجار نخل يابسة، جمعا حطباً رطباً لم يشتعل، فجلسا في الظلمة. لأول مرة يجلس سنحاريب في ظلمة الصحراء المُكفهرة، يرتعد خوفاً، يرمق شبح والده يجلس بوجوم، يسمع عواء ذئاب تبدو وكأنها تقطن باطن الأرض. رائحة الفاصولياء تفوح في المكان، يسحق النمل الأسود الذي يحاول تسلقه، يتدثر بلحافه ليغطي كل جزء من جسده. نام أخيراً وهو جالس في مكانه، أطول ليلة عاشها، ستظلّ محفورة في ذاكرته. فالخوف لا تُنسى تفاصيل أثره المنحوت كالوشم، الحزن والفرح والراحة والجمال، جميعها معرّضة للنسيان والتحريف، إلا الخوف، ينحت نفسه في جدار الذاكرة، إلى الأبد، بل ويكبر في كل يوم، يتغذى على تفاصيل الخيال المشبوه، يتزايد بعد الخروج من الموقف بشكلٍ أكبر ممّا كان عليه أثناءه، حتى يستحوذ على الجدار بأكمله.

يسيران بمحاذاة الفرات. السماء تتكدّس بسحاب الزبد المخضب بالحبر الأسود. ما زال إبراهيم يخاف الصواعق، رغم كل شيء. البدوي العتيد يخاف، إنه سرٌّ من أسراره. الصواعق التي تُجدّد ذكرى الطفل الذي تستقر جثته منذ دهر في داخله، الطفل الذي لكم الفتى في فسحة المدرسة، فتحرَّر من خوفه وكرهه. ولكنه لا

يستطيع لَكْم السماء، ولذا يخاف ويكره، كتلةٌ تتفاعل في داخله بعنف. اعتاد أن يقف أمام نافذة البيت في بابل، محدقاً بخوف مكبوت في انفجار غصون السماء الكهربائية، يتذكّر كل ذلك الخوف حينما اختبأ مع والده لأول مرة في تجويف الجبل، يراقب شجرة العرعر المعمرة تحترق بالصاعقة، يثور دخانها كنذير شؤم يطفئه المطر برتابة لامبالية. يشعر بالخوف في وقوفه أمام نافذة بابل أكثر ممّا شعر به في تجويف ذلك الجبل، الخوف حينما يتغذى على الذاكرة، فيكبر. ولذا اختبأ في كهف صغير أمام انهمار المطر الكثيف بالصواعق والرعود، يتطلع إبراهيم نحو المدى كما كان يتطلع من نافذة بابل، بقشعريرة يسحقها فلا تظهر عليه.

صوت حبات المطر ترتطم بالتراب أمام التجويف، يرنّ في أذن سنحاريب برتابة موسيقية رخيمة، يكاد يغطي على صوت الصواعق المرعبة. يتطلّع كلّ لحظة في والده بحسرته المكبوتة، لا يفهم شيئاً ممّا يحدث، أن تترك بابل لتتيه في قسوة الصحراء هذه، لماذا؟ لكنه مجرد طفل، تخونه أوتوماتيكيته المعتادة على الانصياع، فيتبع والده حينما اختفت السحب، يركب وراءه برأسٍ مبلَّل رحلت عنه الحمى، يحدق في المدى الرطب، قوس قزح يتألق بألوانه أمام شعاع هارب من الشمس، التراب يلمع بالماء كبساط من ضوء، أشجار البلوط المكورة بورقها المبتل. كل هذا الجمال، في كل هذه القسوة. يريد أن يتوقف ليستنشق رائحة الطين، يريد أن يتطلع إلى قوس قزح لحظة من الزمن، يريد أن ينسى ولو لعدة لحظات أنه تائه في الصحراء، مع رجل يزعم الجميع أنه والده. ولكن الخيل يمشي بوجوم، يطأ حفر الماء الممتلئة.

الشمس تستغل غياب السحاب، تفرض سطوتها على السماء، تُشتِّت ذبذبات البرد المندحر. صقيع الفجر يعود ليقشعرّ في جسديهما. الزمن يتشابه كحبات الماء في مجرى الفرات. ينشغل سنحاريب بنفسه أكثر، يشم رائحته النتنة باشمئزاز رثائي، يقاوم تقلبات معدته المخشوشنة، يبحث عن صورة لوجه أمه في ذاكرته، يتذكر صورة جده بوضوح نقي، يتشبَّث بالصور التي خلّفها هناك في بابل، يعيد توثيقها في كل مرة لئلا ينساها، أن لا يبقى من ذاكرته إلا مجرد تفاصيل منفصلة، لا تكفي لتذكُّر وجه شخص مقرب.

صاد إبراهيم أرنباً برياً، حدّق سنحاريب فيه بتقزز، جثته التي يحملها والده من رقبته الملتوية ويثبتها على طرف السرج. التفت نحوه بنظرة ثابتة:

- المرة القادمة ستصيد أنت.

ارتعش بنظرةِ ارتباكٍ ذاهلة. كان يشعر في طفولته بتأنيب الضمير حينما يأكل لحم حيوان ما، يسأل والدته في مشهد ضبابي يتسرب من ذاكرته: هل تألَّم الوعل حينما قُتل؟ فتخبره أن الوعول خُلقت ليأكلها الإنسان. يفكّر في ذلك أثناء استلقائه للنوم، فلا يبدو منطقياً، أن يهيم الوعل هارباً في الصحراء، ينتظر الإنسان أن يأتي ويقتله ببساطة لامبالية، مُنهِياً كل شيء، وكأنّ كل ما يقوم به منذ ولادته: مجرد تقضية للوقت في انتظار مصير حتمي. ثم صار يفكر بشكل أكثر توسعاً: هل ثمة مخلوق أكبر من الإنسان خُلق الإنسان ليكون طعاماً له؟ هل نحن كالوعل ننتظر دون أن نعلم مخلوقاً سيقتلنا ويأكلنا ببساطة لامبالية؟ كل ما نقوم به تقضية وقت في انتظار مصير محتوم؟ حينما سأل والدته عن ذلك ارتبكت، أخبرته بعشوائية أن

الإله مردوخ موجود لهذا السبب، ليحمي الإنسان الذي يكتسب قيمته بعبادته وطاعته، يرتفع عن منزلة الحيوان الذي لا قيمة له. ولكن ربما يعبد الحيوان مردوخاً خاصاً به، يخبره أنه سيحميه، ولكنه لا يفعل، فيموت الوعل برتابة اعتيادية، وكأنه شيء يحدث ببساطة.

- هل سمعتني؟

قال إبراهيم بنبرة هادئة فوق ظهر الخيل. انتبه سنحاريب ببطء، هزّ رأسه بكثير من الوجوم، يفكر إن كان ممكناً أن يقتل حيواناً بريئاً ببساطة لامبالية.

الشمس تتهادى ببطء في منحدر الشفق، الحمرة البرتقالية تزحف على صفحة السماء. قفر الخلاء الرحيب، شجيرات البلسم محدودبة في وقوفها، رائحة المطر التي لا تنقشع، عالقة في الهواء. يرفع القربة الأولى من القربات الخمس التي عبأها من دجلة، يمسك بطنها المجلد براحة يديه ليحسب ما بقي من جرعات.

لاحت أمامه مدينة أور، عاصمة المعابد المقدسة والزقُّورات الهرمية المدرجة، أسقطت سطوة مدينة أوروك بجانبها ووحَّدت حكم السومريين في بقعة مسورة بسور يبلغ سمكه سبعة وعشرين متراً، وعدة بيوت تتحلق خارجها في الأرياف المجاورة لها، يقطنها العبيد والخدم. لم يكن باب السور مغلقاً، مشرعٌ بكآبة جنائزية.

دخلا بحذرهما المعتاد، عدّة أشخاص يتحركون بهدوء مميت، صمتٌ خاشع يجثم بثقله. وقفا يشربان من بركة ماء بين بيوت مشيَّدة بطابقين من الطين المحروق، تتوسّطها زقُّورة هائلة بشكل هرمي مدرج وسلالم طويلة، بثلاث طوابق من الطابوق الطيني المغلف بطابوق مفخور زفتي، معبد إله القمر نانا، حيث تصعد قمة الهرم إلى

مقام مقدّس، هي غرفة نومه. عُلِّق على أحد أسوارها لوحة بلغة مسمارية، تتناول جزءاً من القوانين التي سنّها الملك أورنمو لحماية مصالح شعبه، أول شاهد في التاريخ على محاولة سنّ نظام قانوني. وقف عدة دقائق يُحدق في اللوحة المسمارية، فيتذكر مخطوط قرآن عربي مكتوب في القرن الثالث صادفه في زقاق إنترنتي أثناء حياته القديمة، فلم يستطع قراءته، مجرد حروف متلاصقة مكتوبة بطريقة غريبة لا تُقرأ، تبدو كعبثٍ غامض مستفز. يفكر أنَّ الزمن كفيل بأن يحوِّل أدلة الوعي إلى ألغاز، يفرض عزلة على حقبة زمانية أو جغرافية، حتى يجب ترجمتها، وكأنها تنتقل بالفعل عبر وسيط يفسِّر ماذا تقول، وما إذا كان مهماً ما تقوله. ولذا أخذ يتلفت في المدينة برتابة مَنْ لمْ يعُد يبالي بحذره، يشعر كهامش لا يستحق رفاهية الحذر، بصقةٌ سقطت في بحر.

- لا يجوز أن تأخذ هذا الخبز يا أبي.

سرق ستّ قطع خبز من بسطة مغطاة على قارعة الطريق.

- يجب أن تستعد دائماً لما هو أسوء. هذه قد تُنقذنا من الموت يوماً ما.

فقال سنحاريب بالبابلية برعب:

- ولكن هل سنموت؟

- كم مرة قلت لك: تكلم بالعربية.

فأعاد السؤال بامتعاضٍ متوتر. أطرق إبراهيم بإعراض، يتطلع بحثاً عن أثرٍ لخيله. قال بشرود وكأنه يكرِّر حقيقة بديهية لا تحتاج إلى كثيرٍ من التركيز:

- طبعاً سنموت. هل يوجد شيء لا يموت؟

صادفا الخيل في زقاق وهو يلوك بشَبَعٍ بقية خيطٍ من تبن، ركبه وقد وضع ابنه خلفه وأخذ يتجول وسط الأسواق الهامدة، ثمة أشخاص يقفون برتابة خاوية في الطرق. يحدق سنحاريب حوله بقلق، خواء الغربة كمصير موحش، يكرر في نفسه بجزعٍ مستسلمٍ «طبعاً سنموت»، فيُدرك بغموض طفولي أن رخص الحياة ينطبق عليه، ليس شذوذاً كما تخدعه فرديته، ربما هنالك بالفعل كائن آخر يريد قتله وأكله في مكان ما.

- هل صحيح أننا سنلتقي مردوخ بعد الموت؟

قال وهو يتذكر حواره مع والدته. التفت إبراهيم نصف التفاتة، أراد أن يهزّ الفتى هزّة عنيفة تطرد مردوخ وبابل من رأسه. ولكنه عاد ليقول بقسوة لامبالية:

- لن تلتقي بأحدٍ بعد الموت. التراب والدود والعدم.

أطرق سنحاريب بشيء من الامتعاض، يتذكر تمثال مردوخ الهائل في المعبد الكبير. لا يمكن أن يكون كلّ أهل بابل على خطأ، حتماً هنالك مردوخ.

وصلا إلى إحدى المقابر الملكية، حشدٌ من البشر يتحلقون حيث يُدفن الملك أورنمو، مؤسِّس السلالة الثانية، في سرداب محاط بجدران طابوقية، ويُدفن معه جواريه وخدمه وحاشيته الذين تمّ تسميمهم فور موته، ليملؤوا عليه فراغ البرزخ الطويل نحو العالم الآخر، طقسٌ تقليدي لحكام هذه القرية، يُمارسه الآن أو «يُمارَس» للرجل الذي سنّ قوانين العدل المعلقة في زقورة المعبد. تماثيل الآلهات والطبول التي تقرع والطقوس الغريبة أمامه، لقد ضاق ذرعاً في بابل بكلِّ تلك الآلهات والمخلوقات الغرائبية والقوى الخارقة،

بدت له تعويضاً ماورائياً لنقص الإنسان كحيوان وجد نفسه فجأة في مدنية مترفة، فشعر أنه لم يحقق ذلك بنفسه، أنه لا يستحق ذلك، أن هنالك حتماً عدة آلهات مهّدت له هذا الانتقال المهيب، ولذا يجب أن يشكرها ويمجدها ويؤلف في سبيلها كثيراً من الهراء. أحسّ بانقباض في صدره، هذه الأماكن اللعينة، كان يقف في بابل عند الدكان، بتكشيرة وجومٍ خانقة، يحدق في الأشخاص الذين يسيرون ويتحركون ويأتون ويذهبون، يتكررون كنسخ متشابهة، يسأل نفسه: هل يختلفون كثيراً عن الناس الذين كان يراهم في المجمعة؟ يشعر ببغضٍ نقيّ يغلي في أعماقه، يصبّه على زوجته المنكمشة في خوفها، حينما يغتصبها بقسوة ثم يتركها وحيدة في الفراش، بينما يهرب إلى خواء المدينة، يغسل شعوره بالذنب بتجديد نقمته على كل شيء.

الريح تُهفهف ثوبه ووشاحه المتهدِّل، كفارس ينتصب فوق خيله بعد أن سقط من الجحيم. انتكص حتى خرج من بوابة المدينة المشرعة.

جلسا الليلة في سهل يمتلئ بأشجار التين المتخمة. سنحاريب معلَّق بحتمية فنائه، يتذكر والدته وجدّه، التراب والدود والعدم، لا يمكن أن يكون ذلك هو المصير، مجرد حياة واحدة، فرصة واحدة. لا يتذكر من وفاة والدته سوى جثتها المسجاة، أما وفاة جدّه فيتذكرها بكثير من التفاصيل، بطء الاحتضار الذي مهَّد الصدمة، فجعل الموت أمراً متوقعاً. ولذا وقف مرعوباً بالمفاجأة وراء والده وهو يبكي أمام الجثة، بكاء لا يشبه البكاء في شيء، يتحشرج بكثير من الغضب والهستيريا، نحيب يختلط بصرير أسنان هائج. حتى في أكثر لحظةِ ضعفٍ لوالده، بدا مخيفاً أيضاً. رمقه سنحاريب بطرف

عينه، يجلس بصمت مطبق محدقاً في الفراغ أمامه، الصورة المعتادة له منذ أن عرفه. ما الذي شاهده مع جده ليبكي مثل هذا البكاء المخيف؟ أحسّ بشيء من الرثاء تجاهه، لا بدّ أنه شعر بوحدة قاتلة بعد وفاته. قال بتردُّد:

- إذاً كيف هي المجمعة؟

انتبه إبراهيم بإطراقة متفاجئة، لم يسأله سنحاريب عن المجمعة بهذه الطريقة منذ زمن بعيد. ابتسم ابتسامة لا تكاد تُرى، فكَّر بعمق عاجز ثم قال بنبرة رخيمة:

- إنه مكان لا تستطيع أن تصفه. تستطيع أن تصف الأشياء التي فيه، ولكن تلك الأشياء ليست هو. إنه شيء خاص بك، مكانك، بيتك. لا يمكن أن تصف شيئاً كهذا.

حدّق سنحاريب في والده بحزن. إنه يصف بابل وليس المجمعة، إنه يقول بالضبط ما عجز عن قوله. طأطأ رأسه وهو ينكث التراب بيده، وعاد إبراهيم ليحدق في نافذته.

* * *

لا أثر للسحب، الشمس تسطو بقسوة على السماء. وقف إبراهيم في المدى متطلعاً بوجوم، كلّ شيء يبدو بلا وضوح، كل الخرائط التي درسها ورسمها في مخيلته، تموت في عدم الخواء. ولذا اختار التوجّه أمامه قاطعاً آخر نهر الفرات بعد أنْ قام بتعبئة قربة الماء الأولى، ظناً منه بأنه يميل إلى الجنوب الغربي متجهاً إلى وسط شبه الجزيرة، غير أنه مالَ مع الوقت بشكلٍ مبالغٍ فيه حتى استوى غرباً.

صاد أرنباً أخطأه سنحاريب في المرة الأولى، فتلقّف إبراهيم

السهم في جزء من الثانية، وأطلقه على بطنه المتمدِّد في ركضه. مهارة اكتسبها حينما كان يقضي ليالي أرقه البرزخي في بابل، يطلق السهام الغاضبة في لوح خشبي خلف بيتهم، صوت ارتطام السهم باللوح يرنّ كالصدى الموحِش في غربته المفرغة. ربط جثّته وحمله على ظهر خيله وهو يقول بجفاف:

- يجب أن تصيدَ بطريقة أن تفكّر: إما أنا أو هو. هل تفهم ذلك؟

فيهزّ سنحاريب رأسه بطواعية شاردة، يحدِّق بكآبة رثائية في الأرنب القتيل، يشكُر قلة مهارته التي أنقذته من أن يقتله. ولكن إلى متى؟

جلسا في مفرق تلّين متلاصِقين. شعورٌ هلامي من الأمان يجتاح إبراهيم، محاط بحائطين يمنعان الأبعاد المقفرة من أن تفرض سطوتها على امتداد بصره، وكأن التلّين فراش ولحاف يختبئ بينهما الطفل الخائف. يرتفع القمر في انتصافة الشهر، وكأنه يراقبه، يحدق فيه، استلقى وهو يبادله التحديق، يتخيل لو أن شخصاً ما هناك يتأمل في وحدته كوكب الأرض، ويتخيل شخصاً ما يحدِّق في القمر.

أفاقَ على صهيل الخيل مع دبيب الفجر. يصهل بألمٍ وهو يرفع قدمه اليُمنى الخلفية، أمسكها فوجد فراغاً في محلّ المسمارين في الجهة اليسرى للحدوة. لقد عمل شهرين لدى بيطار في بابل أثناء مراهقته، ولذا قام بفكّها وسار بحثاً عن حجر مسنَّن يوازن به الحدوة على الحافر. الفجر يزحف كحبرٍ أزرقَ منسكب، الفلك لوحة ألوان هائلة. وقف يحدقُ في المدى البديع بكآبة، كل هذا الشعر في كل هذا الخواء، كل هذا الألق الجمالي المخادع، حتى الجثة النافقة

ستبدو جميلة في انعكاسه. فكَّر هل يوجد زيفٌ أكثر من هذا؟ هل ما زال يكره الصحراء؟ إنه بدوي مكتمل الآن، لم يعُد يبحث عن أجزائه الناقصة، وإنْ كان لم يعرف إلى الآن كيف يشيم السحاب ويقتفي الأثر ويكتسب حسّاً غريزياً كحيوان متوحش. ولكنه بدوي كما يظن، يسأل نفسه هل ما زال يكرهها؟ يكره الصحراء؟ يحدِّق في الأفق المصطبغ بالصفرة المتوردة، يتذكّر المجنون الذي صادفه في خواء يشبه هذا في زمن يبدو سحيقاً، يركض وراء الشمس بيدين ممدودتين، يحاول أن يقبض عليها. نعم يكرهها، كمكان يُصاب المرء فيه بالجنون، فيلحق وراء مجهول ما، أو يحاول القبض على شيء لا يمكن القبض عليه. ينحدر بنظراته إلى المدى المترامي أمامه، الطريق يبدو موغلاً في البُعد والتكرار. استدار مولياً ظهره لكلّ شيء، سار مطأطئ الرأس، يتطلع في التراب المذهَّب بخيوط الضوء الوليد. لمح في المدى البعيد أشباح أجسادٍ عند شجرة صفصاف صغيرة، وقف لحظة بتردُّد، الشخوص لا تتحرك. جهَّز خنجره وأخذَ يترقَّب، ولكن لم يبدُ أن أحداً منهم يتحرك. تردد قليلاً ثم مضى إلى الأمام، يقترب بحذرٍ متوجس، يتَّضح الجسدان في وضعيتهما الغريبة والشجرة التي تبدو محترقة، حتى وصل إليها فوقف بذهول متحجِّر، جثتان معلقتان في جذع الشجرة الكبير، مربوطتان بحبل ومتدليتان فوق الأرض، متفحمتان كرماد منطفئ فوق بركة فحم أسود، في كل جزء من جسديهما فقاعات غليٍ متجمدة وآثار أدمغة فارت مندلقة على جباههما، وفي أحدهما شجٌّ في بطنه اندلقت منه أحشاؤه الرمادية بحُمرة منطفئة، كآثار حرة بركانية هامدة. لم يتخيل إبراهيم أن يرى شيئاً كهذا، لا يهمّ أن تكون بدوياً صارماً بقسوة مفتعلة، هذه الصورة

جعلته يشعر برغبة في التقيؤ، ولكنه كتمها بقوّة. أخذ يتطلع بانتباهة متصلبة لاواعية، الجثتان تتدليان بخفّة مع الريح، تتحركان كأغصانٍ متكسِّرة يُمسك بهما لحاءٌ رقيق، يسطع على جسديهما الرماديين ضوء الشروق الأصفر برقّة حانية. أحسّ بكُره نقي للإنسان الذي يدّعي ما لا يملك، بكُرهٍ نقي للحياة، بكُرهٍ نقي للصحراء. انتبه لأحدهما يرفع رأسه المُنحني على صدره، تتكسر قطع جلده المتفحم محدثة صوتاً كتهشّم الزجاج، انتفض إبراهيم في مكانه، الرأس يرتفع ببطء، وجهُ الرجل يظهر مستوياً يحدِّق فيه، بعينين تبدوان أكثر بياضاً في سواد قشرة الجلد المتفحمة، وخط دم متخثِّر على جبينه بأجزاء الدماغ اللزجة المُسودّة. حدّق في إبراهيم بنظرة مذعورة خائفة، وكأنه لا يفهم ما الذي حدث، فتح فمه المتحجِّر بالفحم ليتحدث ولكن لم يخرج سوى صوت فحيح يصعد من حنجرة تكاد تندلق من الرقبة المفتوحة، ولذا اكتفى بالتحديق بعينيه الشديدتي البياض، تلوح فيهما نظرةُ طفلٍ يخاف من ظلامٍ ما. ظلَّ إبراهيم يقف متصلِّباً بذهول لا وعيَ فيه، يطرف بعينيه كثيراً وكأنه يتوقع اللحظة التي سيفتحهما ويرى رأس الرجل عاد مندلقاً على صدره، ولكنه ظلَّ يتطلع نحوه بضُعفه المقشعرّ الذي يبدو وكأنه يتوسل لأحدٍ ما أن يشرح له شيئاً. اتخذ إبراهيم قراراً بالهرب، يكرِّر في نفسه «لا بد أنني أهذي لا بد»، استدار وأخذ يركض بقوة مندفعة، يلتفت كل لحظة إلى الخلف فيرمق الرجل يتابعه بعينيه، يعود ليركض محدقاً في الأرض حيث يزحف الضوء الأصفر اللعين. ويكره الشروق أيضاً، والشمس، الشمس التي لا يمكن القبض عليها.

أخذ يضرب الحدوة المحمَّاة في النار بعنف ليُعيد موازنتها على

الحافر. لقد جزم بحدَّته الصارمة التي لا تردد فيها أنه كان يهذي، أن الصحراء اللعينة تحاول النَّيل منه، لم يرَ شيئاً حقيقياً، بل لم يرَ شيئاً بتاتاً. ولذا صرف النظر عن فكرة العودة إلى هناك، إنقاذ ما بقي من ذلك الكائن الموبوء. شعر بأشعة شمس الشتاء ترتفع، حدَّق في ابنه بنظرةٍ متحجِّرة، يغرق في نومةٍ لامبالية. ناداه بشيء من الحدَّة:

- سنحاريب.

توقَّفت يده عن الضرب فجأة. لأول مرة منذ مدة طويلة يناديه باسمه، شعر بغرابته المستفزّة حينما نطق به. سنحاريب؟ أيّ لعنة هذه. يعرك عينيه الناعستين بخمولٍ نزقٍ، يتطلَّع حوله بسأم المتورط الناقم، تتساقط خصلات شعره الطويلة الناعمة على جبينه، بشرته تزداد تحجُّراً، ولكنه ما زال يبدو كفتى خرج من حميمية المدينة قبل يوم، نُدف من الرقّة تبدو ظاهرة عليه. بدا لإبراهيم كوجود غريب، شخص لا ينتمي إليه، اكسسوارة قذَفت بها فجوة الزمن البابلية. عاد ليضرب الحدوة وهو يقول بتقشُّف حادّ:

- يجب أن نغيِّر اسمك.

التفت سنحاريب وهو يجلس، لفحةٌ مفاجئة من العداء تنضح في وجهه، سيتحمل كل شيء عدا أن تُسلب بابليتُه. قال بإصرار:

- انه اسمي. لن أغيره مهما حدث.

ثم استكمل بحدّة باردة تتناغم مع الضرب المكرّر على حدوة الخيل:

- هل تعلم أين نحن أصلاً؟

ولكن إبراهيم أطرق بقسوة تفتعل اللامبالاة، عاين الحدوة على الحافر، وأخرج المسامير الجديدة من جيبه، ثم قال بجفاف:

- تعالَ. أريدك أن تمسِكَ قدمه.

ثبّت الحدوة، ثم مضيا في طريقهما، بصمت موحش.

الريح والصهيل والفراغ، تضرب في جدار العدم. المدى المنكشف كالأبدية، يتنفس في ألق الصحراء البديع المخادع.

يتجرَّعان الأرز أمام النار، دون طعم، أغصان شجرة الصفصاف الميتة تتهادى مع الريح. يتطلع سنحاريب أمامه، لم يعُد يصاب بالإمساك، لم يعد يشعر بجلده يوشك على التمزق. يراقب الظلمة الداكنة في المدى أمامه، رفع رأسه، بحث عن الهلال المعكوف كالألف في السماء، فلم يجده، عدّة نجوم شاردة كأضواء بيوت قرية صغيرة. التفت نحو والده، يحدق في نافذة عزلته الرتيبة. قال بنبرة باردة:

- كم يوماً مرّ منذ خرجنا من بابل؟

رفع إبراهيم رأسه ببطء، تذكَّر الورقة المقصوصة التي كان يحملها والده. لم يفكِّر، قال بتلقائية رتيبة:

- ما فائدة أن تعرف ذلك؟

أطرق سنحاريب لحظة بِحَيرة.

- لا أعلم. ولكنني أشعر بالفضول.

- لا يهم كم مضى. لن يؤثر ذلك في شيء.

ظل جالساً بأرق، يشعر بدبيب أنفاس ابنه، تخفق بقوة احتقان جيوبه الأنفية. نغزة حارقة من تأنيب الضمير، ماذا لو أنه خرج وحيداً من بابل؟ تركه هناك لقدر سيكون أرحم من قدر الصحراء القاسي؟ ولكنهما مقيَّدان ببعضهما، لا يستطيع تركه هناك. ضوء القمر المكتمل ينسكب على التراب. تذكَّر الخطوط السريعة التي كان

يقطعها مع والده ذاهباً إلى الرياض، الظلمة التي تضرب طوقاً من السواد حول السيارات، حتى يبدو وكأنهم لا يسيرون في طريق فقط، ولكن يحفرون نفقَ ضوء في الظلمة أيضاً. يفكر هل يحفران الآن نفقاً في الظلمة؟ نفقاً في الصحراء؟ ولكن إلى أين بالضبط؟ شعر بالنعاس يزحف بخفّة حلمية، أغلق عينيه وهو يسحق عنكبوتاً يحاول الصعود فوق قدمه.

أفاق في الفجر على فوهة بندقية موجهة إلى رأسه. رجلٌ مع ابنه، يستقر الابن بجانب الخيل بعيداً، ويقف الرجل بسبابة ثابتة على زناد البندقية. جلس إبراهيم ببطء شديد، وانتبه سنحاريب برُعب ليقفز مختبئاً وراء والده.

- ولا حركة.

هذا كل ما نطق به الرجل، لا يبدو أنه تجاوز الثلاثين، يلبس ثوباً غريباً منقَّشاً، وعلى جبينه شقُّ جرحٍ دائري كبير يشبه الخاتم، تتحجَّر عيناه بنظرة ثابتة لا خوف فيها. اتجه الابن إلى الأغراض بارتباك، أخذ بتوجيهات من والده أربع قِرَب ماء من القرب الخمسة، وحمل ثلاثة أرباع مؤونة الطعام الكثير. الصمت يتكسّر في حفيف الريح وصهيل الخيل، رائحة البارود المحتقن تترنح في الهواء، الرجل يحدق بعينين ثابتتين فيهما، سيطلق النار لا محالة مع أي حركة. يجلس إبراهيم بنظرة حقد باردة، يراقب الطفل يحمل ضمانتهم من الموت. قال بهدوء شديد:

- إنك لا تمنحنا خياراً سوى أن نموت. هل تعلم ذلك؟

رفع الرجل حاجبه بخفة لا مبالية، أطرق لحظة ثم قال بأوتوماتيكية:

- طبعاً ستموت. هل يوجد شيء لا يموت؟

تطلع إبراهيم فيه بإطراقة متفاجئة، الطريقة التي قال بها الجملة السابقة توحي بأنه يعرفه. تراجع الرجل إلى الخيل وهو يوجِّه بندقيته بحذر، ركبه بحركة واحدة واختفى في المدى.

حمل ما بقي من متاع. قربة ماء وحيدة، قطع من الخبز، القوس والسهم. التفت إلى ابنه، يقف سنحاريب متصلباً برُعب خالص، وكأنه لا يدرك جيداً ما الذي حدث. قال إبراهيم وهو يركب الخيل:

- هيا. أمامنا طريق طويل.

* * *

لم يكن يسير في اتجاه مستقيم، ولذا ظلّ يحيد يميناً ويساراً. جبال ورمال وهضاب وتلال صخرية وحصوية، شمس دافئة وسحاب بلا مطر، ريح باردة تحفر في الجلد، آثار خطى جامدة في الأرض.

اختبآ وراء صخرة هائلة محدودبة، الصحراء تفور برمل كثيف، عاصفة تخترق فتحات الجسد، يتكون جلداً فوق الجلد البرونزي الذي صبغته الشمس والريح. يتلفعان بأغطيتهما دون جدوى، التراب يجد طريقه إليهما، يبني أمامهما باباً من الموت المحتّم. الفجر يحمل الخلاص.

الريح الباردة تهبّ من كلّ اتجاه، الأرانب والطيور اختفت في الخواء العدمي. لا شيء سوى الخبز المتيبس كالخشب العجوز، يوشك على النفاد. يشربان الماء بجرعات حذرة. ضرب خيله الأصيل بقوة، يركضْ بقدم مغروسة بقسوة في الرمل، وعطش لا مفر منه.

المطر يزخ بنُدف رشّ صغيرة يملأ القربة، ينقطع فجأة فتنكشف الشمس في سماء الظهيرة. يتطلع إبراهيم في المدى، أشجار الكافور تتكدس في السهل، يخوض الخيل في المرعى المليء بالزرع وحشائش العندب والعنصيل وشجيرات الأرطى. يمرّ بين الشجر برتابة هادئة، أشعة الشمس تتسرب بين الأغصان كخطوط ضوء متكسر، رائحة الكافور المبلل بالماء تشبه الحلم. يتشبث سنحاريب بوالده، تختلط رائحتهما النتنة في بعضها، يتذكر بذاكرة ضبابية حدائق بابل، يتطلع في الشجرة الوارفة التي تهف مع النسيم بلطافة أنيقة. خرج الخيل من المرعى فصادفا حفرة واسعة كالخندق، توقف إبراهيم بحذر، نزل من الخيل، اقترب من الحفرة حتى وقف على حافتها: أكوام من الجثث المكدسة بعشوائية فوق بعضها، تغطيها طبقة من التراب، متآكلة الوجه كنحاس مغلي، عارية الجسد بحفر الدود الذي ينخر فيها، التصق اللحم بالعظم حتى بدت العروق كأسلاكٍ مفككة متشابكة، وتآكلت الشفتان فوق الأضراس التي بدت كحديد صدئ. لم يكن واضحاً إن كانت الريح قد أزاحت طبقة من التراب الذي دفنوا تحته، أو أن الريح حملت طبقة من التراب إلى الحفرة التي تمّ رمي جثثهم فيها. لا تفوح منها رائحة عفن ما أو يحوم حولها الذباب، تبدو ملقاة هنا منذ زمن طويل، حتى تشابه ما بقي من جلدها المتصحّر بالتراب. يحدق إبراهيم بنظرة متحجرة، ثمة رجل وقع رأسه في صدر رجل آخر، امرأة يغطي فخذها وجه فتى صغير، طفل متعلق برقبة شيخ بلحية بيضاء.

- ماذا هناك؟

هتف سنحاريب بفضول، ولكن إبراهيم ظلّ مطرِقاً بشرود، يقف

على الحافة. نزل من الخيل بعد تردُّد، اتجه بخطوات بطيئة نحو الحفرة، وقف على حافتها بجانب والده، لاحظ الجثث فتصلب برعب متحجر، دقيقة من الزمن، مجمدة، متوقفة. الغثيان يتكدس في حلقه، تراجع وهو يسقط في ثوبه واستفرغ بقوة. لأول مرة في حياته يشاهد جثة. لقد شاهد جثة والدته وجده، ولكنها لم تكن تشبه الجثة في شيء، مدهونة بالأصباغ، مهندمة بأجمل الملابس، موضوعة في ضريح واسع: وكأنها متجهة إلى حفلة في البرزخ. هذه الجثث تبدو وكأنها الموت في حقيقته، بكل قسوته المتوحشة.

يجلسان أمام النار. يحتضن سنحاريب ركبتيه، يتطلع بنظرة متجمدة أمامه، الصورة عالقة في جدار ذاكرته كرائحة نتنة. يحدق إبراهيم فيه، يفكر في مسؤوليته كأب لهذا الطفل، ما هي بالضبط؟ كيف يجعله بدوياً يتحرَّر من رقة المدينة المشوهة؟ الوقت يمر، هسهسة النار تطن بوحشة. قال أخيراً بهدوء مفتعل:

- لقد شاهدت جثة والدتك وجدك من قبل. ما الفرق؟

انتبه سنحاريب بدهشة، لم يعُد يتوقع كثيراً من والده، ولذا لم يتنبأ أنه سيُفاتحه في الموضوع، رجل قوي مثله لا بد أنه يرى الخوف من جثة أمراً سخيفاً، ولذا ظلّ منزوياً طوال الوقت في تأثُّره بصمت مطبق. فكر لحظة بصعوبة، قال بحيرة مرتبكة:

- ولكنهما لم يكونا ملقيان في حفرة كهذه؟

أغصان شجرة الحماط الضخمة تتحرك مع نسيمٍ تجلّى بخفة، تتدلى منها حبات التين البري.

- ما الفرق؟

تطلع سنحاريب بحيرة متصلِّبة، لم يفهم جيداً. أكمل إبراهيم بنبرة عميقة:

- ما الفرق؟ الموت واحد، لا يهم أن تُرمى عارياً في حفرة ما، أو أن توضع مهندماً في سرداب. لا فرق.

يحدقان في بعضهما بوجوم موحش، عينا سنحاريب تتوسعان بحدقتيه السوداوتين الواسعتين، تلمعان في انعكاس الضوء، يفكر في أن الحياة رخيصة إلى حدٍّ مخيف، حدٌّ يُمحى فيه أي فرق بين رجل يموت ملقى في حفرة تغيب في وحشة الصحراء، ورجل يدفن في احتفال جنائزي بين أحبابه. عاد ليحدق في النار مطأطئ الرأس بوجوم، يغرقان في إطراقة موحشة تهدهدها أغصان التين البري.

القذارة تتكون كطبقات جلدية فوق جسد سنحاريب، حبات التراب في الخبزة التي يلوكها أمام النار المشتعلة، نظرة الجمود الطفولية تترنح كالضباب في عينيه.

صاد أخيراً حمامة بنفسه، بيضاء منقَّشة بالسواد من فصيلة النمش القطيفي، بعينين تختلط حُمرتهما بخُضرة باهتة، كانت تجول بوحدة كئيبة. أخذ يحدِّق فيها بنظرة ذاهلة، خط الدم الذي ينقع في ريشها الأبيض المنقش. بدا وكأنّ حدقتها تتوسع، تصعد إلى مؤخرة عينها، تحدِّق فيه بنظرةِ تساؤل مفجوع بالمفاجأة: لماذا؟ لتأكل فقط؟

لم يتمكن من أكل لحمها. تطلع نحوه إبراهيم بنظرة سأم:

- كل ذلك اللحم الذي تأكله في بابل، كنت تظنه يأتي من أين بالضبط؟

أطرق بحيرة ثم قال:

- ولكنني لم أقتله.

لقد بدأ إبراهيم يضيق ذرعاً به، إنه لا يفهمه. قال وهو يرفع يده بشيء من اللامبالاة:

- على كيفك. سأحتفظ لك بنصيبك.

يتطلع في والده، يطبق أسنانه على اللحم، فتتفزّر عصارته على شفتيه. يجلس كعادته محتضناً ركبيته. تذكَّر جده ضاري، يقضي معه نهارات نادرة ليعلِّمه الرماية بالسَّهم، يقصّ عليه قصصاً لا يفهمها، يشرح له كيف تنبت النخلة، كيف تعيش دويبة الخلد، كيف كانت شبه جزيرة العرب موطناً للأنهار والغابات. يخبره ألّا يأخذ الحياة بجدِّية أبداً، أن يعاملها كارتجال مفرَغ من المعنى، نزوةٌ خاطفة، ألّا يعطي الأشياء فيها عمقاً ثقيلاً سيكبِّله. لا يفهم ذلك فيهزّ رأسه بطواعية مستسلمة. ينتبهان للوقت المهدر بعيداً عن الدرس، يتذكرانه فيعود ليُمسك بالسهم والقوس، يعجز عن تعلمه فيربت ضاري على كتفه، يقول باستسلام مطمئن «لن تحتاج إلى أن تتعلَّمه أصلاً، ستعيش هنا في بابل بين الحدائق المعلقة والحصون المحصنة والشوارع المعبدة، حتى تموت. لن تطلق سهماً على شيء أبداً».

الجوع ينخر في بطنه، لم يبقَ سوى حبات من التين البري والخبز المتخشِّب. أخرج قطعة اللحم الباقية، وضعها على النار. لم يتفوه إبراهيم بشيء قد يجعل ابنه يعيد النظر، اكتفى بأن يبتسم في نفسه ابتسامة واسعة لا تُرى. أكل سنحاريب ببطء، يفكر من جديد إنْ كان للوعول مردوخٌ يعدُهُم بأنه سيقوم بحمايتهم، يموتون قبل أن يسألوا أنفسهم: لماذا لم يقُم بحمايتنا؟ أين هو؟ قال بنبرة متسائلة لا خوف فيها:

- هل سيتركنا مردوخ نموت، رغم كلّ الصلوات والقرابين التي منحناها له؟

ما زال يهذر بمردوخ وهراءات بابل، فكّر إبراهيم بامتعاض، في كلّ مرة يخطو خطوة إلى الأمام، يعود سريعاً عدة خطوات إلى الوراء. حدّق فيه بنظرة خاملة تصطبغ بحُمرة النار بينهما:

- مردوخ لن يفعل شيئاً، لأنّ مردوخ ليس له وجود.

أطرق سنحاريب بِحَيرة كئيبة. ثم قال:

- أليس يراقبنا الآن؟

فردّ بنبرة مقت متبرِّمة ببطء:

- سيكون ذلك ألعن، أليس كذلك؟ أن يراقبنا ولا يفعل شيئاً لإنقاذنا؟! أفضّل أن لا يكون موجوداً على الإطلاق.

هسهسة النار بينهما، وطقطقة الفكّ الذي يطحن اللحمة المطاطية، والريح المتكسِّرة فوق الشجرة، والصمت الثقيل. ثم النوم المكدَّس بالأحلام التي تسطو الكوابيس على نهايتها.

* * *

يكره سنحاريب الظلام، ويكره الشعور بالخوف. ربما لأنه لم يعرفه من قبل. لم يشعر مرة بالخوف في بابل، عاش زمنه القليل وهو يظنّ أن القدر في صفه، أن السماء لن تسمح بشرٍّ يحدث له. يستلقي في الظلام بوَجَل، يشعر باحتقان السواد يجثُم على صدره. اعتدل في جلوسه، ضوء القمر يبدو قوياً، يُنير الأرض بشُعاع أبيض شفاف. يجب أن تكون شجاعاً، أخذ يكرِّر في نفسه، يجب أن تواجه مخاوفك، يجب أن لا تكون طفلاً كما يُعيرك بذلك والدك. قام بتردُّد، بدا وكأن خيوطاً تحرِّكه دون أن يشعر. سار مبتعداً عن

مكان المبيت، وقف يحدِّق في المدى الموشح بضوء القمر الرتيب، يسبح على قنن الجبال كغيوم صخرية معلقة في السماء، يستنشق الظلام بارتباك، وكأنه يترقّب اللحظة التي سيواجه فيها الوحوش والشياطين والدواب وكل ما يقطن في خفاء الظلمة الموحش. ولكن لا شيء، مجرّد صمت أريحي ثقيل، يبدو وكأنه يتفتّق من عمق سحيق، يكاد يسمع تنفس الأرض ينبجس برتابة من تحت قدميه، نائمةٌ في خمول الظلام الرخيم. قفل عائداً بشعورٍ عميق من الارتياح، ولكنه أضاع الطريق، أخذ يركض برعب من جهة إلى أخرى، يدور في محيط دائري قطري كمتاهة لا تؤدي إلى شيء. وحينها وقف بانهيار، سمع صوت هسهسة مرعبة تصدر من الظلمة بجانبه، التفت بصعوبة وبعد برهة من التردُّد إلى مكان الصوت، فرأى حركة في الظلام تحت ضوء القمر الشاحب، اقترب خطوتين بحذر شديد، ثلاثة أشخاص يُقعون على جثة حيوان ما، يقطعون اللحم بأيديهم ويأكلونه، يمضغونه بعنف بدائي بَهيم. طقطقة الأسنان في اللحم المضرَّج بالدم، يلمع في الضوء الأبيض الشحيح. بدا وكأنهم نسخة قديمة من البشر، بملامح وجه انتقالية بين الإنسان والقرد كما يعرفه سنحاريب. أخذ يحدّق فيهم بذعر مرتعب، لا يستطيع أن يحرك عضلة في جسده. انتبه لوجوده أحد الثلاثة، رفع رأسه بفحيح عدائي، تراجعوا قليلاً بخوف متوثِّب، يراقبون الضحية التي تقف أمامهم، مجرّد جسد صغير لكائن لم يرَوْه من قبل، تفوح منه رائحة خوف قوية. هل ينقضّون عليه أم لا؟ بدا أنهم يفكرون في ذلك، بينما تقطر قطع اللحم النيء دماً لزجاً بين أيديهم. وقف أحدهم متوثباً، فتبعه الآخران، وهمّوا جميعاً بالانقضاض على

سنحاريب. ثلاث طلقات قوية خرجت من مكان ما، فسقط المتوحّشون الثلاثة ككرات البلياردو. التفت سنحاريب إلى جهة الصوت، لم يرَ غير دخان البندقية وسبطانتها الفضية اللامعة في بؤرة الضوء. قال صوت عميق في الظلّ:

- ألم تكن تعلم أن كثيراً من الأشياء المخيفة تختبئ في الظلام؟

ظل سنحاريب واقفاً بتصلُّب لا وعي فيه، يشعر وكأنه يسقط في هوة حيث تسحب الجاذبية رأسه بقوة تكاد تفجِّر دماغه. قال الرجل بصوته العميق وقد أنزل البندقية بجانب فخذه:

- ألم تكن تعلم أيضاً أنّ من قلة الأدب ألّا ترد على الشخص الذي أنقذك للتوّ من الموت؟

انتبه بصعوبة، يتنفس بقوة منكتمة وعينين جاحظتين، يشعر بنغزات الجزع المروّع تتكهرب في نخاع عظمه، تقذف رصاصاً من العرق. قال بصوت مبحوح دون إدراك واضح:

- جدّي يخبرني أن لا شيء في الظلام عدا العدم.

- جدُّك رجل أحمق. لا بأس به ولكنه أحمق.

أطرق الرجل قليلاً ثم قال بنبرة غريبة وكأنه يسترجع شيئاً قديماً:

- هل مات ضاري أخيراً؟

حملق سنحاريب بفضولٍ مندهش ساعده على التخلُّص من بعض جزعه، قال بشكّ وهو يحاول البحث عن وجه الرجل:

- كيف تعرف ضاري؟

زفر الرجل وهو يتقدّم خطوتين فيظهر سطح قبعته المدورة في

ضوء القمر، جلس على صخرة وكأنه يحدق في الفضاء البعيد. قال بعد لحظة:

- أعرفه كما أعرف الآخرين: من مكان ما.

أطرق لحظة ثم أكمل:

- إذاً مات في بابل. هاه.

استجمع سنحاريب شيئاً من شجاعة داهمته بسبب نفوره من الموقف وغموض الشخص المستفزّ، قال بارتباك:

- لماذا تسألني إذاً ما دُمت تعرف؟

- إنني أحب الأسئلة، الطريقة التي تجيب بها تكشف مَن أنت.

- ومن أنا؟

- لم تجب، وعدم الإجابة يكشف أيضاً مَن أنت. ولكن على أية حال لستُ في حاجة إلى تحليلك، إنني أملك فكرة واضحة.

صمتَ لحظة ثم أكمل:

- لماذا تخاف من الظلام؟ إنه مجرد انعدام الضوء، مجرد لون.

- أنت قلت أن كثيراً من الأشياء المخيفة تختبئ في الظلام.

- وهل تصدِّق كلّ ما يُقال لك؟

أحسّ سنحاريب بشيء من الغضب، قال بحدّة:

- مَن أنت بالضبط؟

- أنا؟ لا أعلم. هل تعلم من أنت؟

- أنا سنحاريب.

قام الرجل وتقدّم خطوتين فانكشف جزءٌ من جبينه وقد رفع قبعته قليلاً كرجلٍ متعب في نهاية يوم طويل. قال بشيء من السخرية:

- سنحاريب، كملك من ملوك بابل. ولكنك رغم ذلك، لست في بابل. لماذا؟

ارتبك في مكانه بحَيْرة عصبية. قال كيفما اتفق:

- لأن أبي يقول إننا لا ننتمي إلى ذلك المكان.

- هو الذي لا ينتمي إليه. أنت ولدت وترعرعت فيه إحدى عشرة سنة. أليس كذلك؟

تطلع نحو جبين الرجل الذي يلمع في انعكاس الضوء، يشعر بشيء من الألم الذي يُحدثه عدم فهم مركّز. ازدرد ريقه بقوة، قال الرجل وهو يتكئ على البندقية بخمول رخيم:

- من تحبّ أكثر: جدّك أم والدك؟

- لا أعلم.

- هل تريد أن تكون حيواناً كوالدك؟

- أبي ليس حيواناً.

- أنا لا أقولها كمثلب. إنه أمرٌ عظيم، أن تكون قادراً على أن تكون حيواناً بعد كلّ هذه الآلاف من السنوات التي أمضاها الإنسان بحثاً عن التمدُّن، اختلاق الألق المتألق لكائن يرتقي في سلم تطوره نحو مرحلة تجلٍّ سماوي، نحو نبوءة من الأخلاق والمثل والتبريرات والتنظير.

كانت هنالك نبرة شديدة الجاذبية بسخريتها في صوته، وكأنه يستمتع ويضحك في الوقت نفسه على ما يتفوّه به.. صمت ثم أكمل بالنبرة نفسه:

- والدك حيوان نقيّ يتجرَّد من كل شيء إلا ما يخدم نزعاته

الخاصة رغم قناعته بتفاهته كفرد، بهامشيته كبصقة في بحر. هذه الازدواجية بين الذاتية المفرطة والشعور العميق بالدونية، توحي بعقلية لا تبالي كثيراً بما هو منطقي وما هو تحليلي وما هو استنتاجي. الحياة بالنسبة إليه مجموعة حركات حسية، أكثر من كونها أفكاراً. إنه يبحث عن تلك المدينة الصغيرة ليس لأنها بيته، ليس لأنها فكرة ما، ولكن لأنها مكانٌ اعتاد عليه، لا أقل ولا أكثر. إنه كالحيوان الذي يتبوّل على مكان جلوسه ليفرِض ملكيته عليه، لا يملك فكرة واضحة عن هذا المكان كبيت أو كفكرة نبيلة تبرِّر وجوده الأصيل ككائن يعود إلى مرجعية ما، ولكنه يتبوّل عليه لأنه يريد مكاناً، ويريد هذا المكان لأنه اعتاد عليه، لأنه وُجد فيه منذ أن كان، لا أقل ولا أكثر. إنها مسألة عناد غريزي لا علاقة له بالاستنتاج العقلاني. والدك حيوان متجرد رغم ترسُّبات إنسانيته التي اكتسبها بفعل المُعايشة الحتمية للأسف. هل تريد أن تكون حيواناً؟

يتطلع سنحاريب حوله بذهول شارد، يعاوده الشعور العارم بالجزع بثقل مفاجئ، لا يفهم شيئاً ويشعر وكأنه في حلم مكركب سيؤدي إلى هاوية ما. قال بعنف يبدو كردّة فعل متطرفة على تبرمه من الذعر الذي يشعر به:

- لا لا. لا أريد أن أكون حيواناً. لا أريد أن أكون متجرداً.

فقال الرجل بنبرة جافة:

- لماذا؟

- لا أريد.

- لماذا؟

- بس. لا أريد وبس.

زفر بشيء من الحدّة، بدا وكأنه يحرِّك رأسه في الظلام بخيبة أمل لا مبالية.

- أنا لا أفهمك. لا أفهمك. لا أفهمكم جميعاً.

انسحب وهو يقول ببرود:

- سرّ أماماً وستجد والدك نائماً.

ثم وقف فجأة وقد اختفى في الظلمة تماماً. قال بعد لحظة وكأنه يسترجع ذكرى قديمة جداً:

- هل مات ضاري راضياً في بابل؟

أطرق سنحاريب بارتباكه المحتقن، فكَّر بقوة دون أن يصل إلى نتيجة ما.

- لا أعلم. لقد كان يضحك أحياناً، ولكنه لا يحب الكلام، ولا الطعام، ولا الحركة. يحدق كثيراً في الفراغ، وكأنه ينتظر شيئاً ما.

بدا وكأن الرجل ابتسم، اختفى بخشخشة خطواته المبتعدة في المدى. انتبه سنحاريب ببطء يتفتق من شرود ذهوله، ركض أمامه دون أن يلتفت إلى الجثث الثلاثة المتهاوية التي تذكَّرها فجأة، حتى وصل إلى مكان المبيت.

أخبر والده طوال الأيام التالية بقصّة الرجل ذو القبعة المدوّرة والمتوحشون الثلاثة. ولكنه نهره أخيراً بعنفٍ لا مبالي:

- لقد كنت تحلم.

ثم أقفل الحديث بصرامةِ مَن لا يملك طاقة تكفي لسماع أوهام طفل مهلوس.

* * *

الشمس تصبغ جبينه المتشقق. نزل إبراهيم عن ظهر خيله الذي بدا وكأنه لم يعُد يقوى على حملهما سوياً، واكتفى بأن يضع ابنه النائم فوقه. بحث عن أرض رطبة يحفر فيها عن الماء، ولكن الصخر يتصلب في السطح الحديدي، وجد نبعاً جافاً فحفر فيه دون أن يصل إلى نتيجة، الماء لم يتفزر كالدم في الجرح. طعم القيح القديم الذي شعر به مع والده ذات جوع وعطش عاد ليستقر في فمه، صداع الإنهاك المرير يربض على عرق جبينه كخط ديناميت سينفجر.
أخذ يجرّ الخيل برتابة، تضرب قدماه بقسوة في الأرض الصلبة، يتذكر فجأة سؤال والده لابن سياف «كم إنساناً وُجد منذ الأزل»، فيشعر برغبة في معرفة ذلك على غير عادته بعدم المبالاة بأي حقيقة تؤدي إلى نتيجة فكرية ما. يلتفت إلى الخيل، مرافقه الذي لا ينام، يسأله:

- ربما تعرف أنت كم إنساناً وُجد منذ الأزل؟

شخر الخيل بحشرجة متأوهة. إنه ذو نسب رفيع يعود إلى «زاد الراكب» كما تعود كل خيول العرب، كما يعود كل مخلوق إلى أصل ما، إلى صفر بدأ منه كل شيء. ولكن الخيل لا يدرك نَسَبَه بدقّة، كل ما يدركه أنه خيل أصيل تربى على الخيلاء والأنفة والوفاء في بابل العظيمة، فما الذي يفعله مع هذا الرجل الغريب في هذا المكان السحيق؟ بل ربما لا يعرف هذا أيضاً، فكَّر إبراهيم بخمول وهو يلتفت نحوه، حيوان لا يفهم ولا يدرك ولا يغضب، يسير منقاداً خاضعاً إلى غاية لا يعلمها بنخير منهك مريض يثير الشفقة والتقزز. «إذاً نحن لا نختلف كثيراً أنا وهو» فكَّر إبراهيم وهو يضحك بخفّة، على غير عادته أيضاً. ولذا عاد ليقول وكأنه يعتذر ساخراً:

- أنا آسف. كم إنساناً وخيلاً وُجد منذ الأزل؟

ولكن الخيل شخر بالطريقة نفسها. فهزّ ابراهيم رأسه وهو يشرب جرعة ضئيلة من القربة، ثم قال:

- إنني أفهمك يا صاحبي. من يبالي؟

الليل يسحب الشمس ببطء. وقف بيأس.

- كيف لم أدرك ذلك؟ أن الأمر سيكون صعباً، رغم أنني مررتُ به من قبل؟

أطرق الخيل عاجزاً. يحدق كلاهما في زرقة الغروب الداكنة تنهمر من السماء.

- ولكن إن كنت تستطيع توقُّع ذلك فستصبح الحياة سهلة، كتاب مكشوف. وهذا حلم محظور، لا بد من احتمال الفشل. أليس كذلك؟

الخيل مطرق بكثير من الملل الناقم، وكأنه لا يطيق محاولات إبراهيم لافتتاح نقاش ما، ولم يعُد قادراً على احتمالها. ولذا تنحنح أخيراً بسأمٍ ثم قال:

- هلَ أنت مصرٌّ على الحديث؟

فقال إبراهيم ببرود:

- لدينا الكثير من الوقت.

- هذا صحيح.

يسيران ببطء رخيم نحو أفق أزرق داكن، تُخشخش خطواتهما بنغمٍ متكرِّر هادئ. اللحظة تبدو كحلم طريّ من أحلام الشتاء الطويلة، حيث تتمدَّد اللحظة وسط دفء لَدِنٍ لذيذ. قال إبراهيم بفتور خامل:

- إذاً؟

- إذاً ماذا؟

- عن أي شيء تريد أن تتحدث؟

- أنا لستُ مَن يفتقر لرفاهية الحديث. يجب أن تبدأ أنت.

- طيب. كم خيلاً وُجِدَ منذ الأزل في رأيك؟

- وما أهمية ذلك؟

- أريد أن أعرف فقط.

- ثم ماذا؟

- لا أعلم.

أطرق الخيل لحظة فيما بدا شبيهاً بابتسامة ساخرة. قال بعمق لا يقلّ في فتوره الخامل:

- هذه هي مشكلة فصيلتكم. حسب ملاحظاتي المتواضعة طبعاً. تعرفون الكثير، ولكن هذا الكثير ليس كافياً. المعرفة لديكم مثل السلم الذي يرتقي نحو أبدية ما، السلالم التي تصعدها تجعلك ترى العالم جيداً، ولكنها لا تؤدي إلى نهاية، لا تصل إلى نتيجة، إنه شيء يثير لديّ لذة غامضة، مراقبةُ تصرفات الإنسان التي تؤدي إلى لا شيء.

الزرقة المريضة تتثاقل كغشاء شفاف. التفت إبراهيم نحوه باعتراض منهك، يسيران متلاصقين ببطء هادئ، عاد ليتطلع أمامه وهو يقول:

- لم أكن أتوقعك حادّاً لهذه الدرجة.

- الحقيقة حادة.

- الحقيقة نسبية.

- بالنسبة إليكم. ولكن ليس بالنسبة إليّ.

- صحيح. أنت حيوان.

- وأنت لست؟

- لستُ ماذا؟

- لستَ حيواناً؟

- نعم. ولكن ليس بالمعنى الهمجي للكلمة.

صهل الخيل بصوت يشبه الضحك.

- همجي؟

- نظام الغابة أبرزُ مثالٍ همجي. هل تعلم ما هو أكثر همجية منها؟

- لقد أفحمتني، فعلاً أنا لا أعلم. ربما لأنني متُّ مع الـ 60 مليوناً الذين ماتوا في الحرب العالمية الثانية.

أطرقا لحظة بالخمول الفاتر والخطوات المدندنة والزرقة المتداكنة نفسها. قال إبراهيم:

- إذاً ماذا تقترح؟

- لا أقترح شيئاً. الطبيعة هي التي تقترح.

- وماذا تقترح الطبيعة؟

-أجناس الحيوانات تتقاتل، كما يفرضه منطق الصراع الغابي، ولكن الحيوانان من جنس واحد لا يتقاتلان إلا نادراً، لأنهما يسيران وفقَ خطّ واضح من القوانين الطبيعية البديهية، كل فرد منهما يأخذ حصته ويمضي في طريق رتابته الأوتوماتيكية، ولا يتحرك ضد شبيهه إلّا حينما يشعر باعتداء ما، بتهجُّم ما، بتجاوز خطٍّ ما. هذا هو ما يعنيه أن تكون حيواناً نقياً، أن تعيش وفق رتابة أوتوماتيكية في سلام

تام متناغم مع قطيع جنسك. وفي هذه الحيوانية النقية تكمُن أخلاقياتي التي تفوق في سموها اصطناع الوعي البشري المتمدِّن في حضارة وعيه المتكلفة. أنا لا أحاول تبرير موقفي، لا أحاول التفكير في كُنه وجودي، أنا حركة حسية لا تتجاوز هذه القوقعة اللطيفة من المحدودية المريحة. ولذا لا أطمع، ولا أترقب، ولا أستنتج، ولا أحقد. أنا أعيش فقط.

أطرقا من جديد. يسيران بالوتيرة الناعمة المنومة نفسها، بلا اكتراث مَن يتفكك ويتساقط في حلم رقيق بخفة ضبابية. قال إبراهيم وهو يشعر بمزيد من الفتور:

- إنك متحدث بارع بالنسبة إلى خيل.

- صدقني، أن تكون شخصية في حياة، أو شخصية في وهم، لا فرق. كلاهما يورثان شعوراً بالسخافة. ألا تشعر بالسخافة أحياناً؟

- لماذا؟

- لأنك تمثل شخصية في الحياة.

- وماذا يعني هذا؟

- يعني أنك قد تكون استطراداً ما خارج سياق معيَّن. مثلي.

- وهل أنت استطراد ما خارج سياق معين؟

- أظن أننا جميعاً استطراد ما خارج سياق معين. المضحك أن هذا الجميع يظنّ أنه السياق وأن ما خارجه هو الاستطراد. ولكن لا أحد منا هو السياق فعلاً. والمشكلة ليست هنا، فلا مشكلة في أن نكون استطراداً لعيناً، إلى الجحيم، المشكلة الحقيقية هي كالآتي: إذا لم يكن أحدٌ منّا هو السياق، فما هو السياق بالضبط؟ ذلك الذي

تمّ اختلاقنا خارجه. هل تعرفه أنت؟ ما هو أين هو ماذا يكون؟ هل تعرف السياق؟

- لا.

- ولا أنا.

صمت إبراهيم بخفوت منهك، منهياً حفلة النقاش الفاترة وهو يطرد محاولات البحث عن سياق ما، عن معنى ما. يفتِّش عن صمت اللاشيء المختبىء في مكانٍ ما في يقظته.

الظلمة تقتلع ببطء وحشة المدى، يشعر بشيء من الامتنان لها. جرعة الماء تكتسب طعماً نقياً كلحظة فرح عابرة، هل للحياة طعم؟ فكَّر متأرجحاً فوق ظهر الخيل الهزيل، يتشبث ابنه بطرف قميصه بصمت موحش وسط الظلمة المتكاثرة. نعم لها طعم، إنها هذه الجرعة الأخيرة من القربة. مدَّها إلى سنحاريب حينما سأله جرعة من الماء، وسمعها تنحدر في حلقه كالذكرى التي توشك على الانطفاء.

استلقى متوسداً حجارة مسطحة، مكتفياً بغطاء سرمدي مرقَّع بالنجوم. أكلا قطعة من الخبز، تنحدر في حلق يابس. ينكمش سنحاريب في خوف الظلام، قال بنبرة مثقلة بالإعياء:

- هل انتهى الماء يا أبي؟

تظاهر بالنوم مغلِقاً عينيه، فأطرق سنحاريب في استلقائه. وطئ طرف النوم كأصبع على حافة الشاطئ، ينصت إلى حفيف الورق في أغصان شجر النخيل المهجور، وأنفاس ابنه التي تتردد بنغمة كئيبة، والنخير المريض لخيله الأصيل ذو النسب المجهول، تهفهف الريح الباردة حرارة جسده المنهك. يرى بين النوم واليقظة بيتهم القديم في

المجمعة، ومدرسته القديمة في المجمعة، وسيارة والده المهجورة تحت شجرة الطلح منذ دهر، ثم نام. حلم بنفسه يركض في الصحراء، مادّاً يديه، يطأ الحصى المدببة فتدمى قدمه الحافية، ينكمش جلده حتى تنكشف عظامه الناتئة من ورائه وتتفكك عروقه كجذوع الشجر الميت، ولكنه يركض ويركض، بيدين ممدودتين. يلمح بابَ حديدٍ يقف وحيداً في الخلاء، يشبه باب بيتهم القديم في المجمعة، يظهر من ورائه عدة رجال بأقنعة سوداء غريبة. يركض نحوه بسرعة، ولكن الباب لا يقترب، المسافة ترفض الخضوع للمنطق، يركض إبراهيم بقوة عنيفة دون أن يقترب، وكأنه معلق في رسن كالكلب الذي يركض في مكانه. الرجال يضحكون، أحدهم يُشعل النار في الباب، ترتفع إلى الفضاء وكأن بيتاً لامرئياً يحترق. يبتعد عنه إبراهيم، باكياً، يركض في اتجاه مختلف، باكياً، يمدّ يديه باكياً، يشيخ ويتهدّل ويترنّح، يتفتت قطعة قطعة حتى لا يبقى منه سوى رأسه، يشعر به كتمثال رملي صنعه طفل ما، ولذا تذروه الرياح ببطء، الجبين ثم الأنف ثم الشفتان ثم العينان ثم الحدقتان، يشعر وكأنه يطير موزّعاً في كل اتجاه، يتفرّق لدرجة أنه لا يعي أين هو، مجرّد ذرات رمل تتناثر بعشوائية مع الريح، وتستقر فوق تراب الصحراء، المكان الذي يكرهه، المكان الذي يُصاب المرء فيه بالجنون.

أفاقَ والفجر ينتشر بألقه الشاعري المخادع، حبّات العرق جامدة فوق جبينه. منذ زمن طويل لم يرَ هذه الكوابيس. جلس يتطلّع بوجومٍ في المدى الأزرق، يتخيَّل نفسه يركض في امتداده المطلق. انتبه ببطء فالتفت غلى يمينه، وجَدَ خيله وقد نفق، مجندلاً على طرف بطنه. اعتدل في جلسته بتصلُّب منهك، يحدِّق فيه بنظرة رثاء

متحجِّرة. التهم نصف القطعة الأخيرة من الخبز برتابة مميتة، تغمره صفرة الأفق المرقعة بالغيوم الحليبية.

وقف سنحاريب بجانب والده الجالس أمام الخيل، يشعر وكأنه لم يُفق بعد من نومه، ما يراه مجرد كابوس وقح. قال بحتمية لامُصدّقة:

- إذاً سنموت.

قام إبراهيم أخيراً من مكانه، أخذ يجمع الأغراض دون أن ينبس بكلمة. أكمل سنحاريب بِحَيْرة متأثرة وكأنه يحادث نفسه:

- كل هذا لأجل ماذا؟ أنا لا أفهم شيئاً ممّا يحدث.

أخرج إبراهيم السكين الكبيرة، واقترب من الخيل ليقطع جزءاً من لحمه. غرسها في بطنه فسال الدم متخثراً، يفوح بعفن يصرع. تصلَّب سنحاريب مقشعرّاً بجانبه، يحدِّق بذهول منصدم، الخيل الذي رافقهما منذ بابل، الخيل الذي اشتراه والده بأموال طائلة، يقطعه الآن بقسوة لامبالية ليأكله. يتطلع في والده بصدمة متحجِّرة. التفت إبراهيم إلى ابنه:

- أحتاج إلى قليل من المساعدة؟

يحدقان في بعضهما، نظرة رعب تتخايل في عيني ابنه، يتطلع إبراهيم فيهما باستغراب، لا يفهم لماذا كلّ هذه الصدمة، إنه مجرد خيل مات وتجب الاستفادة من لحمه. ولكنه لا يقول شيئاً، لا يملك ما يكفي من الطاقة. ولذا يعود لتقطيعه، يضع أربع قطع في الجراب، ثم يقوم بيدين مخضبتين بالدم العفن. سار عدة خطوات دون أن يلتفت. سنحاريب يقف متصلباً، يراقب والده الذي يمشي برتابة أوتوماتيكية. توقف فجأة والتفت:

- يجب أن نمضي. هل ستأتي؟

ظلّ مطرقاً بأثر الصدمة. قال بذهول صبياني متحجر:

- إنك مجنون. هل تعلم ذلك؟

حدّق إبراهيم فيه منهكاً، تفصل بينهما بضعة أمتار. صمتٌ ثقيل يقطعه نسيم مريض وأنفاس متعبة. قال بعد لحظات بسأم لامبالٍ:

- نحن لم نكن ننتمي إلى ذلك المكان. كم مرة أحتاج إلى أن أعيد هذه الكلمة؟

- أنت الذي لا تنتمي إليه. أنا ولدت وترعرعت فيه إحدى عشرة سنة.

هزّ مطأطئاً رأسه بعجزِ مَن تورط في موقف لا يُمكن أن يُشرح، يلمح أصبع قدمه الكبير يخرج من شق في حذائه، مُقددٌ الجلد كصخر معمر.

- أنت...

توقف قبل أن يقول «طفل لا تفهم أشياء كثيرة». أطرق لحظة وكأنه ينقب عن الكلمة المناسبة، ثم قال:

- أنا لا أنتمي إلى ذلك المكان لأنني لست منه، أنت لا تنتمي إليه لأنه لا يوجد أحد لديك هناك، ولذا أنت تنتمي لي. هذا قدرك وهذا قدري، لا مفرّ للأسف من ذلك.

- إذاً نحن متورطان ببعضنا؟

ازدرد إبراهيم الفجأة في ريقه المتيبس. بالفعل لا يوجد طريقة لقول ذلك دون الألم الذي يحدثه، فكر وهوِ يكاد يستبين رغم المسافة التي تفصلهما ملامح ابنه المتأثرة. قال كيفما اتفق:

- يجب أن نستفيد من الوقت قبل أن ترتفع الشمس.

ثم استدار جازماً على ألّا يلتفت، يُسمّر بصره بنظرات تكاد أن تلتف رغماً عنه. حتى سمع وقع خطوات سنحاريب وراءه، تتردد بصمتٍ متوتر يتكدَّس برائحة جرح مفتوح.

الصمت يبدو أكثر ثقلاً بينهما. يسرقان تحديقة شاردة في بعضهما، فيبدو كلاهما للآخر كظل يتآكل في بطء تلاشيه.

وقفا في آثار واحة مقفرة. يجلس سنحاريب متكئاً على شجرة زيتون عرّاها العطش، يتقي الشمس بما بقي من أغصانها مكتفياً بخمول أشعث بالٍ. وقف إبراهيم بعيداً عن الشجرة، يتطلع في المدى الذي يتكرر بعناده الصارم نفسه. لم يكن يراقب شيئاً، لم يكُن يبحث عن إجابة ما، طريق ما، إشارة ما. يحدِّق فقط، منفصلاً في شرودٍ خادر يتمنى ألّا ينقطع. لمح بزاوية عينه ظلّه يتحرك من الجانب الأيسر، يزحف بطيئاً بطريقة فرجارية حتى استقر أمامه. طأطأ إبراهيم رأسه، تطلع فيه بوجوم متحجر لا يملك اهتماماً يهدره على هراء جديد. خرج صوت من الظل:

- أها. إذاً تراني؟

قال إبراهيم بعداء منهك:

- وماذا الآن أيضاً؟

- هل هذا سؤال أم ملاحظة؟

- لستُ في مزاج يسمح لي بالإجابات المتذاكية.

- لم أقصد ذلك أبداً.. كنت أعني هل تريد أن تعرف فعلاً ما الذي يحدث، أم أنك تبالغ في طرح الدهشة التي تخرج على صيغة سؤال يعبِّر عن عدم فهم مستفز؟

أطرق إبراهيم لحظة وقد أحدّ نظراته محدقاً في وجه الظلّ، بلا

ملامح، مجرد كرة مدورة من السواد. قال بحدّة صارمة تفتقر إلى أدنى درجة من المبالاة:

- من أنت؟

- سؤال أحمق. لو سمحت لي باستخدام لغة سوقية.

- إذاً أنت ظلي فعلاً؟

- ومن سأكون غير ذلك؟

انفصل الظلّ عن موضع اتصالهما من ناحية القدمين، سار عدة خطوات في بعده الثنائي المحدود. بدا وكأنه جلس على حجرٍ يلمع كالرخام. زفر وهو يلتفت نحو المدى المشخن بصُفرة الشمس.

- لقد تعبت.

- من ماذا؟

- من كل هذا.

- وما هو كل هذا؟

- إنه شيء لا يحدد.

- لماذا؟

- لأن الصفر لا يمكن تعريفه. لأن العدم لا يمكن تحديد ماهيته. «هذا» مادة لامُعرّفة. لا ليس مادة. إلكترون. ليس إلكترون. ذبذبات. لا لا، ليس ذبذات أيضاً. ربما موجة، فراغ، هلام. ماذا بعد؟ هل يوجد أخريات؟

- أخريات من ماذا؟

- مصطلحات تُعرّف ماهية الشيء. إنها كثيرة. كثيرة جداً جداً.

رفع إبراهيم رأسه نحو المدى بنظرة مرهقة. بدا غير راغب في

الخضوع لشعور الدهشة الغاضبة، واكتفى بملازمة لامبالاته الحاسمة. ولذا قال وهو يحدِّق في الفراغ كيفما اتفق:

- لا أعرفها. ولذا لا أعرف إنْ كانت كثيرة.

ثم عاد ليتطلّع في الظلّ.

- كيف تعرفها أنت؟

فرفع الظلّ يديه وكأنه يشير إلى ما حوله:

- إنني ظلّ. إنني أملك من الوقت والخفَّة ما يكفي للملاحظة، بل يجوز القول إنني لا أملك سوى الملاحظة، التقصي، الاختزال، الاستنتاج، الدراسة، التفهُّم، التبصُّر. اللاتدخل، اللاانحياز. الحياد.

ضحك إبراهيم بخفوت وهو يهز رأسه ساخراً:

- كلام كلام كلام. لا أصدق أنَّكَ ظلي.

قام الظلّ من الصخرة بطريقة دراماتيكية وكأنه لم يسمع إبراهيم، قال بشيء من اليأس الساخر الذي لا يبالغ في مسرحيته:

- العجز، القيد، الانكسار، الهامش. أنا تعبان. أنا مرهق. أنا فائض. أنا أنا أنا. من أنا؟ أنا ظل. لا لا، أنا أكثر من ظل، أنا قلق. نعم أنا قلق، قلق مكبل.

أطرق لحظة وهو يتطلع في إبراهيم بحيرة.. قال بفضول:

- القلق. القلق لعنة. كيف لا يقتلك القلق؟

- أي قلق؟

فهتف الظلّ بذهول:

- ألا تشعر به؟ كيف لا تشعر به؟ ما أنا عليه من قلق ليس سوى أثرٍ ممّا أنت فيه. إنك قد ولدت منه.

تحرَّك إبراهيم في مكانه وهو يركل الحصى بلا اكتراث، قال بفتورٍ من يواصل الحديث لمجرد سماع الصوت:

- لقد ولدت من العدم. القلق ليس هو العدم.

- العدم؟ وهل تعلم ما هو العدم؟ هل ثمة أحدٌ يستطيع معرفة العدم متجرداً من محركات وبديهيات فهمه الذاتية؟

تقدَّم الظلّ قليلاً ببُعده الثنائي الذي يمنعه من مواجهة إبراهيم مواجهة كاملة. قال بشيء من العمق:

- لنفترض أنك كإنسان لا تعرف ما هو الماء، ولنفترض أن الإنسان خرج أول الأمر من بحيرة، والبُحيرة تمثل العدم. لأنك لا تعرف الماء فإنك لا تعرف ماذا تعني البحيرة، ماذا تكون، ماهيتها، كيفيتها، تركيبتها، لا تستطيع تحديدها أو حتى إدراك كُنهها. ولكنك تستطيع معرفة كلّ هذا من خلال أثر البلل الذي على الإنسان، تستطيع أن تحلل هذا البلل وتعرف الماء وتعرف ولو بشكل غامض ماذا يعني أن يخرج الإنسان من بُحيرة. البُحيرة هي العدم، البلل هو أثر العدم الذي يبقى مع الإنسان، والذي يتمثل في القلق، الشعور الملحّ اللامحدد بالقلق، الذي يصيبه دون سبب، يضربه فلا يعلم ممَّ وعلى ماذا يقلق. هذا هو أثر العدم، أثر الخواء والفراغ المطبق الذي خرجت منه. وبالتالي العدم يتشكل متوازياً مع الوجود من خلال القلق. لقد خرجت من القلق. إنك أنت القلق.

ظلَّ إبراهيم مُطرِقاً بشرود نائم، وكأنه لم يكُن ينصت لظلّه أصلاً. قال بعد برهة من الصمت وكأنه انتبه فجأة:

- هل انتهيت؟

فتراجع الظلّ وهو يهز رأسه بحركة تنمّ عن إحباط متوقَّع. وقف وكأنه يستعدّ لمقارعة صراعٍ ما، قال بحزم صارم:

- كل ما هنالك أنني متعب. وأريد الرحيل.

تطلَّع إبراهيم في وجهه الأسود المدوّر، ابتسم بشيء من السخرية الباهتة. قال وهو يستدير عائداً:

- ارحلْ إذاً.

مشى بخطوات وئيدة، بينما وقف الظلّ يراقبه بخيبة أملِ مَن يعرف إبراهيم جيداً ولكنه كان يتوقع ردة فعل أكثر حدة من هذه. هتف بصوت مترقب:

- إنك رجل متجرِّد، سأعترف لك بذلك، لا تملك ذرّة مبالاة بأيّ شيء. ولكن التجرُّد لا يصنع الرضى كما تظن. تذكر ذلك جيداً.

فتباطأ إبراهيم ملتفتاً وهو ما زال يسير:

- إنك مخطئ. التجرُّد يصنع كل شيء. التجرد هو الرضى نفسه، هو الانعتاق من كل ما يقتل الآخرين ببطء.

ثم أكمل طريقه حتى اقترب من الشجرة. التفت فرأى ظلّه يصعد تلاً صخرياً ببُعده الثنائي ويختفي وراءه. وقف لحظةً بتكدّر مفاجئ وراء الشجرة بثلاث خطوات. انتبه لسنحاريب الذي يجلس متجمداً كالصخر، لا يتحرك، يبدو كشيخ نذر الجلوس تحت شجرة سحرية ينتظر حقيقة ما، تمرّ سنوات دون أن يحضر شيء، يشيخ الشيخ أكثر وأكثر، تتكدّس فوقه طبقات من الرثاثة المهترئة، ثم يموت جالساً ويتآكل ببطء لتذروه ريح ما إلى الخواء السحيق. أخذ يحدِّق في ابنه، يشعر بضعف غريب لم يعهده من قبل، ثمة شيء

موغِل الحسرة في منظره المتهالك كصنم الشمع الوحيد في بقعة مهجورة، جعله يتيبس في مكانه عاجزاً عن الإشاحة بنظراته عن ابنه.

قال أخيراً بصوتٍ مبحوح انتزعه بالقوة من حلقه:

- سنحاريب.

التفت الفتى ببطء، تطلّع في والده بملامح لا تعبير فيها، مجرّد صخرة أكلت الزمن تقاسيم وجهه. أكمل إبراهيم بحزنٍ متحجّرٍ لم يستطع كتمانه:

- هيا.

يجلسان أمام النار، رفض سنحاريب أكل لحم الخيل، ينكمش في قوقعة ظلامه الكالحة، تلمع حدقتاه ببريقٍ باهت في سمرة وجهه القذر. صراخ الحطب المحترق يهسهس بخمول موسيقي، الظلام يحوْم كالأشباح حول الضوء، النجوم الشاحبة والعواء البعيد والريح الخاملة وخشخشة التراب في فراغ الرتابة، الرتابة التي تجثم على ملامح الوجه كأثر الموت، تنخر في نخاع العظم بجُمود متحجّر. لم يعد هنالك رفاهية لدراماتيكية ردات الفعل، كل شيء يحدث ببرود رتيب آليّ. ولذا قال إبراهيم فجأة بنبرة هادئة:

- إذاً أن تموت في الصحراء خيرٌ من أن تموت في مكان لا تنتمي إليه؟

رفع إبراهيم رأسه بنظرة باردة، يشعر برمش عينه كجدار يكاد يُطبق بثقلٍ منهك. يتذكر حينما غضب من والده الذي كاد أن يقتل الأعرابي، كان مجرّد طفل، لا يفهم شيئاً من الحياة. نعم، الموت في الصحراء خيرٌ من الموت في مكان لا تنتمي إليه. ولكنه لا يستطيع قول ذلك، يتطلع فيه بصمت غريب. كيف يجعله يفهم؟ إنه

الشيء الوحيد الذي يؤلمه، أنه لا يستطيع أن يجعله يفهم، أنّ ابنه سيكون مثله: لم يستطع فهم والده الذي قرَّر الجلوس في بابل، ولذا سينتهي المطاف به إلى أن يكرهه، أن يلعنه، أن يتركه بحثاً عن بابله يوماً ما، مهما حاول منعه، مهما حاول أن يخلق بيتاً له هناك، إنه أمرٌ لا مَحيد عنه. يتطلع في سنحاريب بصمتٍ جنائزي، يتذكَّر بألم شعور الكُره المقيت المُخجِل الذي صار يشعر به تجاه والده، منذ أن بكى أمام جثته الشاحبة وهو يلعنه بعنفٍ جنوني صاخب، يشعر بنفسه كطفل خلّفه أهله في مكان موحش لتتناهشه السِّباع والأوهام والزمن. ولذا ظلّ يتطلع في سنحاريب بنظرة كآبة تتحجر في شرود مستسلم، وكأنه يحدق من خلاله في كلّ تلك الأفكار التي تثير ألماً يكشف ضعفه، لأنه لا يستطيع لكم الألم أيضاً، ولذا يخاف منه ويكرهه. ولذا أشاح نظره بصمت فاتر.

ظلَّ سنحاريب يتطلع بدهشة في والده، لأول مرة يبدو أضعف بكثير ممّا كان يتخيَّل، يفتقر لإجابة جاهزة معلبة لكل شيء، يغرق في فتور نظرة كئيبة تنطق بضعف لم يرَه فيه من قبل. أعجبه ذلك، جعله يشعر به كإنسان مثله، يتشابه معه، يخاف ويخطئ ويتوه ويشك، بل جعله يفكِّر في مواقفه، ربما لا يكون مبرمجاً كما يظن، ربما يستحق قليلاً من محاولة التفهم.

نام وهو يفكر في ذاك. ولكنه لم يحلم بشيء في نومه، نُدف من السواد القاتم ولحظات صحو خاطفة.

قام في منتصف الليل، تطلع ناعساً بوالده الذي ينام بارتياح، كرجلٍ عاش كل عمره في الصحراء. مضى إلى داخل الأحراش ليتبول، رأى ناراً بعيدة وراء الشجر فسار نحوها، منوماً بإحساسٍ

غريب من اللطافة التي تطفو بنعومة خافتة، وكأنه يغرق في ضباب حليبي أسود في خلفية شتاء ثلجي فاتر. وجد جده ضاري يجلس أمامها، متربعاً قد أراح ساعديه على ركبتيه، ككاهن بوذي يستغرق في صلاة أبدية بصبرٍ رثّ يتخطّى الزمن، تلوح على وجهه آثار مُسافرٍ لم يعرف شيئاً غير الطريق منذ الأزل. يبدو أصغر بكثيرٍ ممّا يذكر سنحاريب، ثمة شيب طفيف على صدغيه، ولكن بقية شعره يلمع بسواد متفحّم. قال له وهو يقترب بنبرة اعتيادية بسيطة:

- ماذا تفعل هنا؟

رفع ضاري رأسه ببطء. حدّق في سنحاريب بتأمُّل متحجِّر، يلمع وجهه المغبرّ بالتراب والرماد والوقت في انعكاس النار.

- هل أعرفك؟

هزّ سنحاريب رأسه بخمول غير متفاجئ:

- نعم. أنا حفيدك.

فاكتسَت ملامح ضاري بلفحة غريبة من الكآبة، ابتسم ابتسامة فاترة لا تكاد تُرى، وكأنها تنطق بأسف عميق لا تتحمله اللغة، يخترق كينونة لا ماهية لها. ثم عاد ليحدق في النار. يتطلع فيه سنحاريب على حافة بؤرة الضوء بكثير من الحزن، يبدو جده رجلاً سحقته وحدة أزلية غامضة، منهكٌ بوجودٍ رثٍّ ينهمر في شرود ثقيل. الهواء يحمل الوقت بينهما ببطء رخيم، النار تحترق بهسهسة خاملة وتطيش في الظلمة كألسنة الثعابين. قال له:

- هل قابلت مردوخ؟

فرفع ضاري رأسه من جديد، تلمع حدقتاه في الضوء ببريق خافت. هزّ رأسه بأوتوماتيكية لامبالية:

- لا.

- لم تجده؟

- لم يجدني.

- لم يكن موجوداً؟

- لا أعلم.

تطلع بجمود وكأنه يتوقع إجابة ما من سنحاريب، وحينما لم تأتِ عاد ليحدِّق في النار. ثمة هدأة سكونية خاملة في المكان، يشعر بها سنحاريب تطفو من حوله، طنين غامض لفراغٍ مجوّف لا عُمق فيه، كمكان متجرِّد من الحركة، متجرِّد من الوقت، لا شيء سوى اللاشيء مختلطاً بالنار والريح والظلام. أطرق متطلعاً في جده المتحجر برهة من الزمن، يتمنى أن يفهم لماذا يحدث كل هذا، لماذا تحدث الأشياء، ولماذا يولد الناس، ولماذا يموتون. انتزع نفسه بصعوبة من الهدأة السكونية اللزجة، قال وهو ما زال واقفاً:

- وداعاً.

ولكن ضاري لم يرفع رأسه.

استدار ببطء وعاد إلى مكان المبيت، استلقى محدقاً في والده، لقد تفتَّت ذلك الارتياح الرخيم عن ملامحه، واكتَسَت بشيء من الألم الغريب. أغلق عينيه وهو يفكر أن الجميع يتألم، مهما بلغت قوته وقناعة مبادئه، ولكن للجميع ألمه الخاص، الذي لا يمكن أن يتشارك فيه مع أحد أو يفهمه أحد غيره. ثم نام وهو يشعر بوحدة قاتلة.

صادفا بئراً مهجوراً فيه ماء بقي من مطر قريب، جرّ إبراهيم الدلو الذي امتلأ نصفه، تشمَّمه فلم يكن آسناً. شربا بلذّة صامتة،

عبّأ نصف القربة ورفع رأسه إلى السماء، ثمة سحاب يزحف من بعيد.

- ربما تمطر لاحقاً.

ولكن سنحاريب لم يردّ، رفع رأسه بوجوم، السحاب يبدو بعيداً جداً. سار وراء والده بصمت، يحمل كل منهما جزءاً من الأغراض. لم يتحدثا منذ موت الخيل، يسيران بجانب بعضهما وكأنهما يسيران في خطين زمنيين منفصلين، مجرد غريبين. قال سنحاريب فجأة وهو يركل الحصى:

- هل كان جدّي مزارعاً فعلاً؟

انتبه إبراهيم بشيء من الدهشة. يستطعم حبيبات العرق التي زحفت من جبينه واستقرت فوق شفته، مُلُوحتها اللاذعة تذكِّره بأول نهار سار فيه مع والده، حينما تركا السيارة تحت شجرة طلح كبيرة. أطرق لحظة وهو يفكِّر بشرود، انتبه ببطء ثم قال:

- نعم. كان مزارعاً. قضى أغلب أوقاته في مزرعته، لم نكن نراه إلّا نادراً.

أطرقا لحظة بوجوم، طقطقة الحصى تحت أقدامهما ورنين الريح الجافة في أذنيهما. قال سنحاريب:

- هل تريد أن تكون مزارعاً؟

فكر إبراهيم لحظة فأدرك أنه لم يفكِّر في ذلك من قبل. قال بحيرة:

- لا أعلم. ربما أصير مزارعاً. لم لا؟

التفت نحو ابنه، يسير مطأطئ الرأس. أكمل بهدوء:

- وأنت. ماذا تريد أن تكون؟

فكر سنحاريب بقوة، ماذا يريد أن يكون: فتى في الحادية عشرة من عمره، تائهٌ في الصحراء بحثاً عن مكان غريب، مرَّ على ملك يُدفن مع خدمه، وجثثٍ متآكلة، وسارق يهدِّد بالقتل، ورجل غامض يجادله في الظلمة، وخيل ينفق ألماً. مزارع؟ تاجر؟ خياط؟ قال وهو يمزّ شفتيه بخيبة أمل:

- ما زلت صغيراً. ربما أرى لاحقاً شيئاً أريد أن أكونه.

الشمس تحتجب خلف سحابة شاردة، فيصطبغ الجو بغلالة ظلال باهت. يسيران أقرب بجانب بعضهما، ولكنهما ما زالا كخطّين منفصلين.

* * *

لاحت في الأفق البعيد قلعة مارد في دومة الجندل، تبدو كقطعة خبز يحوم حولها نمل كثيف. ظلا يهرولان بفمٍ متقطع وجبين متغضِّن من الإعياء حتى اقتربا بحذر، واختبآ وراء شجرة أثل عجوز. جيوش ملكة تدمر الزباء بنت عمرو «زنوبيا» تتحصن حول الحصن العتيد الذي بناه دوماء بن إسماعيل، مضت أشهر طويلة دون جدوى، الجيش العظيم لمملكة تدمر الزاحف من سهول سوريا، بقوته التي تحدّت سلطة روما واقتحمت مصر، بقيادة ملكته المحاربة التي تشعر بإطراء تشبيهها بكليوبترا، يقف هنا عاجزاً من أن يكسر شموخ السور العظيم لهذه المدينة الصغيرة.

كان إبراهيم يقف بخمول بين الفينة والأخرى أمام بوابة عشتار في بابل، يتخيل خيار الهرب كحلم يتحول إلى رقعة كابوسية. فيبدو له العالم القديم -كما يبدو له الآن أمام قلعة مارد- كتلة من الأسوار، يتحصن بها الناس خوفاً من الدخلاء، العالم الذي يقدِّس

الاستقلالية الخصوصية التي يعد بها السور، يتمكن من الحفاظ على وعوده برهة من الزمن، ولكنه ينكسر سريعاً.

- لا يمكن أن تعيش وحيداً في هذا العالم.

همس بنبرة ساخرة وراء شجرة الأثل.

- ماذا يفعل كل هؤلاء هنا؟

سأل سنحاريب بفضول.

- يريدون اقتحام القلعة.

يحدِّق في أكوام الجنود القابعين كالموت المحتّم حول السور، سيموت كثير منهم في حروب توسعية ستقودها زنوبيا باسم ابنها الملك القاصر «وهب اللات»، وسيموت آخرون مثلهم حينما يسترد الرومان ما سلبته تدمر من خارطة مصر، ثم سيموت آخرون أيضاً في حصار الإمبراطور الروماني أوريليانوس لعاصمة تدمر. بينما ستهرب زنوبيا من العاصمة ليلاً، وسيتعقبها الجنود الرومان حتى يقبضوا عليها، وستنجو حينما يُعجب الإمبراطور بصراحتها وشجاعتها، ثم ستعيش بقية حياتها مع أبنائها في بيتٍ مخصَّص لها في مدينة تيبور في إيطاليا.

مرت عدة أشهر على الجيش المرابط هنا، ولذا بدا وكأنهم ألفوا المكان، خيولهم وعتادهم وخيامهم وماشيتهم تبدو كمدينة مجاورة لحصن غامض. شعر إبراهيم بعجزه، أن تقف بجَهْل مطبق أمام ما يحدث، لا تعرف المكان أو الأشخاص أو أي شيء يتعلق بتلك الفجوة الزمنية. الجهل بكلّ خطورته المتوثِّبة.

دخل المعسكر ممسكاً بساعد ابنه، لن يتجاوز بؤرة اللاوضوح. كائن البشر قديماً لا يختلف عن أي حيوان آخر: لا يقبل تسلّل

الغريب، مكبّل بحذره الذي يفترض العدو في كلّ حركة. ولذا اكتفى بِخَيْل ربط في عمود خيمة لا حراك حولها، وثلاث قِرب ماء كبيرة رُميت متفرقة برتابةِ مَن لا يشعر بالظمأ. وهرب قبل أن ينتبه له أحد، يطبطب على رقبة الخيل بحنوٍّ مَن سيقرر أكله دون تردُّد في يومٍ ما.

بدا الاتجاه الذي سار فيه خاطئاً، قلعة مارد كمكان بعيدٍ عن صحراء نجد، ولذا قرَّر أن يستدير جنوباً.

الشمس الباردة تفضح الضياع، دون أثر في المدى. كثبان الرمل في نفود عالج شمال النفود الكبير تتألق حمرةً تلمع في الشمس، بساط رملي يرتفع مع قنن التلال الهلالية والنجمية المذهبة بتورُّد باهتٍ، ينخفض بخطوط متعرجة تزحف ببطء مع الريح الضعيفة، تتفرق أشجار الغضا والأثل والرمث والطلح كالرؤوس المدفونة في الرمل، تتناثر الحشائش التي تهف مع ريح الشتاء الباردة.

رائحة الغضى المحترق أمامهما تفوح برقّة منومة. لا يتحدثان، كل شيء أضحى تكراراً مملاً. حتى تفاصيل الذاكرة المشبوهة تنطفئ، تستسلم لبلادة الخمول المنهك فتختفي ببطء.

شمس الغروب القرمزية تترنح في الشفق، تصبغ كثبان الرمل بوهجٍ متورِّد. يحدّق فيها سنحاريب بنظرة معلقة بالتأثر، يشعر ببرودة الرمل تحت قدمه العارية، يراقب الشمس تختفي قطعة قطعة، تتساقط بهدوء وراء هلالٍ رملي مرتفع.

صادفا بئراً مهجوراً، دفن الرمل حوافه الحجرية. رمى إبراهيم حجراً بترقُّب، الثواني التي مرّت بدت كالأبدية، انتهت بصوتِ ارتطام الحجر. زفر كلاهما بخيبة أملٍ باهتة، عادا إلى الخيل دون أن ينبس أحدهما بكلمة.

النفود يباغت من جديد، يفور برمله العاصف. اختبأ تحت صخرة مقوسة كشخص يركع بألم. هل هي العاصفة الثالثة؟ لم يتمكّن إبراهيم من التذكُّر، يطأ بقدمه في متاهات الرمل الأحمر الكثيف، يشربان جرعات ضئيلة جداً من الماء، الخيل في طريقه إلى الموت حتماً.

صاد أرنباً شارداً بضربة واحدة من سهمه. التراب رفيق مقرَّبٌ، لا يخجل من اقتحام الجوف عنوة، يتكالب في اللحم المطبوخ، ويصطبغ في الجلد النحاسي، ويهبُّ في المدى الفسيح، ويقيد موطئ القدم.

بدأ يقتنع أنه ضلَّ الطريق مرة أخرى، أنه يضرب المسافة نحو امتداد خاطئ جديد، أن خيله سيموت، ثم سيموتان قبل أن يصلا إلى معسكر حصارٍ ينقذهما. هل ستتركهما الصدفة يموتان بهذه الطريقة؟ فكر إبراهيم وهو يستلقي بجانب سنحاريب في قفر الرمل، بقيت قربة ونصف من الماء، كل جرعة تُشرب بعناية، يلتصق لسانه بجفاف جدران فمه.

الشتاء ينحسر فجأة، الشمس جحيم فوق الرمل، السموم تنخر الجلد كالمعدن المُذاب. لاح أمامه مدى أخضر، اقترب منه: الجزء الأمامي من النفود بساط من الزرع والعشب، زهور بابونج الأقحوان الأصفر وشقائق النعمان البنفسجي والعوسج والنفل والخزامى والعنصل الأزرق، رائحة المطر تفوح بقوة. التفت إبراهيم حوله، الجزء الخلفي من النفود موغِلٌ في القفر، الرمل الذي يتناثر بحبيباته الثقيلة في الهواء، يقفان على الخط الفاصل بين الزمنين، وكأنهما يقفان بين صورتين مختلفتين لمكانٍ واحد. تذكر حينما وقف مع

والده عند خطّ المطر والقحط، كم سنة مرّت منذ ذلك اليوم؟ يحدق بوجوم متحجر، حتى انتبه ببطء لصوت سنحاريب:

- ما الذي يحدث؟

يتطلع أمامه بذهول مرهق، لم يرَ شيئاً كهذا من قبل. ولكن إبراهيم لم يردّ، سار إلى الأمام بإرهاقٍ يقيد القدرة على المبالاة. التَهَم الخيل عشباً يملأ حصيلة أيامٍ من الجوع، وشربا ماء من نقعة مطر عذبة. زخات مطر طفيفة ملأت القرب، لا مزيد من العطش المتيبِّس لعدة أيام. الأشجار المبلَّلة يستحيل استخدام حطبها، ولذا ناما في الظلمة بجانب شجرةِ سدرٍ وارفة. ينكمش سنحاريب على نفسه خوفاً من السواد، السواد الذي ينخر في ذاكرة خوفه كالدود.

لاحت أمامهما جبال شمّر بعيداً في المدى، تضمّ سلسلتَي جبال أجا وسلمى في امتدادهما، تلمع قننها الجرانيتية المصقولة في انعكاس الضوء كالمعدن. سهل منبسط بشقائق النعمان والزرع، يرتفع بهضابه وصخوره الرسوبية حتى تبرز الجبال القرمزية المتوردة كرؤوس الصنوبر، منارة تتوهج أمام التائه في البُعد. سارا في واحاتها الوارفة بالينابيع العذبة وأشجار النخيل، يرفع سنحاريب رأسه محدقاً في رؤوس الجبال، لا يكاد يرى كثيراً منها، يبدو وكأنها تختلط بالسحاب. الصخور السوداء التي تطنُّ كالحديد حينما تضربها بالمعدن، بعضها معلّقة في حافة الجبل وكأنها سقطت من السماء، توشك على أن تتدحرج نحو المنحدر، ولكنها تبقى عالقة هناك في الحافة.

السهول التي تحفّها متاريس الجبال على حوافها، تنبسط بالزرع والعرفج المخضرّ بماء المطر. يتدفآن بالنار، يفكر إبراهيم في

الطريق، ولكن أيُّ طريق هذا؟ يحدق في المدى الأسود، ربما لا يوجد طريق. داهمه النوم ببطء، أفاق في الفجر على صوت رجلٍ يركع فوقه، فتح عينيه بصعوبة الإعياء المنهك، فبدت صورة الشيخ مألوفة بطريقة ما. قال له بابتسامة عريضة:

- مرحباً أيها الغريب.

جلس بارتباك وقد غطى ابنه النائم بيده، يحدِّق بحذر متوثِّب في الشيخ الذي أخذ يبسط سترته، ماء وتمر، يتحدث عن نسيم الشمال البارد، وكيف أنه لا يتوقف لغريب إلا حينما يلمح طفلاً برفقته، فلا يمكن لرجلٍ أن يغدُر أمام طفله. هزّ ابنه فقام سنحاريب بوجلٍ، يتطلّعان في الرجل الغريب الذي هتف فجأة:

- ما بالكما؟ اقلطوا اقلطوا.

تردَّد إبراهيم لحظة ثم مدّ يده بحذرٍ إلى التمر الناشف، فتبعه سنحاريب. عاد الغريب ليقول:

- معك صالح بن سياف الشمري.

رفع إبراهيم رأسه وهو يلوك التمرة بذهول، يحدِّق في الشيخ الذي عاد ليجلس أمامه، فيقرأ في تجاعيده تفاصيل بن سياف القديم، تختبئ خلف شيخوخة متهدلة. هل نسيه؟ هل يمسح القفز الزمني الآنيّ القفزاتِ الماضية؟ لم يبالِ طويلاً، هدير الأفكار التي تُنقب عن الفهم جدل فارغ، خيارُ من يملك رفاهيتها المكلفة. ولذا قال بشيء من الامتنان الأوتوماتيكي:

- معك إبراهيم، وهذا ابني.

ولكنه توقف متورطاً في عدم رغبته بأن يقول سنحاريب. وهو ما جعل ابنه يتدخل بسرعة:

- سنحاريب.

- سنحاريب؟

ضحك ابن سياف ثم قال:

- إنه اسم ملك من ملوك بابل. هل تعلم ذلك؟

فقال بحماس:

- هل تعرف بابل؟

ولكن والده قاطعه بسرعة:

- شكراً لك على التوقف. نحن في طريقنا إلى المجمعة.

ضحك ابن سياف:

- وأنا في طريقي إلى الزلفي. سنمضي سوياً إذاً. ما رأيك؟

هزّ إبراهيم رأسه. استدرك بن سياف وهو يلاحظ اللباس الغريب الذي يلبسانه:

- إبراهيم ماذا؟

أطرق بابتسامة طفيفة لا تكاد تُرى، تذكّر والده بلذعةٍ حارقة من حنينٍ ناقم، ثم قال وهو يكاد يتنبأ بتعليق ابن سياف:

- إبراهيم بس.

فضحك الشيخ:

- إبراهيم بس؟ طيب، تشرفنا يا إبراهيم بس. وتشرفنا يا سنحاريب بن إبراهيم بن بس. أخبرني، هل أنت سعيد باسمك؟

فردّ سنحاريب ضاحكاً بلذة:

- جداً.

- وأنا كذلك. من الجميل أن تقابل شخصاً باسمٍ مختلف

تماماً. تشعر وكأنك أمام شخص سقط من تاريخٍ ما، لا ينتمي إلى هذا المكان.

ضحكا سوياً بلذة صبيانية، قبل أن ينخرط ابن سياف في الحديث حول التمر، والخيل، والشتاء الراحل قريباً، بطريقة تشبه هذيان فتوَّته. يحدِّق إبراهيم فيه بريبة متردِّدة، لا يبدو ابن سياف مختلفاً عدا الوجه المتهدِّل والنظرة المنطفئة، يتذكَّر سواليفهما المسترسلة في لذة الصحبة القديمة. ولذا قال بشيء من الحذر:

- يبدو أنك قادم من الزبير.

ضحك الشيخ:

- هل أنت عراف. كيف علمت بذلك؟

- توقعت.

زفر ابن سياف بشيء من الملل، ثم قال:

- نعم أنا قادم من هناك، ولكن مررتُ شمالاً بالجوف لأسلِّم عُهدةً لرجل. وسأذهب الآن إلى سدير.

أطرق إبراهيم لحظة، ثم قال كيفما اتفق:

- هل ستعود إلى الزبير؟

ولكن ابن سياف لم يردّ، هزّ كتفه وهو يلوك تمرته برتابةِ مَن يفكِّر في عمقٍ بعيد، تترنح في ملامحه خيبة تكاد تختفي في تهدُّل الشيخوخة.

خاواه في الطريق إلى سدير، ممتناً بأن حصل أخيراً على رجلٍ يعرف الطريق. ولكن سنحاريب بدا أكثر امتناناً من والده، الشيخ الغريب الذي يملأ خواء الفراغ المتقشِّف، بل إنه ركب وراءه فوق خيله، أخذ يسأله عن الزبير، وعمّا يعرفه عن بابل، وعن أحاديث

الأمم القديمة، فيصحِّح ابن سياف لغته الركيكة دون أن يسأل عن سببها. أشعارُ مَن لم يُسمع بهم من قبل، قصص مَن ماتوا وشبعوا موتاً، أخبار أممٍ ذابت مع الريح وأخرى لم تكن في يوم ما، وخيالات رجل يحمل وحدته على كاهله.

اكتفى إبراهيم بالسير أمامهما دون أن يبتعد، لئلا يختفي ابن سياف كما حدث من قبل. يتسرب رجيع صوتهما كهمسٍ يتسلَّل من مكان بعيد، من فجوة ماورائية، «الباريدوليا»، الخيال الذي يخدع الواقع، ليس في أشكال الغيوم فقط، ولكن في الأصوات أيضاً. ولذا يكاد يسمع صوته القديم في سواليفه مع ابن سياف، يدخل بينهما، ثم يتلاشى سريعاً، ثم يعود، ثم يتلاشى. فيتذكَّر بقلّة وضوح لامبالية، لذعةُ حنين رثٌّ خرج من سراديب مغلقة، يستفزّه بحضوره المفاجئ، ماذا يريد؟ يفكِّر أن الذكريات للحالمين، الذكريات لأشخاص يتعلقون بما اندرس في موت أبدي، يغرق في أفكاره فيسمع صوته يرتفع من جديد، ثم يتلاشى، ثم يرتفع، فيلعن الذاكرة والماضي.

كلما اقترب بن سياف من حياته في الزبير، نفر كالمصعوق إلى موضوع آخر. حتى انتهت المواضيع، شعر بهروبه كتحرُّك مكشوف أمام إبراهيم المُطرِق في صمته، وكأنه يقول له بشيء من الوقاحة «إنني أعرف كل شيء»، رغم أن إبراهيم يكاد يكون غير منتبهٍ لما يقوله. فتطلع بن سياف أخيراً في النار التي ترمي الليل بشرارات كقطع الضوء، تلمع أعينهم كحبات الجمر المحترقة، وقال بما يُشبه الخجل:

- لا شيء أقسى من خيبة الأمل يا صاحبي. أليس كذلك؟

يتكئ إبراهيم بخمول منجرف وقد ابتلع جزءاً من حمامة صادَها مع ابن سياف. يحدّق في النار التي يُعدّ اكتشافها من أهم نقاط

التحوُّل في تاريخ البشر، كما كان يخبره بذلك والده، الطعام الناضج الذي سمح لـ «الإنسان المنتصب» بأن يكتسب مزيداً من السعرات الحرارية، ممّا رفع القدرة العقلية لديه، الرحلة الطويلة منذ اختراع شيء بديهي كالنار، وصولاً إلى الآن، أياً كان هذا الآن الذي هو فيه، وإلى متى سيستمر. بدا له بن سياف كما بدا لنفسه في مدينة أور: مجرّد بصقة في بحر، بل إن ابنه الذي تصبغ حمرة النار بشرته البيضاء برقّة حالمة بدا مثلهما، طفولته البريئة لا تمنحه خلاصاً من عدميته الفارغة، جميعنا بصقة في بحر. قال بزفرة لامبالية:

- ستعتاد على الخيبة.

أول جملة نطق بها منذ الصباح. عاد ليحدق في ألسنة النار، تتردّد في الخلفية الضبابية هسهستها المتقاطعة مع صوت ابنه وصوت بن سياف، وصوته القديم.

ساروا نهاراً آخرَ على الشاكلة ذاتها، وناموا تحت شجرة شبيهة بنظيرتها في الليلة الماضية. التجربة كتكرار لانهائي، حلقة مفرغة من الأوجه والاتجاهات والصور.

أفاق في الصباح فوجد ابن سياف ميتاً. هزّه عدّة مرات، بدا غارقاً في نومة عميقة، متلفعاً بشماغه ملتحفاً ببشته. حمحمة خيله الذي توجّس الكارثة بجانبه، رائحة الفجر المخادعة بأريحيتها النافذة، طقطقة الحطب المنطفئ. الرماد للرماد، والتراب للتراب. قام سنحاريب من نومه ليجد الشيخ جثة هامدة، وقف متصلباً بجانب والده كما وقف أمام الخيل النافق، الموت كمصير يقفز في كل زاوية لعينة.

- يا للرجل المسكين.

قال سنحاريب بحرقة بريئة، خيط من الماء يترنح فوق خده.
أطرق إبراهيم لحظة، يحدقان في الجثة تحت الشجرة. قال وهو يركع نحوها:

- لو كان كل من يموت مسكيناً لصار جميع البشر مساكين. ليس في الموت ما يثير الرثاء، إنه مجرد شيء يحدث.

خلع ثوب ابن سياف ولبسه، لن يدخل المجمعة إنْ وجدها بلباس بابلي يدعو إلى الضحك. حاولا أن يحفرا قبراً عميقاً له، ولكن التربة المتصلبة تجرح أيديهم، ولذا بدا القبر مجرّد حفرة مسطحة ستذروها الرياح سريعاً. لم يقم بشيء جنائزي، اكتفى بأن يضعه في الحفرة بنظرة رثاء صادقة، يفكر ماذا لو أن ابن سياف لم يصادفهما، لمات وحيداً في قفر الخلاء الموحش، دون أن يحظى بصحبةٍ يستطيع أن يفرغ فيها لذة الكلام المحتبس في وحدته، وتطهير الاعتراف بأن «لا شيء أقسى من خيبة الأمل».

أخذ قربة الماء وصُرّة التمر. انتبه لخيل ابن سياف الذي بدا وكأنه شعر بورطته، فقال سنحاريب:

- هل آخذه لأركب عليه؟

- لا. سيكلفنا. لا نحتاجه.

ثم قال للخيل وهو يفكّ قيده من الشجرة:

- هل تعلم أنهم يدفنون نساء الملك معه في مدينة قديمة في العراق؟ على الأقل لديك فرصة للنجاة.

ثم ركب خيله ومضى. يحدِّق سنحاريب بحزنٍ في القبر المسطَّح، يودعه بنظرة منطفئة. التراب والدود والعدم.

* * *

النهار الطويل يمرّ ببطء، سهولٌ حصوية بأشجار سدر وشجيرات أثل.

لاحظ إبراهيمُ وهو يتبول خلف الشجرة قماشاً عالقاً يهفّ مع الريح، كورقة لا يربطها بالغصن سوى خيط شعرة دقيق، يلمع بياض التطريز الداكن في انعكاس الظل، يتموّج كسطح قهوة حليبية ينفخ فيها رجل لا وقت لديه لمسايرة الحرارة، يبدو وكأنه متناقض في الخوف من الانعتاق نحو ريح غامضة والرغبة في الطيران بعيداً عن قيد الجذوع المتشابكة. أخذ يحدِّق فيه بنظرة شاردة منومة، ثمة شيء في تخايله يثير رقّة فاترة لذيذة. صعد الشجرة ليلتقطه، ولكنه سقط مُحدِثاً جرحاً صغيراً فوق حاجبه الأيمن وكاسراً الجذع الذي كان يُمسك القماش، ولذا راقبه بنقاط دمٍ فوق عينه وهو يحلِّق في الهواء، يطير بخفَّة متموِّجة، حتى اختفى. عاد بكآبة غامضة إلى الخيل، ركب وراء والده الذي سأله:

- ما الذي حدث؟

فقال بشرود وهو يتطلع في السماء:

- لم يحدث شيء. لقد سقطت.

- السقوط حدث.

- تكرار.

يسيران في بيداء مسطَّحة كصحن بورسلان خشبي، صفرة العصر تكسو الأفق بشعاع نقي بلّوري. لمحا رجلاً من مسافة بعيدة، يقف متصلباً دون حركة وهو يوجِّه بندقية أمامه، وكأنه يستعد لصيد حيوان يركن بين أحراش ما. اقترب إبراهيم منه وهو يلتفت إلى يساره حيث تتجه البندقية فلا يرى حيواناً أو أحراشاً أو أي شيء آخر، مجرّد فراغ

أجرد مسطح. ولكن الرجل لا يتحرك، بيدٍ مثبتة على الزناد، يلبس ثوباً رفعه وربطه على خاصرته فانكشف بنطاله القطني الأبيض. ظلا يقتربان منه دون أن يتحرك، قفز إبراهيم فجأة في جلسته وقال هامساً:

- إنه هو.

- من؟

- الرجل الذي أخبرتك به.

ولكن إبراهيم لم يُعِرْ ابنه كثيراً من الاهتمام، بدا منشغلاً في مراقبة الرجل الغامض. بدا وكأنه أحسَّ بقربهم فرفع يده يطالبهم بالتوقف دون أن يلتفت، فلجم إبراهيم الخيل بحذرٍ كبير. راقباه وهو يجلس على ركبة واحدة ببطء مقنَّن، ويضيّق قبضته على الزناد، ثم يطلق الرصاص نحو المدى الفارغ. التفت إبراهيم، لا يوجد شيء في المكان. قال بعد تردُّد وقد أنزل الرجل بندقيته وكأنه يتأمّل ما صاده:

- لا يوجد شيء هناك.

رفع قبعته السوداء بجانبه ولبسها، قام من مكانه وقد أراح البندقية على كتفه بارتخاء جذاب، كرجلٍ لم يعرف شيئاً من القلق يوماً ما. تطلّع نحو الراكبين فوق ظهر الخيل بابتسامة بيضاء واسعة:

- أن لا ترى الشيء، فهذا لا يعني أنه ليس موجوداً.

هزّ سنحاريب والده من جديد:

- إنه الرجل.

فالتفت إبراهيم نحو ابنه بغضبٍ، وكأنه يقول له متى ستكفّ عن هذا الهراء. أمال الرجل رأسه بابتسامته الغريبة وكأنه يحاول اقتناص نظرة نحو سنحاريب الذي يجلس وراء والده.

- الفتى الصغير يبدو خائفاً.

فقال إبراهيم بحدّة باردة:

- الفتى الصغير لا يخاف شيئاً.

- أها. الخوف شعورٌ محرّم يفتح احتمالية ضعف خطيرة. ولكن عدم الخوف أيضاً يفتح احتمالية عدم تقييم ما تقف أمامه بمعزل عن كبريائك وخيلائك الذي يستحقر كلّ شيء عدا قوّته الخاصة. وهو ما قد يؤدي إلى عدم تقدير القوة المقابلة لك بشكلٍ صحيح يمنعك من تحدّي ما يفوق قدراتك.

صمتٌ متوتر يطفح بينهما ببطء، يتطلع إبراهيم بحذرِ مَن يشك أنه أمام مجنون ما. أشار الرجل بيده إلى الأمام:

- إذا أتيت بالغزال فهو لك. لا أحتاجه. إنني أحب الصيد، هل يوجد ما هو أقوى من أن تَسلب من كائنٍ ما أكثر شيء يظنّ أنه مهم: حياته. وكأنك تخبره: خطأ، حياتك ليست مهمة، وإلا لما قضيتُ عليها بهذه البساطة.

أشار برأسه إلى الغرب:

- إذاً، هل تريد الغزال رحمه الله؟

التفت إبراهيم نحو المدى الفارغ ثم عاد يتطلع في الرجل بِحَيْرة عصبية، شعر وكأنه يستخفّ به. قال بحدّة صارمة:

- لقد قلتُ لك. لا يوجد شيء.

حدَّق الرجل في الفراغ البعيد ثم قال بكثير من اللامبالاة:

- ربما أنت صادق. ربما لا يوجد شيء.

جلس على الصخرة وراءه وأخرج من وراءها قماشاً مربوطاً، فكّه وبسطه ووزَّع ما فيه وجلس فوقه. رفع رأسه للراكبين:

- ربما تريدان النزول؟

تردَّد إبراهيم لحظة، نزل عن الخيل فلكَزَه سنحاريب من جديد وقال بشيء من الغضب:

- إنني أخبرك. إنه ذلك الرجل.

تطلع في ابنه بجدية أكبر ثم تطلّع في الرجل بحذرٍ. اتجه نحوه وهو يقول:

- ابني يقول أنه قابلك هنا في مكانٍ ما.

رفع الرجل رأسه بابتسامته التي تكشف بياض أسنانه الناصعة، مصطفّة بعناية كالرخام. قال وهو يتطلع نحو سنحاريب الذي نزل عن الخيل وتبع والده:

- الصحراء مكانٌ واسع، ولكن عين المصير ترى كل شيء.

- ماذا يعني هذا؟

فضحك بغرابة وهو يرفع قبعته إلى منابت شعره ليسمح للهواء أن يضرب في جبينه المتعرّق. قال كيفما اتفق وهو يوزع الأغراض:

- لا يعني شيئاً. إنني رجل أستمتع بسماع صوتي.

جلس سنحاريب بجانب والده، يتطلّع بحذرٍ في الرجل الذي يلوح في نظراته خبث ليس غريباً عليه، يشعر وكأنه يعرفه أكثر من مجرّد لقاء واحد في ليلة سوداء موحشة. بسط تمراً ووعاء فيه أرز ناقع في سمن أصفر وأخرج قربة ماء صغيرة. تلفت إبراهيم حوله باستنكار، قال بعد تردُّد:

- أين خيلك؟

- لا أحتاج خيلاً.

- كيف ترتحل إذاً؟

تطلع في إبراهيم بقوة، حرّك لسانه تحت شفته العليا وكأنه يلتقط بقية طعام ملتصق بلثته، قال بعمق ثقيل:

- لقد ظننتكَ رجلاً لا تهمّه الأسئلة.

تطلع فيه إبراهيم بحيرة تتزايد بشكل يزعجه.

- وهل تعرفني؟

قال سنحاريب بشيء من المَقت:

- إنه هكذا، يحبّ الألعاب.

ضحك الرجل وهو يتطلّع نحوه بنظرة غريبة:

- تقول هذا لرجل أنقذك من الموت؟

ثم استدرك سريعاً بنبرة استطرادية قبل أن يردّ أحدهما:

- لماذا يُقال أنقذك فلانٌ من الموت؟ لماذا يتمّ افتراض أن الموت شيء يُعتبر الهروبُ منه نجاة وإنقاذاً؟ أعني هل شاهدت الموت من قبل؟ لا، وأنت لا أيضاً، وأنا كذلك. إذاً كيف يحكم الشخص منّا بمثل هذا الحكم الاستباقي الفوقي؟ ولذا أرى أن كلمة «إنقاذ» وصفٌ مبالغٌ فيه، وها أنا أسحبه. لنَقل إنني أعطيتك خَيارَ أن تستمر، هكذا أكثر دقة. لأنني أؤمن بقيمة الاختيار، إنه الشيء الوحيد الذي يفرِّقنا عن ذلك الغزال الميت.

صفرة الشمس تتوهّج بحُمرة غروبٍ وشيك، فتطفو على المكان رقّة غامضة، يجلسون جيمعاً وكأنهم ينتظرون حدوث شيء ما في هدأة هذا السكون الرثّ. يتطلع إبراهيم في الرجل بحذرٍ حادّ، لم يمد يده إلى الطعامْ أو الماء، يشعر بشيء يثير فيه استفزازاً غريباً، بينما يبدو سنحاريب أكثر ثباتاً وإنْ كان يلوح على نظراته مقتٌ ما،

وكأنه يشعر بمعرفةِ مسبقة بالرجل تهيئه لئلا يطلق عليه حكماً مسبقاً.
ولذا قال بشيء من الحدّة:

- إنه يعرف جدّي ضاري أيضاً.

تطلّع إبراهيم في الرجل مترقِّباً فقال بنبرة حنين ساخرة:

- آه ضاري. لقد كان مشروعاً واعداً، ولكنني وصلتُ إليه متأخراً.

أطرق وهو يقضم تمرَتان تطقطق في فمه وسط الصمت الناعم، ينهمر الشعاع الأصفر على وجهه تحت قبعته السوداء المدورة فيكشف صرامته الساخرة.

- إذاً لا تعليق. هاه؟

قال إبراهيم وقد بدأ يفقد صبره:

- كيف تعرف ضاري؟

- كما أعرفك، وأعرف ابنك. وكما يعرفني ابنك، وكما عرفني ضاري. جميعنا عرف الآخر من مكان ما، من زمن ما، من حالة ما. كل شيء ظرفيّ في هذه الحياة، كل شيء مقيَّد بسببية ما، بتراتبية ما، كل شيء يُصاغ وفق قوانين ما. ألا تجدان ذلك أمراً لعيناً مرهقاً؟

أطرق لحظة وسط صمت الآخرين الذاهل ثم أكمل:

- حتى الصدفة، الخروج المقدَّس عن النَّسق، لا وجود لها، حينما يحدث شيء مفاجئ نتيجة تشابك عدّة خيوط فلا يعني ذلك أنه صدفة، كل الخيوط تتخذ قراراً بالوجود في ذلك المكان في وقت ذلك الحدث، ولهذا هو يحدث لأنّ كل شيء وُجد في تلك النقطة

المركزية. عدم العلم بالشيء لا يعني أنه عشوائي، كما يفترض عقل إنساني لا يستطيع فهم كثير ممّا يحدث خارجه، لا يفهم بشكلٍ عنكبوتي كوني أنّ كل فعل يقود إلى آخر بدقّة رياضية مزعجة. كما لا يستطيع أن يفهم أنّ عدم علمه بمَن مات عوضاً عنه لا يعني أنه ليس متورطاً في موته بالنجاة من الموت.

ثم بسط ساعداه بمرفَقيه المتكئين على فخذيه وكأنه يُريهما العالم حولهم بخمول لامبالي:

- العالم قطعة من الهندسة المركبة بإتقان يثير الإنهاك. إنه يجعلك تفكِّر بأنّ الأمر لا يستحق، أليس كذلك؟

يحدِّق إبراهيم في الرجل بنظرة محتقنة متحجِّرة، وكأنه يحاول قراءته ولكنه لا يستطيع، كل هذا أكثر بكثير ممّا يستطيع استيعابه، يبدو له بابتسامته التي تنضح خبثاً غريباً لا تبرير له كرجل لا يُؤمَن جانبه، كرجلٍ يعرف شيئاً غامضاً ويساومك عليه. ولذا قام من مكانه وهو يقول مشيراً بسبابته:

- أنا لا أعلم من تكون. ولكن إنْ رأيتك مرة أخرى.

ثم صمت ليترك غموضاً كافياً في التهديد، وقد قلّده سنحاريب ووثب واقفاً بجانبه. يتطلَّع الرجل نحوهما بعينيه الساخرتين دون أن يرفع رأسه، يُقسم التمرة بين يديه إلى قسمين ويرمي النواة بأوتوماتيكية بطيئة. قال وهو يشير برأسه إلى الاتجاه حيث أطلق الرصاصة:

- اذهب هناك. وستراه.

بدا إبراهيم وكأنه يستعد لإعادة ما قال بمزيد من الغضب، فهمَس الرجل بلطفٍ منهكٍ كرجلٍ لا يريد مزيداً من الجدال:

- جرِّب فقط، سايرني. ماذا ستخسر. ستجده. اعتبرها هدية.

ركبا الخيل وهما يتطلعان بحذر فيه، يجلس بوجوم رخيم في العراء، وكأنه ولد من الأرض التي يجلس عليها وستبتلعه قريباً. لكزَ إبراهيم الخيل ومضى أمامه، تردَّد لحظة ثم مالَ إلى الغرب، ركض حتى وجد جثة الغزال بعد مسافة لا تقلّ عن كيلومتر. نزل بذهولٍ وهو يلتفت حوله، رأى الرجل من مسافة بعيدة كحبّة الكرز، يرفع يده وكأنه يقول له «لقد قلت لك». التفت إلى سنحاريب وكأنه يبحث عن تفسير ما، ولكنه قال برتابة غير متفاجئة:

- لقد قلت لك، إنه يحبّ الألاعيب.

* * *

جلسا بين تلين مقفرين. هسيسٌ طفيف يتسرّب من بعيد. يسأل إبراهيم ابنه باستمرار:

- هل تسمع شيئاً؟

يرفع سنحاريب رأسه منصتاً بانتباه:

- لا.

فيلتفت إلى المدى المظلم بنظرة شكٍّ متوجّسة. الهسيس يبدو كصوت ينقع في بُعد خفيّ ويتسرب إليه من نافذة صغيرة، بكل وحشته الشبحية. يُذكِّره بليالي الأرق في بابل، حينما كان يسمع أصواتاً غريبة في ظلمة ما قريبة منه، الأصوات التي مرّت به، الأصوات التي يتخيلها، الأصوات التي لا يتذكرها، الأصوات التي لا يفهمها، جميعها تضرب في جدران يقظته المتوثِّبة، زاحفة من ذلك البُعد الخفي الموحش. هسهسةُ نارٍ في ظلمة غرفته، عواء ذئب

جريح، نحيب طفل كصرير المعدن، حفيف جسد يزحف على السجاد. ولكنه لم يكُن يرتعب، كان يجلس برتابةٍ أمام بقعة الظلام الغامضة، ويحدِّق في مصدر الصوت بتحدٍّ صارم حتى يختفي. لم يسمعها منذ زمن بعيد، فلماذا يسمعها الآن؟ ظلَّ يفكِّر وهو يحدق في المدى بقلق حاقد. لقد تمكَّن الرجل الغامض منه، ولو قليلاً، لقد أثار فيه شعوراً بالاضطراب، شعوراً بالعجز. إنه ليس معتاداً على تقبّل الغموض، إنه رجل يتجاوز ما لا يفهمه بوضوح صارم، فما هو ذلك الرجل وماذا يريد بالضبط؟ يلعنه وهو يحاول طرده من رأسه، يلعنه وهو يسمع الهسيس بقلق يزداد احتداماً.

ولكن هذا الهسيس ليس «باريدولياً». جيوش مبارك الصباح حاكم الكويت، وجيوش عبد العزيز الرشيد الملقّب بالجنازة حاكم حائل، يتموضعان قريباً منهما عند الصريف بجانب بلدة الطرفية، الليلة التي تسبق معركة الصريف الكبرى. قدِم مبارك الصباح من الكويت برفقة كثير من قبائل نجد، من بينهم عبد الرحمن بن فيصل آل سعود وريث الدولتين السعوديتين، في جيشٍ قوامه عدة آلاف، بينما زحف عبد العزيز الجنازة من حائل بجيش صغير يتكون من أهلها وبعض قبيلة شمر. الحرب يبدو وكأنها انتهت قبل أن تبدأ، حتى أن مبارك الصباح أرسل ثلاث سريات للاستيلاء على عنيزة وبريدة والرياض لاختصار الوقت، المعركة مجرّد تحصيل حاصل.

الصباح يمتشق بألقه الشاعري. يتأرجحان بخمول فوق ظهر الخيل، تلال حصوية بعشب طفيف. الهسيس يرتفع. قال إبراهيم بتوتر:

- هل تسمعه الآن؟

أصاخ سنحاريب السمع ثم قال:

- نعم.

في امتداد المدى الذي تزاحمه عدة أشجار سدر خاوية، رجل يركض فوق خيله، نقطة بعيدة هناك، يواصل الاقتراب منهما فيتّضح لهما أنه غير قادر على الثبات. سقط على الأرض، لم ينتظره الخيل، ظلَّ يركض هارباً حتى تجاوزهما.

تردَّد إبراهيم لحظة. نزل ببطء، تقدَّم بخطوات حذرة، يقترب من الجسد المجندل، يبصق الدم من فمه، يحاول الحركة دون جدوى، آثار جروح متفرقة، دماء وعرق وتراب. لم ينتبه لإبراهيم، بدا منشغلاً باحتضاره.

لقد انتصر عبد العزيز الجنازة. القلّة قد تغلب الكثرة، عاث فيهم قتلاً حتى انسحب الكثيرون، بما فيهم مبارك الصباح وعبد الرحمن آل سعود، متَّجهين شمال الشرق نحو الكويت. ولكن ذلك ليس كافياً، ظلت ثلة من جيش عبد العزيز الجنازة تلاحق فلول الهاربين، تأسر مَن تستطيع وتقتل من لا تستطيع أسره. الهرب من الموت رهان خاسر، سيلاحقك، سيلتصق بظهرك، سيطعنك، ثم سيقتلك. لقد لفظ الرجل نفسه الأخير، تكشيرة ألم تفرد خطّ فمه، شاربه الكثّ ملطخ بالدم، نظرة الرعب عالقةٌ في حدقته المنطفئة، شقوق الجرح في ثوبه تنضح بدمٍ متخثر. رفع إبراهيم رأسه بذهول شارد، ثمة خيول كالنقط الصغيرة في المدى، تركض وراءها نقط أصغر. عثورة الغبار ذكّرته فجأة بعثورة شبوة في حضرموت، وعثورة جلفار، الهرب من الموت، الوعاء الفخاري الذي كاد والده أن يعود من أجله، آثار قيء الدم في فم ضاري أثناء احتضاره، الجثة

المتفحمة متدلية من الشجرة، الهسيس الذي يُذكّره بأيامِ ضعفٍ خلت، الرجل الغامض بابتسامته الخبيثة البيضاء، الصور التي تكوّمت فجأة في رأسه. يقف متصلّباً بغرابة منوّمة، محدِّقاً في النقاط البعيدة التي تقترب. انتبه بصعوبةٍ لسنحاريب يصرخ بقوة:

- ثمة أناس قادمون. لنهرب.

التفت بدهشة ذاهلة، وكأنه يستوعب الموقف ببطء. ركض إلى خيله بسرعة، قفز بحركة واحدة وضربه نحو يساره. حتى اختفت عثورة الغبار، وعاد المكان إلى صمته الموحش. وقف ينصت بحذر: لا أثر للهسيس. يُحدق في المدى بشعور غامض من الحزن، لم يشعر بمثله من قبل، يشبه فقدان شيء ثمين لا يعرف ما هو. الحزن المكرَّر يولّد مناعة الخمول، لقد تجاوز الحزن إلى تلك المناعة منذ سنوات طويلة، فلماذا يشعر بالحزن الآن؟ أخذ يفكِّر بكآبة حاقدة، يتذكر الوعاء الفخاري فوق الطاولة الخشبية في جلفار، فيصطبغ وجهه بمسحة سواد قاتم بشيء من الحقد.

- لماذا توقفنا؟

لم يسأل سنحاريب عمّا حدث، لقد اعتاد على ما حدث. انتبه إبراهيم ببطء يغلي في مقتٍ غامض على شعور الضعف الذي يداهمه، لكزَ خيله ومضى دون أن ينبس بكلمة.

وصلا إلى سورٍ طيني يُحيط بمدينة ما، الظهيرة تفرد جوانح اللظى، الكلّ يحتمي في ظلِّ بيته، الأسواق الهامدة والأزقة الضيقة الراكدة. لاحظ إبراهيم الثياب والشمغ فشعر بشيء من الأمان، سأل رجلاً مرّ بجانبه عند باب السور:

- أين نحن؟

أطرق الرجل لحظة باستغراب ثم قال:

- في المجمعة.

رفع رأسه ليحدِّق في المدينة بذهول. قال سنحاريب بدهشة ناقمة:

- هل تمزح معي؟ هذه هي المجمعة؟

سار عدة خطوات داخل مدخل المدينة، نزل عن خيله والتفت بشرود نحو ابنه:

- لا تنزل.

سار بانتباهة حميمية متناقضة بغموض، ما زال مقيداً بوقع المفاجأة. هذه البيوت الطينية تذكِّره بزمن قريب لزمنه القديم، بآثار الماضي التي اعتاد المرور بجانبها وسماع قصصها وسباحينها، أثرٌ طيني مندرس لا ينتمي إليه، يحاولون ترميمه والحفاظ عليه ليتذكّروا كيف كانت بيوتهم قبل الذهب الأسود. قطرات العرق تلمع في جبينه، يشعر كرجلٍ كبير في السن، يلبس ثوب ابن سياف الناقع في نتانة السفر الطويل، تتشبَّث في خطوط قماشه آثار رجل يستقرّ في قبرٍ سطحي في مكان ما. رحلة البحث فوق ظهر الخيل، فوق مداد الصحراء المطلقة، فوق مدرج الزمن الهلامي، إلى متى؟ يتطلع بالبيوت الطينية بهدوء أريحيّ لا يكاد يستوعب الموقف الذي هو فيه، يكاد يفهم لأول مرة والده: لماذا كاد أن يعود إلى وعاء الفخار، لماذا أصرّ على الاستقرار في بابل، الحياة كرحلةِ تيه وبحثٍ مخيبة، يجب أن تعتاد على الخيبة كما قال لابن سياف. ولكن لكلّ خيبةٍ درجة معينة، فكّر بذلك وهو يسير بقلة وعي شاردة، إنه أكثر

حظاً من والده، يستقرّ في زمن قريب من زمنه. ولذا لم يشعر إلّا بخيبة أمل قليلة، هي المقدار الطبيعي، يخالطها شيء من الامتنان القنوع. «أنا في المجمعة أخيراً، المجمعة» يهمس بصوتٍ غائر لا يكاد يصدق.

وقف في السوق الفارغ، ثمة رجال يجلسون في بسطاتهم، الظهيرة الحارقة لا تزعج هامة رأسه، يحدّق بشرودٍ عميق، آثار الفقر والقحط والتخلف تظهر جلية بوضوح. فكر أنه أكبر عمراً من والد جده الآن، سيهاجر لاحقاً إلى المجمعة من بريدة، قبل أن يولد والد ضاري بعشر سنوات، ربما يلحق به إن طال به العمر. ابتسم بشرودٍ مستنكر، يتخيل منظر ضاري الطفل يُسلم عليه، بل ربما يوصي حفيداً له بأن يترصد لضاري حينما يكبر، يحذّره من السفر إلى مكّة. أم أنّه يجب أن يترك مسار القدر دون أن يتدخل؟ يقف متصلباً في السوق، بابتسامة ذاهلة تختلط بخيالاته الغرائبية.

يسمع دون وعي رجلاً يحادث آخر يقف أمام بسطته، يتردَّد صوته بخفوت في الخلفية الفارغة. التقط فجأة كلمة خرجت من السياق، وكأنها قفزت من بؤرة الخفوت:

- ما هو على كيفك.

لم يكن ينطق الكاف كافاً، وإنما بشكلٍ مشوّه يمزج التاء الساكنة بالسين «تسيفك». التفت إبراهيم بنظرة معلقة، منذ سنوات طويلة جداً، منذ خمسة عشر سنة في بابل ولغتها الثقيلة التي رفض إتقانها، لم يسمع هذا النطق المشوّه، هذا الحرف المُحرَّف الذي يميزه ثقافياً وجغرافياً، يسحب من ذاكرته كل شيء يوشك على التلاشي، على الموت، كل ذكرى تكاد أن تتحول إلى وهم لا سبيل

لإثبات وجوده. اللغة كأكثر شيء يربط الإنسان بمحيطه، بذاكرته المتداعية. يحدّق في الرجل المسن من بعيد، الشمس تُغلق عينيه نصف إغلاقة بنظرة تلمع بألقٍ يكاد ينطفئ. يتّجه إليه في البسطة متلفِّتاً، يبتسم ابتسامة بلهاء تصبغها شمس الظهيرة الحارقة.

نسي سنحاريب الذي ينتظره مستقراً فوق ظهر الخيل، يتطلع حوله بشعور متورط من التقزُّز.

الفصل الثالث

البحث - الوضوح

- ستحب بابل كثيراً. ستحبها لدرجة أنك لن تريد الخروج منها ولو للحظة.

قال سنحاريب وهو يتأرجح فوق خيله، يستقر ابنه منصور ذو السنوات التسع خلفه.

خرج بعد ثلاث عشرة سنة من المجمعة، تختفي الآن وراء ظهره برتابة، دون أن يقف ليلتفت نحوها. المدينة الكئيبة المقفرة، كسجن مسوّر بلا سقف. نجا فيها مع والده من سنة الجوع الكبيرة، حيث عملا في كلّ شيء مكتفيان بما يسدّ الرمق، بخبرةٍ طويلة في مقاومة الجوع والإنهاك. يكدّ إبراهيم في كلّ ناحية بإصرارٍ لم يستطِع سنحاريب أن يفهمه، يسأله: «لماذا لا تظلّ تخرج من المجمعة وتعود إليها، حتى تجد زمنك، بعيداً عن كلّ هذا القحط؟» فيُجيب إبراهيم برفض حاسم يضجّ بخوف الفقد، أن يخرج من ضواحي المدينة فتختفي إلى الأبد. يعمل كبنّاء وحمّال ونجّار وبيطار، يصنع لنفسه اسماً في مجالس المدينة وبين وجهائها، كرجلٍ غريب. تزوّج امرأة لم ينجب أبناء منها، واشترى مزرعة في ضاحية ملاصقة للسور، طفحت بالمحاصيل في سنة الفقع المليئة بالمطر. دفنا جزءاً

من سكان المدينة في وباء انفلونزا الخنازير في سنة الرحمة، الجثث التي تفوح برائحة الموت، تسقط فجأة في منتصف الطريق، تموت جماعةً في بيت لا يبقى فيه أحدٌ لتعزّيه. رفض إبراهيم النزوح مع مَن نزح، حتى كاد أن يموت، يجلس سنحاريب بجانب جسده المستلقي في حُمّاه، تنبض في أعماقه رغبة غامضة بالنقمة، تتمنى بحذرٍ متواري أن يموت والده.

- هل تعلم أمي أنني ذاهب معك؟

ارتعش جفن سنحاريب الغارق في شروده، أطرق لحظة ثم كذب بتوتر:

- طبعاً تعلم.

ثم ضحك بعصبية تفضح اضطرابه:

- هل تظنّ أنني سأسرقك في جنح الليل؟

طأطأ منصور رأسه بخيبة أمل، كيف تتركه أمه بهذه البساطة؟ إنه لا يمانع الجوع والفقر، لا يريد العيش «كالعقيلات» الذين يتنقلون طوال السنة، يتردّد من بابل المجهولة إلى المجمعة. لأن هذا ما كان يظنّه، أنه في رحلة تجارية. لا أحد يعرف بابل في المجمعة، لطالما ظنّ أنه مكان حقيقي يوجد الآن، كما كان والده يُقنعه بذلك «بابل في العراق، انظر هنا في الخريطة» ثم يريه مكانها جنوب بغداد، ويخبره ألا يقول أياً من هذا لأحد. ولكنه طفل، فيسأل والدته التي تغضب من زوجها المهووس بمدينة لم يسمع بها أحد من قبل إلّا في التاريخ، تخبر إبراهيم الذي يُقرّع سنحاريب كطفلٍ صغير ينزوي في جلسته مطأطِئاً رأسه بخضوع ناقم.

يحدِّق سنحاريب بكآبة في زرقة الفجر. اسمه الغريب وثقافته

المريبة ولغته العربية المكسّرة، الجميع يسخر منه، يعتبرونه أجنبياً دخيلاً لا يمتّ بصلة لهم. زوّجه إبراهيم وهو في السادسة عشرة من عمره ليُجبره على الجلوس والانتماء إلى هذا المكان، ولكن زوجته ظلَّت تهجره بين الفينة والأخرى، بوادر غرابته المثيرة للريبة لا تظهر في لكنته فقط، ولكن في قصصه وخرافاته عن بابل، يتحدَّث عنها بغموض مستفزّ دون أن يصرِّح أنه كان فيها، لئلّا يوصم بالجنون. يحلم بها، يرسمها، يتوقف شارداً وسط الصالة ذات نهار فاتر وكأنه يتخيل نفسه داخلها.

رفض تغيير اسمه الذي كان يُحرج والده، ظلّ محتفظاً به كنقطة مرجعيّة للوهم الطفولي البابلي، يهذي بها في لحظات ضعفه المنهار، يريد الهرب إليها فيخذله خوف متأصّل وعزيمة متخاذلة، يخبر منصور بقصورها ولغتها وحياتها، كحضارة موجودة تختبئ وراء ستارة الوضوح.

ولكن منصور قد سُرق منه، لم يعُد يستمتع بقصص بابل كما كان، يريد حمل البندقية والفلاحة في المزرعة وارتياد مجالس الرجال.

قال سنحاريب بنبرة متوددة:

- هل أنت مرتاح في الخلف؟

ولكن منصور ظلّ مطرقاً، يتشبَّث بخيبة شكّ متوجسة، يشعر وكأنه تمّ انتزاعه من بيته. يحب والده كثيراً، يثق فيه ثقة عمياء، كأبٍ مقرّب يلاعبه ويداريه بحنوٍّ أبوي حميمي. ولكنه بدأ يستشعر الفرق بينه وبين جدّه بغموض لا يستطيع أن يفهمه كطفل، يبدو أكثر رقة مقارَنَة برجال المدينة. قال بنبرة لامبالية:

- نعم مرتاح.

قصص بابل الخرافية ليست كافية لأنْ تجعلها بيتاً له، فكَّر سنحاريب بكآبة وهو يتأرجح فوق خيله. لقد غسلوا دماغه، ما الشيء المميز في كلّ ذلك القحط ليفتقده؟ ستكون مهمته أن يجعل بابل بيتَه، ولن يكون ذلك صعباً حينما يشاهد بوابة عشتار والحدائق المعلّقة ومعبد الإله مردوخ. ابتسم سنحاريب بشيء من الارتياح، أخرج خريطته، هنا الطريق إلى العراق، مرسوم بدقة واضحة، هنا بغداد في نقطة واضحة، بابل تقع جنوباً عنها. الوضوح، لا سبيل للضياع. اشترى الخريطة من رجلٍ من العقيلات يسافر إلى الزبير كل سنتين، درس ما قيل وما كتب عن بابل فاكتشف أنها تقع جنوب بغداد بمسافة ثمانين كيلومتراً، جمع أغراضه واشترى خيلاً أصيلاً بأموالٍ كَنَزَها طوال السنوات الماضية، وحمّله بما يكفي من الماء والطعام. كل شيء واضح بعناية فائقة.

لم يفكر في احتمال عدم ظهور بابل، بدا أمراً غير قابل للتصديق، ألّا تستجيب بابل لتائهٍ من أبنائها يبحث عنها. الكلّ يظنّ أن بيته يظلّ جالساً في انتظاره، أنه استثناء لا يطاله تشويه الضياع والدمار والنسيان.

الشمس تختبئ خلف الغيوم، نسيم الربيع يحمل ألقاً لطيفاً. استراحا الليل تحت شجرة سدر في سهل تغطيه خضرة العشب، ترفّ في حوافه نباتات الخزامى الزرقاء. جلس أمام النار وهو يقول:

- يجب أن أعلمك كيف تُشعِل النار.

ولكن منصور ظلَّ منكفئاً على نفسه، بعينيه المتحجِّرتين، يلمع ضوء النار في شجّ جرحٍ دائري كبير على صفحة جبينه يشبه الخاتم،

لطالما تأمَّله جده إبراهيم بنظرةٍ شكٍّ تتبعها ابتسامة رقيقة وهو يقول: «ستكون رجلاً ذات يوم، ولكلِّ رجلٍ قصة ما يعيشها مهما حاول هو أو غيره عكس ذلك» ثم يطأطئ رأسه بشيء من الحزن الذي لا يفهمه منصور. قال ببرود متجمد:

- أعرف كيف. لقد علَّمني جدّي.

حدَّق فيه سنحاريب بشيء من الألم، يشعر بابنه يتسرَّب كالماء من بين يديه. حطب الأرطى يخشخش في النار برائحته الزكية، تختلط برائحة مطر نقية في الهواء. قال برقة بالغة:

- صدقني، ستحب بابل كثيراً، ستحبّ معبد مردوخ ومهرجان رأس السنة. ألا تذكر القصص التي كنت أخبرك بها؟ ألم تكن تحبُّها؟

ثم بدا وكأنه يكلم نفسه:

- ستحب الأسواق والأزقة والبيوت والخيول والمعابد واللغة، ستحبّ كل شيء. لو لم يجبرني والدي على الخروج منها، لما خسرت يوماً خارجها.

قال منصور بصوت كالهمس:

- كما تفعل معي الآن؟

انتبه سنحاريب مسحوباً من خيالاته بذهولٍ متدرِّج. قال باندفاع مبرِّراً:

- لا لا. ليس كما أفعل معك. طبعاً لا، لا يمكن أن أفعل بك شيئاً كهذا.

- ما الفرق؟

بدا كالمتورط، فتح فمه فلم تخرج غير تمتمة متصادمة.

- أنا أخرجك إلى مكان أفضل، إلى بيت أفضل، إلى بابل بحق الله. يجب أن تثق فيّ، أنا والدك.

ولكن منصور لم يرفع رأسه. أحسَّ سنحاريب برائحة الجرح الذي نكفه والده قديماً أمام جثة الخيل النافق، تعود لتفوح بينه وبين ابنه، فشعر باضطراب قلق، قال بيأس مندفع:

- اسمع. سنجد بابل، أنا متأكد من ذلك. ولكن إذا لم تعجبك الحياة هناك، أعدُك أننا إذا عدنا للمجمعة، فلن أجبرك على الذهاب مرة أخرى.

رفع منصور رأسه ببطء، لم يكن راضياً، ولكنه يبدو حلّاً عوضاً عن الحتمية المطروحة سابقاً. ولذا قال بثقة:

- طيب موافق. ولكن جهِّز من الآن أن أعود إلى المجمعة وأبقى فيها.

هزّ سنحاريب رأسه برقّة مطمئنة:

- ستغير رأيك. صدقني.

ولكنه لم يحتمل التحديق في عينيّ ابنه. الوغد المسكين، لا يدرك أن المجمعة قد اختفت. أشاح بصره نحو النار، يحدِّق بطعنة حادة من تأنيب الضمير، يؤجل خيبة أمل ابنه باختفاء المجمعة إلى زمن قد لا يأتي، إذ لا بدّ أن يُعجَب ببابل، لا بدّ أن يعجب بها. بدا وكأنه نسيه من جديد ليغرق في ذكرياته وخيالاته الخاصة.

يسير في الطريق الذي وُصف له نحو الزبير، يتتبَّع الشمس واتجاه الظل في النهار، والنجوم التي تعلّم مواضعها في الليل. الخريطة تشرح مدن العراق، بابل ستكون جنوب بغداد. مدن الخريطة تبدو كنقاط صغيرة، المسافات في الواقع أكثر غموضاً

وتشظياً. الغيوم تحجب السماء أحياناً، ولكنه يسير في الاتجاه نفسه حتى تنكشف. الصحراء ممتدّة بلا رمال، نباتات الثمام والرمث والنصي تخرج كشواهد القبر من الأرض، وحيدة تواجه الجفاف والقحط.

حمل كلّ شيء قد يحتاجانه من المجمعة، بدقة فائقة: الطعام والماء والبندقية والأدوية وحزم الحطب. ولذا لم يُصَب بأيّ مشاكل، عدا ليلة داهمه إسهال مفاجئ. يسأل منصور وقد عاد أمام النار:

- هل أنت بخير؟

فيجيب برتابة باردة:

- نعم.

يحدق فيه سنحاريب بِحَيرة، الطفل يبدو أقوى مناعة منه حينما كان يكبره في العمر. يتطلع منصور أمامه، لا يتحدث كثيراً، يتحرك ببطء حكيم لا يناسب طفولته، يبدو دائماً كشاردٍ يفكّر في شيء بعيد، ولكن دون أن يكون حالماً، هنالك لمحة من القسوة الباردة في ملامحه، ما زال يذكر وباء سنة الرحمة بشيء من الضبابية، الجثث والرائحة وحمّى جده. سأل والده فجأة:

- إذا كانت بابل مدينة عظيمة، فلماذا أصرَّ جدي على الخروج منها؟

انتبه سنحاريب بسرعة. لا يمكن أن تتوقع ما سيقوله منصور، يخرج فجأة من بوتقة شروده الصامت بفكرة لم تطرأ عليك. ابتسم بغموض، فكّر لحظة بشيء من التورّط. ثم قال:

- الإنسان يقوم بأشياء جنونية في سبيل اللحاق بحلم طفولي.

أطرق منصور بتفكُّر. كان قد سأل جدّه ذات يوم لماذا يصرّ والده على بابل، بكلّ هذا الهوس. يسيران في المزرعة بجانب سور المدينة، يتجهّزان لخَراف النخل بعد عدة أيام. أطرق إبراهيم بصمت كئيب، يُحب حفيده كابن له، ولكن بدرجة لا تتجاوز حدّ التجرُّد الذي لم يتجاوزه يوماً، التجرد الذي يهيئه لأن يتقبل -منذ شجّ الخاتم في جبين حفيده- القدرَ الذي سيحمله بعيداً عنه. ولكنه يحلم رغم يأسه، يحلم طوال السنوات الماضية أن يُفيق من نومه فيجد سنحاريب قد اختفى من الصورة مخلِّفاً وراءه منصور، أن يمتلك الجرأة أخيراً ليسافر وحده بحثاً عن بابله اللعينة التي فشل إبراهيم في انتزاعها من رأسه، سيشعر حينها بالارتياح، قيدُ ذلك الارتباط القديم ينفصم إلى الأبد. أعاد منصور سؤاله فقال إبراهيم بهدوء: «الإنسان يتعلق بأوهام طفولته، يظنّ أنّ كل شيء فيها حلم جميل، دون أن يدرك أنّ بابل كغيرها، الموت والقتل والوباءات والجوع: الكل يبحث عن انعكاس لطفولته». يفكِّر منصور في ردّة فعله حينما يبحث عنه فلا يجده، هل أخبره والده بسفرتهما هذه؟ أم أنهما لا يتحدثان حتى الآن؟ حدّق في والده، يدرس الخريطة بانتباه، يرفع رأسه ليتطلَّع في الأبعاد بشرودٍ منفصمٍ عن كلّ شيء حوله.

* * *

المسافة تبدو وكأنها تتمدد برتابة، يحدِّق سنحاريب بشيء من الغموض، الأبعاد المكدَّسة بالخيارات المتشابهة.

يتطلع في السماء الملبَّدة بالغيوم. ولكن لا بأس، الطريق ممتدّ في اتجاهه، سيتجاوز سهل أشجار النخيل المعمِّرة، سيدخل طرفه بذهول معلّق في تأثره، وقد نسي كل شيء. لقد عمل مزارعاً مع

والده في المجمعة، الشيء الوحيد الذي أحبه من ذلك المكان، حينما يزرع شجرة في الأرض يشعر وكأنه أنجب ابناً، ابنٌ بلا وعي يُثقل كاهل مسؤوليته، مجرّد حياة تتنفس بامتنانٍ في عمق الكون، ستعمّر لسنوات طويلة بعد رحيله. يضع قدمه في الساقية الباردة، يتطلع في التمر المعلق في النخلة، يشعر بعيداً عن كل ما يحدث حوله، الخمول اللذيذ في العزلة المستقلة، لا وجود لغير الخضرة والماء والثمر والبراءة الطاهرة الرتيبة للطبيعة.

يسير تحت النخل المتشابك، تحت ظلال الأغصان البعيدة، تنسلّ الشمس كعصيّ ضوء متكسِّر، بينما يتردَّد كرير الخيل مع حفيف الورق. وقفَ دون أن يدرك، لحظةٌ من الشرود المنوّم، يزحف كل صوت مفخماً بعمقٍ أجشّ، وكأنه في قوقعة زجاجية معزولة، يحدِّق بشرود هائم في ستارة الأغصان فوقه، يتذكر ما قاله رجل العقيلات الذي باعه الخريطة حينما سأله بتردُّد «هل للأرض حافة تسقط منها فعلاً؟» ضحك الرجل وهو يقول: «الأرض مكورة، لا تقلق»، أطرق لحظة ثم قال بخجل الجاهل: «وما يعني هذا؟»، فتح الرجل الخريطة وأشار إلى مكان ما ثم قال: «أيْ يعني لو أنك بدأت من هذا المكان، ومشيت حتى قطعت العالم كله، في خطٍّ مستقيم، فإنك ستصل مرة أخرى إلى المكان الذي بدأتَ منه» هزّ رأسه موافقاً وهو لا يفهم جيداً ما يعنيه الرجل، كيف تصل إلى المكان الذي بدأت منه، وأنت تسير في خط مستقيم؟ إنه أمر لا يمكن أن يفهمه.

- يبه هل سنجلس هنا؟

انتبه سنحاريبْ ببطء، قال وهو يشد اللجام:

- لا.

ثم أكمل السير كمن أفاق من إغفاءة شاردة.

مرا بجانب أرنب بري، يتنقل بين عشب الرمث في السهل المنبسط.

- يجب أن نقتله.

قال منصور بحتمية رتيبة. كان سنحاريب قد نزل يجرّ الخيل نحو العشب ليأكل منه. التفت نصف التفاتة نحو ابنه بذهول:

- لماذا؟ لدينا ما يكفي من الطعام.

- يجب أن تحتاط، هذا الأرنب قد ينقذنا من الموت حينما تنتهي المؤونة.

- لن تنتهي المؤونة، ثق بي، لقد حسبت حساب كل شيء.

انتبه فجأة إلى أن ردّ ابنه يكاد يكون مطابِقاً لردّ والده حينما سرق طعاماً ذات مرة، حاول أن يتذكر متى ولكنه لم يستطع. ولذا قال بارتباك مندفع:

- لماذا إذاً يموت؟ لمجرد الحيطة؟

فكَّر منصور بِحَيرة.

- نعم، لماذا لا أستطيع أن أقتله ولو احتياطاً؟

أطرق لحظة ثم قال كيفما اتفق:

- ألن تغضب من الأسد الذي سينقضُّ عليك لمجرّد أنك مررت بجانبه؟

- لا. لأنه لو لم يقتلني كنت سأقتله.

حدّق سنحاريب بنظرة متورطة. يقف بتردُّد، يتطلع في ابنه بطرف عينه، لا يُشبهه في كثير من الأحيان، وهو ما يستفزه، أشاح

بنظره وأخذ يراقب الأرنب برتابة لامبالية. الخجل الذي يجرح كبرياء رجل بثقة مهزوزة في رجولته، حينما تطفح نبرة ابنه باستنكارٍ مُشكّك. سيقتل الأرنب الحقير، لا بأس.

وجّه البندقية نحوه، ما زال يجد صعوبة في الإمساك بها، أمضى نهارات طويلة مع والده، يحاول تعليمه الرماية فيفشل في ذلك. قبض على بطن البندقية بقوة، وجّه الفوهة نحو الأرنب، واستعد ليطلق بعين مغلقة وأخرى متوثبة. ولكنه تأخر، الأرنب يتنقل من عشبة إلى أخرى، يقرض بفمه منكمشاً على نفسه، يكاد سنحاريب يشعر بخوفه، بالألم الشديد الذي ستُحدثه الرصاصة. البندقية تهتزّ في يده، سبابته تبتعد برفق عن الزناد، الأرنب يسير بخفة راقصة، يركض مختفياً في البُعد.

أنزل سنحاريب البندقية بما يشبه الانهيار المتحجر.

- لماذا لم تُطلق؟

سأل منصور ببراءة. لم يكن يشك فعلاً في والده، الأطفال لا يفكرون في أن الخوف ينال من الكبار، ولكن الكبار يفسّرون ما يقوله الأطفال بطريقة الكبار. ولذا التفت بحدّة مفتعلة وهو يقول:

- البندقية فيها مشكلة. ألا تصدقني؟

- ولماذا لا أصدقك؟

طأطأ سنحاريب رأسه وصعد فوق ظهر الخيل. قال منصور بتلقائية لامبالية، حتى بدا وكأنه يواسي والده:

- إذاً لسنا في حاجة إلى قتل الأرنب، لا بأس.

نبرة المواساة في صوت ابنه تظهر بوضوح، يبدو وكأنه لم

يصدِّق أن هنالك عيباً في البندقية. خطٌّ خطير، لا يجب أن يتجاوزه الابن بأن يواسي والده، الإحساس بالضعف يسلب العاطفة، يجبر الأب على أن ينظر لابنه كمنافس، كشخص يصفعه بضعفه. ولذا عاد سنحاريب ليقول بإصرار:

- هل تريد أن تجربها؟ هنالك مشكلة في الزناد.

أطرق منصور بحيرة، طفل في التاسعة من عمره، لا يملك جدولاً وخططاً نفسية كالكبار، يقول ما يريد دون تفكير. ولذا قال باستنكار:

- إذا كانت هنالك مشكلة في الزناد فلماذا أُجرِّبها؟

أعاد سنحاريب البندقية إلى الجراب. ربما لم يقصد شيئاً بالفعل؟ فكَّر وهو يلكز خيله بشيء من الحيرة الناقمة.

الزمن يتسرب من بين يديه، المسافات تتكالب بشيء من الغموض. كاد أن يحيد عن الطريق عدة مرات ببطء لامنتبهٍ، فتباغته انتباهةٌ مفاجئة ليُعدّل مساره.

لم يكن قد أخبر منصور بحقيقة ما حدث، الانتقالات الزمنية في الخريطة الجغرافية، ولم يكن والده قد أخبره أيضاً، ولذا ظلّ يخشى اللحظة المشؤومة، حينما يمران بمدينة لعينة فيضطر لأن يخبره أخيراً، وحينها سيكتشف ما حدث للمجمعة. سيجنّ لا محالة، سيكرهه إلى الأبد، لن يحاول فهم شيء عدا الكره، سيكون نقياً لدرجة أنه سيكبر معه، ولن ينساه. إنه أمرٌ يثير الرعب في قلبه.

ولكن لا شيء حتى هذه اللحظة، لا شيء سوى الصحراء. بلا قرى، بلا مدن، بلا أسوار، يبابٌ شاسع من الخواء والوضوح. يكره عواصف الغبار حينما تثور، يكره ملمس جلده النحاسي

بخطوطه المتعرِّجة، يكره وادي الرمة حينما وقف أمامه مقفراً كالموت.

يتطلع في الغروب كحريقة مكرَّرة في الأفق المطلق، يقف ليستنشق الأرض بعد أن يبللها المطر، يتطلع في سهول الأشجار التي تثقب المدى. يفكر لماذا يثير كل هذا الجمال شيئاً من الحزن؟ لماذا تبدو الصحراء كأرملة جميلة؟ إنه شيء لم يفهمه، جمال الصحراء ينقع في أسى رتيب، كلمحة وداعٍ لصديق سيرحل إلى الأبد، تنغزك بحزنٍ غامض غريب.

الخيل يسير ببطء أكثر، قوائمه تنثني بوجع. لم يستطِع مقاومة ثقله، برك أخيراً فكاد منصور أن يسقط عن ظهره. كان سنحاريب قد حمّل حزماً كثيرة من حطب الأرطى، ربطها فوق ظهر الخيل، حتى تمكن الثقل أخيراً منه، فبرك بعجز منهار، يصهل بإنهاك مزبد.

- يجب أن نتخلص من الحطب.

قال منصور بنفسٍ لاهث. فردّ سنحاريب بسرعة عصبية:

- لا.

ولكنه رضخ أخيراً وتخلَّص من جزء كبير. جلس أمام النار، يحدِّق في الحطب المحترق، بنظرة وجوم متحجرة، تربض فيها لمحة جزع خفية. ما زال يخاف من الظلام، الشيء الذي يخاف منه أكثر من الموت نفسه، منذ أن جلس تلك الليلة مع والده تحت أشجار النخيل المتيبسة في ظلمة دامسة. الخوف الذي يتغذى على الذاكرة، يكبُر مع الوقت حتى يتجاوز بذرة الخوف الأساسية، يضم أشياء أخرى كالخوف من الصحراء بشكل عام. لقد كان يؤجل الخروج إلى بابل خوفاً من الصحراء والظلام، وقف سنوات يحدق في

ضواحي المجمعة، مقيداً بقشعريرة خوف متوترة. مرَّ به وباء سنة الرحمة، شاهد فتى بدوياً يدخل المدينة، يجر جثث أمه وأخويه الصغيرين في بساط منذ يومين، كانوا مرتحلين إلى مضارب بعيدة قبل أن يهجم الوباء عليهم، ولذا قرَّر والده أن يذهب بحثاً عن قرى قريبة يستطيع طلب المساعدة فيها، ولكنه لم يعُد، انتظره الطفل عدّة أيام مات خلالها الجميع، يترقب المدى بحثاً عن شبحٍ بعيد، ولكن لا شيء، استسلم أخيراً ووضع الجثث في البساط، وأخذ يجرّهم بعيداً عن خيمتهم المُرتَحَلة، حتى وصل المجمعة. كان سنحاريب ممّن استقبله. شاهد جثثاً وموتاً وجوعاً، حتى بدأ يخاف من الخوف نفسه، يخاف من أن يخاف، من الكوابيس والخيالات المثقلة بالصور والأصوات. ولذا قرر الرحيل، ولكنه حمل بتخطيط صبياني قِطعاً من الحطب، ورقة أمان مؤقتة ضدّ وحشة الظلام. يحدِّق في النار بنظرة حزن مرتعب. إنه ليس حطباً فحسب، إنه باب ينكسر، بابُ ضوء سيغمره ظلام ما.

يتطلع منصور في والده، يبدو لأول مرة شبيهاً بجدّه، النظرات الغائرة والوجه المتحجِّر والشرود الكالح. فكَّر لحظة ثم قال:

- لا تقلق. سنجد حطباً على طول الطريق.

رفع سنحاريب رأسه بذهول. أطرق بِحَيرة ثم قال:

- أنا لست قلقاً. أعرف أننا سنجد حطباً في الطريق. لا تقلق.

فقال منصور بتلقائية:

- ولكنني لست قلقاً.

- ولا أنا.

يتطلعان في بعضهما بوجوم، ينتظر كلاهما تبريراً من الآخر،

ولكن لا شيء. ولذا عاد سنحاريب ليحدِّق في حطبه المحترق، وظلّ منصور يتطلّع بِحَيْرة في والده.

* * *

تفاجئه الكوابيس أحياناً، كوابيس جثث وباء سنة الرحمة، أن يقترب الموت منك لدرجةٍ أنك تستطيع شمّ رائحته، ولمس آثار جروحه، والإحساس بشبحه بين الأزقة. كوابيس جده ضاري الذي احتُضر بقيء يمتلئ بالدم، كوابيس الرجل الذي وضع فوهة البندقية في وجه والده، كوابيس جثة ابن سياف الذي مات برتابة قاسية. توقفت الكوابيس، ولكن النوم توقف أيضاً، جلس الليلة كاملة، ينام منصور بجانبه بأريحية متحرِّرة من الضعف، وكأنه يعيش في الصحراء منذ دهر. يفكِّر ماذا لو أنه لم يجد بابل فعلاً؟ يُخرج الخريطة، يتأمل الطريق، محالٌ أن لا يجدها، الوضوح واقعٌ لا يقبل الشك. نام ساعة ثم قام بصداع مُنهك، رفع رأسه إلى الأفق، يفكر أن السماء مظلمة كستارة وأن النجوم ثقوب يراقب الملائكة منها ماذا يفعل الأحياء، يحدق فيها بقوة، علّه يرى عين ملاك وراء ثقب النجم، ولكن لا شيء، مجرد خواء ينام في عواء ذئب بعيد واهتزاز شجرة مع الريح. انتبه لرجل يقترب في الظلّ الشبحي، همَّ بالقفز ولكن أذرعاً جذبته من الخلف بقوة وقيَّدته وغطّت رأسه. حاول أن يصرخ، ولكن شيئاً يُطبق على فمه من وراء الغطاء، كَيَدِ كائنٍ عملاق تغطي كل وجهه. ينتفض دون جدوى، يحركون جسده كدمية، يرفعون يديه ويمدون قدميه حتى استقر متدلياً من جذع شجرة، وقد نزعوا الغطاء عن وجهه وربطوا فمه بلاصقٍ كحديد ملحّم، تضيء المكان نار عالية تأتي من جهة ما. يتحرك في مكانه متدلياً كالذبيحة المسلوخة،

يحدِّق حوله بجَزَعٍ لا وعي فيه. الرجال الأربعة يضحكون بأوتوماتيكة رتيبة، تقدَّم أحدهم منه، صفعه عدة مرات لينتبه، توقف رأس سنحاريب أمام الرجل، يتطلع نحوه بقناعه الأسود وعينيه اللامتعين في انعكاس الضوء كجمرتين ملتهبتين. أشار بيده إلى الأمام حيث يقطن مكان المبيت بعيداً، يبدو منصور النائم كحبّة البازلاء تحت ضوء النجوم. قال وقد عاد ليحدق في سنحاريب:

- هل تعرف مَن هناك؟

تحرك متدلياً في مكانه برعبٍ فصفعه الرجل حتى وقف باستسلام خاضع. عاد ليقول:

- هل تعرف؟

فهزَّ سنحاريب رأسه، يشعر بوجهه يكاد يحترق. قال الرجل:

- جيد. كم عمره؟

تكلم سنحاريب من وراء اللاصق القوي بصعوبة:

- تسع.

- طفل؟

فهز رأسه بعنف متألم. فقال الرجل بشيء من الرقة:

- أعلم. أعلم. إنه مجرد طفل. صحيح؟

فظلّ سنحاريب يهز رأسه أملاً في عاطفة ما، يكرِّر بصوتٍ مكتوم: طفل طفل إنه طفل. يهز الرجل رأسه باتفاق مصطنع وهو يكرِّر أعلم أعلم. اقترب منه أكثر ثم قال بهمس أجش:

- أريدك أن تتخيل هذا: يقوم منصور في الصباح، ويراك هنا، معلَّقاً متدلياً، كجثة متفحمة.

انتفض سنحاريب في مكانه بقوة فأمسك به الرجل وهو يقبض على فكه فيكاد يكسره، يقترب منه أكثر.

- تخيل ماذا سيفعل؟ كيف سينجو؟ ثمة أشياء ألعن بكثير من الموت، لو أنّ ابنك يموت مكانك لانتهى كل شيء بارتياح في لحظة من الألم، ولكنه سيعيش، هنا، في كل هذا الخواء المطلق من الضياع والتيه، سيمرّ بوحوش وثعابين ومدن تمتلئ بالشياطين، سيعطش أياماً، سيجوع أياماً، سيتآكل ببطء ثقيل، قطعة قطعة، سيشعر بكلّ ألمٍ بكلٍّ وجعٍ بكل فَقْد، ثم حينها فقط سيُسمح له أن يموت. كل هذا سيحدث: لأنك أنت ستموت.

كان سنحاريب يتحرك برُعب مهول وهو يشعر بأنه يكاد يفقد عقله، يتطلع نحو جسد ابنه النائم البعيد جداً رغم قربه، والبكاء يختلط بالعرق في عينيه بغشاوة مائية. أحسَّ بشيء مسنَّن ينغرس في جنبه، ونارٍ تقترب منه، ثم بجلده يغلي، يطبخ، يحترق، تفور من فمه سوائل الأحشاء المُذابة وتتفتح في جلده جروح فقاعات الأنسجة اللزجة ويرتجف كالورقة في العاصفة حتى يتفحم. وحينها أفاق من نومه متعرقاً بدوارٍ هائل، الأرض تميد بقسوة عنيفة. قفز من مكانه واقترب من منصور، أخذ يتطلع في وجهه النائم بدعة ناعمة، يراقب صدره يرتفع بأوتوماتيكية دقيقة، يتلفت حوله فلا يرى سوى الظلام والخواء المطلق. العرق ينحدر نحو شفتيه، يتنفس بقوة هائلة. عاد إلى فراشه وهو يلعن النوم، يلعن الكوابيس، يلعن الحياة، بل ويكاد يلعن بابل.

أخذ يراقب منصور في الصباح بطرف عينه، شيء من الحدّة الغامضة يطغى عليه، وكأنه لأول مرة في حياته يشعر بابنه كحِملٍ

ثقيل، مسؤولية خطيرة لا تتوقف ولا تنتهي إلا بمأساة فقده. شيء من النقمة والحب العميق يختلطان بغموض يثير كثيراً من الجزع في نفسه.

* * *

تجاوزا شط البصرة من جهة الزبير، الخريطة الآن تكتسب أهمية أكبر.

وقفا في سهل يمتلئ بأشجار اليوكاليبتوس، زرقة الغروب باهتة بين سحب الخريف المتقطعة. اقترب خيل من الخلف فاستلّ سنحاريب بندقيته بسرعة، هتف الرجل فوقه ضاحكاً وهو يرفع يديه:

- أنا لست قاطع طريق، لا أمتلك ما يكفي من الشجاعة لأكون ندّاً لأحد. إنني مجرد عابر. عابرٌ ما نحو طريقٍ ما.

أنزل سنحاريب بندقيته ببطء، يتطلع بالرجل الذي يختفي وراء الظلّ البعيد. اقترب بخيله حتى وقف أمامه، نزل وهو يمدّ يده فبدا لسنحاريب مألوفاً، أربعينيٌّ بشيبٍ قليل في صدغيه. سلَّم عليه بحذر فقال الرجل:

- معك صالح بن سياف الشمري.

أطلق سنحاريب يده ببطء وهو يتطلع بذهول في ابن سياف، ينفرج فمه بدهشة متحجرة. قال الرجل ضاحكاً:

- ما بالك وكأنك رأيت شبحاً؟

التفت نحو منصور تحت الشجرة:

- إنني أثق في مسافر يسافر مع ابنه. لا يمكن لرجلٍ أن يَغدر أو يَسرق أمام طفله. ألا تتفق معي؟

أنزل حزمة من خيله وهو يقول دون أن ينتظر جواباً من سنحاريب:

- هل تسمح أن أبيت معكم؟ إنني أفتقد الصحبة. أفتقد الأحاديث الطويلة والسمر أمام النار. لا يوجد ما هو أبشع من الوحدة.

أطرق وهو يحدق شارداً في الأرض ممسِكاً بحزمته، ثم أكمل وكأنه يحادث نفسه:

- إنها لا تقضي عليك مباشرة، وإلا لكانت قاتلاً رحيماً. ولكنها تقتلك ببطء، تنخر فيك كالسم الذي يستغرق زمنا طويلاً من العذاب ليقتل.

رفع رأسه وقد استعاد ابتسامته متطلعاً نحو سنحاريب الذي ما زال يبدو مندهشاً، يترقب منه رداً ما. ولذا قال سنحاريب كيفما اتفق:

- نعم. طبعاً. حياك.

جلس على السفرة وهو يتطلع باسماً نحو منصور.

- ما اسمك؟ أراهن أنه اسم ثقيل يدلّ على شجاعة ما.

فقال ضاحكاً:

- منصور.

فهتف ابن سياف:

- أها. من النصر. لقد قلت لك. التاريخ يمتلئ بالمناصير. إنك جزء من التاريخ بمجرد أن لك اسم، هذا أول حق لك تعطيه الحياة لك، إنك شخص سيُقال لاحقاً فيه: كان هنالك مناصير كثيرون فعلوا الكثير. هاه؟ هاه؟

فضحك منصور بلذة. التفت ابن سياف نحو سنحاريب، وكأنه يترقب أن يقول اسمه. ولذا قال بصعوبة:

- معك سنحاريب.

ابتسم ابن سياف ابتسامة واسعة وهو يُخرج حُزمة تمرٍ وقربة ماء:

- ملك من ملوك بابل، يصحبه منصور. لن يقف في وجهكما إلا ملائكة السماء.

ساعد سنحاريب في إشعال النار، ثم أخذ يأكل التمر وهو يمدّه لسنحاريب ومنصور الذي أخذ ينصت بشغف، يقصّ دون مناسبة قصّة عن رجل عاش في كهف لمدة من الزمن، هرباً من الناس، لا رفيق له سوى الشمس والقمر والنجوم، يناجيهم ويشاركهم مخاوفه ويخبرهم بما سيفعل في حياته القادمة. إلى أن خسفت الشمس ذات نهار، فارتاع وجلاً بجنون هستيري، مضى يركض في الصحراء حول كهفه مادّاً يديه نحو السماء، وكأنه يبحث عن الشمس ليقبض عليها ويُعيدها إلى مكانها. ضحك ابن سياف بكآبة غريبة وهو يقول:

- هذه القصص لا تقرأها بشكل صحيح إلا حينما تضحك وتحزن في آنٍ واحد. حينما تتخيل منظر رجل يركض ليقبض على الشمس، فتضحك وأنت تتمزق شفقة وضعفاً.

أطرقوا جميعاً بصمتٍ رخيم، الظلام يتكاثف بثقلٍ حول النار، الريح تهفّ بخمول ناعم. استغل منصور الفرصة فقال:

- هل تعرف شيئاً عن نجد؟

- أعرف كل شيء عن نجد. هل أنتما متجهان إليها؟

فقال سنحاريب بسرعة حذرة:

- لا. إننا متجهان إلى بغداد.

- وأنا متجه إلى دمشق. لا نملك سوى هذه الليلة إذاً؟

فهزّ سنحاريب رأسه بابتسامة مرتبكة:

- ليلة واحدة تكفي أحياناً.

طبخا لحم أرنب كان ابن سياف قد صاده قبل يومين، وأخذ يسرد قصّة صيده لهما فيتابعه منصور بضحكات وشغف طفولي مرح، بينما يراقبه سنحاريب بنظرة رثاء كئيبة، يتذكر منظر ابن سياف شيخاً نحيلاً أنهكه سفر طويل، يتذكر جثته الشاحبة في انعكاس الضوء، يتذكر القبر المسطح الذي ألقاه فيه، يتذكر والده وبابل والجوع والعطش والألم، يتطلع في الفراغ وهو يتذكر، يتحجر وجهه بحزنٍ عميق، يتسرب إليه صوت ابن سياف وصوت ابنه يداخلهما صوته القديم، حينما كان يسأل ابن سياف عن أخبار الأمم القديمة، عن القصص السحيقة التي دُفنت مع الأموت. رفع رأسه، حدَّق وراء النار في الأربعيني بجانب الطفل، شعر بحبٍّ نقي لكليهما، رغبة ملحّة في أن يمنحهما كل شيء. قال:

- إذاً ماذا ستفعل في دمشق؟

أشرق وجه ابن سياف في تورّد النار الحميمي. مزّ شفتيه بألقٍ وهو يقول:

- لا تعرف كم أريد أن أخبرك، ولكنني لا أستطيع. إنه فأل سيئ أن تخبر بما تريد القيام به، قبل القيام به.

- تبدو متحمساً للقيام به.

فزفر وهو يرفع إلى فمه لقمة من اللحم:

- لا تتخيل كم أنا أترقب هذه اللحظة. أعوام وأنا أنتظر هذه اللحظة. أن تكافح وتعيش في الظلّ حتى تنجح أخيراً.

ثم قال بامتنان عميق:

- الحياة كريمة. كريمة. صدقني. إنها تتغلى فقط.

تتلاشى الشفقة التي يتطلّع من خلالها نحو ابن سياف ببطء غريب. يفكِّر أن يقول له بهدوء لامبالي «الحياة ستخونك يوماً ما، ستطعنك فجأة وأنت في رحلة بعيدة، ولكنك لا تعرف هذا بعد» ثم يراقب ملامحه وهي تتغير، تنهار، تتبنى شكاً عدائياً تجاه كل شيء. يراقبه سنحاريب بصمت، بقي أثرٌ باهت من الشفقة، واستحلت مكانها كآبة أنانية مرتعبة. لأول مرّة يفكِّر في نفسه من خلال أثر الانعكاس الذي أحدثه ابن سياف، هل ستخونه الحياة يوماً ما؟ هل ستسحقه ثم لا تُبقي منه غير أثرِ قبرٍ سطحي في مكانٍ ما من الصحراء؟

تفارقا فجراً. ظلّ واقفاً بجمود متحجر كئيب يراقب ابن سياف، يخترق صفرة الشمس المعلقة في حافة الأرض كقطرة الدم، يبدو شبيهاً بذلك الرجل الذي يركض نحو الشمس ليقبض عليها.

ركب خيله أمام ابنه، ومضى وهو يشعر بنفسه مختلفاً.

* * *

الوضوح يقود الطريق، الانتباهة المفاجئة تمنعه من أن يَحيد عن المسار، يعود إليه فور الخروج منه. ولكنها تقلّ حدّة مع الوقت، أصبح يعود بعد مدة أطول، ثم مدة أطول من سابقتها.

الأبعاد المكدَّسة بخياراتها المتشابهة، تختلط بشكٍّ مستفز. الزمن يتشظى حتى يبدو كالماء في قبضة اليد.

منصور يرمي هشيمه في النار. يُلمّح له دون مناسبة:

- لا تنسى وعدك لي، أن أعود إلى المجمعة إن أرَدْت، ولا أرجع ثانية إلى بابل معك.

يهز سنحاريب رأسه بصمت متحجر دون أن يلتفت، يحرك بوجوم حطب النار بغصن ميت. يرمق ابنه بطرف عينه بشيء من الحدة، شقُّ الجرح في جبينه يشبه شقّ جرح ذلك الرجل الذي سرقهما. يشعر بشيء من النقمة تجاهه، لماذا لا يثق به؟ لماذا لا يحاول أن يسايره؟ أن ينتظر الوصول إلى بابل حتى يُصدر حكماً؟

ناما أول ليلة من دون نار. استلقى سنحاريب بقلق متحجّر، يحملق في النجوم، فلا يتذكر ما تعلَّمه عن اتجاهاتها. كلها تبدو متشابهة، لا تختلف عن الطرق التي تشتبك في بعضها في امتداد الصحراء.

- أين الطريق الذي أتينا منه؟

قال منصور متلفتاً حوله وكأنه يسأل نفسه. التفت سنحاريب نحوه بغضبٍ مكبوت، يلمح شبح جسده في الظلام. يفكر أنه سيكون من الصعب أن تجعله يشعر بأنّ بابل بيته، كيف تجعل مكاناً ما بيتاً لشخص لا يريد مجرّد التفكير في ذلك؟

الفصل الرابع

الوضوح - التيه

سقطت الخريطة من جراب السرج، دون أن ينتبه سنحاريب لها. تهفُّ مع الريح فوق التل ببطء رتيب يتبرأ من أي فاجعة دراماتيكية.

- انظر. اثنان مثلنا.

هتف منصور وهو يؤشّر على رجل يركب فوق خيله، ويتشبث به طفل وراءه. همس سنحاريب بحدة:

- اهدأ. لا نريد لأحدٍ أن ينتبه لنا.

كان الرجل قد التفت فوق خيله، وكأنه سمع الصوت، تلفَّت حوله لحظة، ثم أشاح بنظره. ظلا يسيران فوق التل الرفيع، وكأنه متصل بالسماء، فيبدو وكأنهما سيقتحمان حمرة الغروب البرتقالية. لم يلحق بالرجل نحو المنحدر، حيث تستقر بابل بعيداً في السهل، ولكنه مالَ نحو شمال الغرب ببطء لامنتبه، دون انتباهةٍ مفاجئة تُعدّل مساره. المسافات تتكالب بغموضها المتشظي، فتمسح آثارَها الأبعادُ المكدسة بالخيارات المتشابهة، يضيع فيها خيط الانتباهة المفاجئة التي تعدل مساره.

يحدق منصور في الطفل الذي يتشبث بوالده، حتى اختفيا في

منحدر التلّ. قال بنبرة شاردة وهو يتذكر الأرنب وقصص طاعون سنة الرحمة:

- هل سنموت يا أبي؟

يبتعد الخيل عن منحدر بابل، يسير إلى شمال الغرب. يتذكر سنحاريب والده بابتسامة ساخرة، ثم يقول:

- طبعاً سنموت. هل يوجد شيء لا يموت؟

المسافات تتمدَّد كالحلم. بحثَ عن الخريطة في كلّ مكان، فلمْ يجِدْها. يحدِّق أمام النار بنظرة انهيار متحجِّر، يراقبه منصور بخوف، سأله بعد تردُّد بغضب:

- هل تُهنا؟

رفع سنحاريب رأسه ببطء، نظرةٌ حادة منهكة لا تشبهه. همس بصوت لا يكاد يُسمع:

- كفاك أسئلة، كفاك بحق الله.

ثم أكمل كيفما اتفق:

- سنصل قريباً إلى بابل.

* * *

نهر الفرات يسيل كالخلود، يقطع التاريخ بجانبهما. الرمل يزحف من أطراف الصحراء السورية، يفور عاصفة تكبلهما في تجاويف الجبال وتحت الصخور المحدودبة.

وجّه بندقيته إلى أرنب يركض بين العشب، الجوع ينخر بقسوةٍ منهكة في جسديهما. سبابته وراء الزناد بهدوء مستسلم، نظرة باردة حزينة، «إما أنا أو هو». أطلق رصاصة أسقطته، دمه يختلط بالعشب

الأصفر. وقف يحدِّق فيه بكآبة متحجرة، عيناه تغرقان في ظلمة أبدية نحو عدمية الموت، جثة حيوان لا قيمة لها.

يتحرك في أعماقه شعور غائرٌ بشيء مفقود. يتحسس وجهه المتحجر، لحيته الكثة، رائحته النتنة. لم يعُد يبالي بقصقصة شعره، ينتثر على وجهه كبدوي يشرد في رتابة الترحال. لا يبدو شبيهاً بنفسه. أعواد الرمث تطير مع الريح حوله، السموم تنحت خطوط النحاس في جلده، الكوابيس تعود لتزحف على أطراف نومه المؤرق.

قام من مكانه، سار مبتعداً في الخواء المطلق. زرقة الفجر تنسحب على رؤوس الجبال التي تبدو وكأنها وُلدت للتو من باطن الأرض. وقف يحدِّق في الشفق المخضَّب بصفرة الشروق المتوهج، كدمٍ يختلط بمعدن ذهب مُذاب. سمع ضربات خافتة تأتي من بعيد، أصاخ السمع نحو جهة الصوت، اتجه بحذرٍ نحوه، اقترب من رجل يحفر حفرة كبيرة، لا يظهر منه عدا رأسه بشعره الأسود الذي يلمع بالعرق. وقف سنحاريب فوق الحفرة بِحَيْرة فانتبه الرجل، رفع قبعته التي رماها بجانبه، لبسها وقد التفت نحوه وهو لا يلهث بتاتاً:

- آه. أخيراً. الباحث عن الجدوى في مطلق القفر اللانهائي للتراب والخواء والزمن.

قال سنحاريب بشيء من الدهشة وكثير من اللامبالاة:

- أنت.

ابتسم الرجل وقد ألقى بالمعول وصعَدَ ليجلس على حافة الحفرة.

- نعم. أنا.

أطرقا لحظة بين الرمل المحفور المتطاير. قال الرجل:

- ألن تكمل بدلاً مني؟ أريد أن أرتاح.

- لا تبدو متعباً.

- أنا لا أتعب.

- إذاً لماذا تريد الارتياح؟

طأطأ رأسه مبتسماً وكأنه يفكِّر في فكرة تثير سخريته، رفع نظراته نحو المدى أمامه وقد اتكأ بمرفقيه على أعلى فخذيه. قال بشيء من عدم الفهم:

- كل شيء يرتبط لديكم بسببية ما. إنها عبودية من نوعٍ مزعج، ألا تظن ذلك؟ أن يكون كل شيء مؤدياً إلى آخر، وكل آخر مؤدِّياً إلى آخر، سلسلة من اللهاث وراء اللحاق بسببية الفعل الأول، الانفجار الكبير الذي أحدث كل شيء.

تطلع نحو سنحاريب بحيرة فضولية:

- أعني فكِّر في الأمر: أنت لا تملك إلا حرية الفعل الأول، ما يأتي بعد ذلك هو إرهاصات لذلك الفعل، مسببات حتمية له، لا تملك في أكثرها سوى خيار «ردّة الفعل»، وردَّة الفعل ليست منوطة بك فقط، وإنما بكلِّ ما هو متورط في الفعل الأول. حينما تشعر بلذّة تجاه امرأة، تنكحها، تحبل، تُنجب ابناً لك، يكبر الابن، رضيع، طفل، صبي، مراهق، شاب، رجل، شيخ، هرِم، ميت. كلّ ما يحدث بعد فعل النكاح، هو مجرّد ردات فعل ممنتجة مصنعياً من الفعل الأول.

أطرق لحظة ثم أكمل مستدركاً بشيء من اللامبالاة:

- بل يجوز أن يُقال أنك لا تملك أحياناً خيار الفعل الأول أصلاً.

يقف سنحاريب بشكٍّ مرهق عند حدّ الحفرة. تطلَّع نحوها، حاول أن يفهم ولكنه أكثر إرهاقاً من أن يفكِّر. قال ببساطة:

- لماذا؟

التفت الرجل متذكراً:

- أحفر؟

- نعم.

- ولماذا لا؟ أنا لا أرتبط بسلسلة إنتاج سببية لا تتوقف. هل تريد أن تجرب فعلاً كيف يجعلك هذا التحرُّر تشعر؟

أطرقا لحظة يحدقان بوجوم مترقب، فعاد الرجل ليقول بلهجة صحبوية منطلقة:

- هيا. اقبض على المعول واحفُر.

نزل سنحاريب، قبض على المعول وأخذ يضرب الأرض، بقوة عنيفة مندفعة، بينما جلس الرجل على الحدّ الترابي، يحدق في المدى الشاسع، كحفّار قبور سلّم دوره لصاحبه وجلس يرتاح محدقاً في الخواء بخمول لامبالي. المعول يضرب في الأرض برتابة موسيقية، اللحظة تمرّ بانسيابية أريحية حلمية. وقف سنحاريب والعرق يتصبَّب منه، تطلَّع فيه الرجل بعمق:

- أليس جميلاً أن تقوم بشيء ليس له أي معنى؟

رفع رأسه نحوه، يتنفّس بقوة متعبة، يشعر بإنهاك ثقيل في ذهنه، يكاد يكون استنسلاماً عدمياً لا يبالي بشيء. أنزل المعول وعَرَك وجهه براحة يديه، صعد على الحدّ الترابي المقابل أمام الرجل،

وجلسا هناك يحدقان حولهما في صمتٍ روحاني رخيم، يشبه صمتَ كون نائم بلا حلم. قال الرجل أخيراً:

- والدك في المجمعة إذاً؟

يتطلع سنحاريب بإنهاك لامبالي في الأرض، قال دون أن يرفع رأسه:

- نعم. أذكر أنك تحبه كثيراً.

- أحبه؟ أنا لا أحب أحداً. إنني أكرهه. رغم أنني لا أكره أحداً أيضاً. إنني لا أمارس شعوراً ما، ولكن ربما أُبْدي موقفاً من الكره. ثمة فرق شاسع.

فقال سنحاريب وكأنه يحادث نفسه بنقمة لا طاقة فيها:

- إنه أناني لعين.

- لا لستُ أكرهه لهذا، الأنانية شيء مقدّس، الأنا هي أهم ما تملكه، فأنت هو أنت ولست أي شخص آخر، أن تكون أنانياً هو شيء إيجابي.

رفع سنحاريب رأسه ببطء واجم.

- هل تتحدث دائماً بمثل هذه الخرابيط؟

فضحك الرجل ضحكة خاطفة وهو يتطلع في المدى المخضّب بصفرة قانية، وقد رفع قبعته إلى أعلى هامته فلمع جبينه في انعكاس الضوء، كرجل في نهاية يوم منهك.

- أنت، ولا شيء غيرك. تذكر هذا جيداً.

صمت لحظة ثم أكمل وهو يتطلع في سنحاريب:

- ابنك مثلاً. هل هو أنت؟

تطلّع في الرجل بشيء من الحذر. فأكمل:

- إذاً، هل هو أنت؟

- لا. وماذا بعد؟

- ولا شيء. فقط هو ليس أنت، أنت لوحدك مهما حاولت أن تظنّ عكس ذلك.

أطرقا بصمت يطفح بخمول هائل. بدا الرجل وكأنّ غمامة حزنٍ تطفو على وجهه، فيقاومها بنظرة ازدراء نحو المدى المطلق. قال بتأمل متمرد:

- الإنسان لا يتغير، لأن ما خارجه هو الذي يحكمه، وليس هو الذي يحكم الخارج كما يظن. ولذا تتكرر الحياة، وتتكرر ردات الفعل، ويدور كل شيء على نفسه. أنت مجرد سائل يتشكل في الجسم الذي تصنعه تلك الظواهر الضخمة خارجك، ولأن أكثر هذه الظواهر متشابهة في كل زمان ومكان كحقائق ثابتة، فأنت أيضاً لا تتغير. أنت كائن بلا سلطة، بتاتاً، ويعيش في سعادة وبؤس الوهم في أنه يملك سلطة ما. فلماذا تصرُّ على التمسك بهذا السجن الجسدي؟ هذا العجز المكبِّل في صيرورة تبعيته اللاواعية. إنه أمر لا أفهمه.

أطرق متأملاً بعمق في الفراغ. تلوح على ملامح سنحاريب المشيح بوجهه لمحة من عدم الاقتناع، يفكِّر أن كل شيء ينبع من داخل الإنسان، الإنسان الذي لا يتغير. التفت الرجل بفضول صادق:

- هل تفهمه أنت؟

ولكن سنحاريب ما زال مشيحاً بوجهه وكأنه لم يسمع شيئاً. التفت أخيراً بإنهاك، ثم قال بجفاف مَن لا يتوقع شيئاً:

- إنني أريد الذهاب إلى بابل. هل سترشدني إليها؟

تهدّل وجه الرجل بخيبة أمل متحجِّرة. قال بصرامة لا حركة فيها:

- طبعاً، ولكن ليس بهذه البساطة.

- لماذا؟

- أنت تريد الذهاب إلى بابل، أما ابنك فيُريد العودة إلى المجمعة. إذا لم يكن ابنك هو أنت، فلماذا لا تتركه هنا وأذهب بك أنت إلى بابل؟

حدّق سنحاريب بحدّة باردة في عينيه القويتين ووسامته المتحجِّرة. لم يكن يترقب غير هذه الإجابة اللعينة، أو إجابة شبيهة بها على الأقل، ولكنه رغم ذلك شعر بشيء من الإحباط. قال بصوت مجوّف لا نبرة فيه:

- أي مجنون أنت بالضبط؟

ثم أكمل متأملاً بفضول عميق لا عداء فيه:

- ماذا تريد؟ إنني فعلاً أريد أن أفهم. ماذا تريد؟

فابتسم الرجل باستسلام رفيق يائس. التفت نحو جبل بعيدٍ تلمع قنته الجرانيتية كرأس طفل رضيع. همس بنبرة تطرد إهانة غامضة:

- أنا لا أريد شيئاً.

قام من حدّ الحفرة الترابي، سار عدة خطوات مبتعداً ثم توقّف والتفت بشيء من التردُّد نحو سنحاريب، وكأنه يفكر إن كان مُجدياً أن يقول ما يريد قوله. خلع قبعته وأخذ يديرها بين أصابعه وهو يحملق فيها. رفع رأسه وقال:

- هل تعلم ماذا حدث لجدّك ضاري حينما قابلته في المرة الثانية؟

ولكن سنحاريب ظلّ صامتاً بحدّة متحجّرة، يتطلع داخل الحفرة الكبيرة دون أن يُبدي حركة واحدة. تقلصت ملامح الرجل بتقريع مَن كان يتوقع شيئاً كهذا ولكنه رغم ذلك شعر بالإحباط، وبدا أن ذلك يستفزه لأنه لا يفهمه. أعاد قبعته إلى رأسه ببطء ثم أكمل بكثير من اللامبالاة:

- ولماذا أخبرك. سترى ذلك بنفسك قريباً.

ثم مضى في طريقه حتى اختفى وراء ثكنة أشجار صفصاف كبيرة.

ظلّ سنحاريب جالساً في مكانه، يحسّ بفقاعات إعياء تغلي في رأسه وحرارة تسري في جسده، تناقض خشوع المكان المخضب بالسكينة الحالمة. ولكنه لا يشعر بالتعب، وكأنه منفصل عن الالتزام بآلية جسده. قام من مكانه، قبض على المعول، وأخذ يحفر في الأرض، يضرب بقوة عنيفة وهو يلمع متعرقاً في الضوء، تلوّح على وجهه تكشيرة عداء غامض. حتى وقف منهكاً فألقى بالمعول، وخرج من الحفرة عائداً.

* * *

يحاول أن يتذكر كم مضى منذ خروجهما من المجمعة، فلا يستطيع. يسأل منصور فيطرق الفتى بصمتٍ متحجر، يتطلع نحو والده بنظرة محاكمة مستحقرة، فيصرخ سنحاريب وقد فقد أعصابه:

- لا تُجِب. على راحتك. كنْ طفلاً هكذا.

يتذكر في عزلة الليل الشبحية، فلا يستطيع أن يتذكر شكل

والده، أو شكل جده ضاري، أو شكل مزرعة المجمعة. الروائح والانطباعات الحسية التي احتبستها قارورة ذاكرته قد تلاشت، لا يذكر رائحة الشجر الذي كان يحبه، ملمس الساقية التي كان يضع فيها قدمه. يعود ليسأل منصور كم مضى منذ أن خرجا من المجمعة، فيجيبه الفتى بصوت جافّ لا مبالي:

- إذا كنت لا تعرف فكيف سأعرف أنا؟!

منصور بدأ في النسيان أيضاً. الصور والروائح والانطباعات، تتلاشى بخفّة مستفزة، كدخان يبدو وكأنه يضحك عليك في عدم قدرتك على القبض عليه.

رائحة المطر تفوح من الرمل المبلل كبساط من ضوء، الماء يقطر من ورق الصفصاف اليابس، كرة الشمس المتوردة كقطرة الدم فوق الكثبان. يحدق سنحاريب بنظرةٍ ذاهلة، وكأن كل شيء متوقف، عالقٌ في انتقالة زمنية أبدية.

- لماذا توقفنا؟

يقفان على كُثَيب رملي نجمي. انتبه سنحاريب ببطء، يجر لجام الخيل بشرودٍ معلّق في الأفق.

* * *

الشمس تنحدر في سلم السماء. أشار منصور بسبابته ثم قال:

- هل هذه هي بابل؟

رفع سنحاريب رأسه نحو البُعد السحيق، لم يرَ قنة معبد الإله مردوخ. ظلا يقتربان من السور بجدرانه الثلاث وواجهته الأمامية المكشوفة على نهر الفرات، تظهر في عمقه القصور والمعابد، عاصمة مملكة ماري على طرف الصحراء السورية.

نزل من خيله بنظرةٍ ذاهلة، الريح الباردة تجرح غشاء العين بحُمرة مبللة، يحدِّق في مكان لا يشبه بابل، يتجمّد في أطراف فمه لعاب كالزبد. يقف منصور وراءه، يتطلع في ظهر والده، التراب يغطي شعره المتحجر. قال أخيراً:

- إذاً. هل هذه هي بابل؟

ولكن لا شيء. طنين صمت ثقيل يتردّد في فراغ العود الأبدي، ينحت هزيزَ الريح في المطلق. يقف منصور وراء سنحاريب، على خطٍّ واحد.

المحتويات

أحمد الحقيل

دوائر

«اقترب منه أكثر ثم قال بهمس أجش:

- أريدك أن تتخيل هذا: يقوم ابنك في الصباح، ويراك هنا، معلقاً متدلياً، كجثة متفحِّمة.

انتفض بقوة فهزّ الشجرة التي تمّ تعليقه فيها، أمسكه الرجل ببرود أوتوماتيكي وهو يقبض على فكّه فيكاد يكسره، يقترب منه أكثر، بنبرة الصوت اللامبالية نفسها:

- تخيل ماذا سيفعل؟ كيف سينجو؟ ثمة أشياء ألعن بكثيرٍ من الموت، لو أن ابنك يموت مكانك لانتهى كل شيء بارتياح في لحظة من الألم. ولكنه سيعيش، هنا، في كلّ هذا الخواء المطلق من الضياع والتِّيه، سيمرُّ بوحوش وثعابين ومدن تمتلئ بالشياطين، سيعطش أياماً، سيجوع أياماً، سيتآكل ببطء ثقيل، قطعة قطعة، سيشعر بكلّ ألم بكلّ وجعٍ بكل فقدٍ، ثم حينها فقط سيُسمح له أن يموت. كل هذا سيحدث: لأنك أنت ستموت».

لوحة الغلاف لمارتيروس سريان

ISBN 978-603-8082-50-8
9 786038 082508



النادي الأدبي بالرياض



الدار البيضاء - بيروت